جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)

إشراف وإعداد: أد. إسماعيل سامعي

المشاركون:

أد. إسماعيل سامعي-أد. إبراهيم بحاز-د. عبد الجليل قريان

أد. رياض بن الشيخ الحسين- أ. عبد القادر مباركية

د. حسين بوبيدي - أ. كمال صادقي- أ. كمال منصوري

العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر)
والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

الندوة العلمية:

العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)

إشراف وإعداد: أد. إسماعيل سامعي

المشاركون:

- أد. إسماعيل سامعي- أد. إبراهيم بحاز- د. عبد الجليل قريان
- أد. رياض بن الشيخ الحسين- د. حسين بوبيدي
-أ. عبد القادر مباركية - أ. كمال صادقي- أ. كمال منصوري

جميع الحقوق محفوظة

عنوان الكتاب: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر)والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)

المؤلف:مجموعة باحثين.

الحجم : 16/ 24سم .

الناشر : مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

كلية الآداب والحضارة الإنسانية -جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الايداع القانوني:فيفري 2023

ر د مك: 978-9931-456-16-2

الطبعة الأولى :2023

تقديم: الدكتور عبد الجليل قريان
مدير مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

تمتد العلاقات الثقافية للمغرب الإسلامي مع إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الغربي والأوسط) إلى فترة الفتح الإسلامي منذ الحملة التي قادها عقبة بن نافع ووصوله إلى ساحل المحيط الأطلسي في مضارب قبائل مصمودة البربرية وفتح مدن مهمة في أقصى المغرب حيث قبائل الملثمين، وفي هذه الأثناء أسلمت قبيلة صنهاجة على تململ منها.

واستمرت علاقة المنطقة بالإسلام متأججة في عصر الولاة ومتأرجحة في ظل الدولة الرستمية والدولة الإدريسية، ولكنها توطدت واستقرت في عهد دولة المرابطين الذين توغلوا في جنوب المنطقة وصارت معبرا لهم وامتدادا لنفوذهم في بلاد السودان الغربي حتى وصل دعاتها إلى الكامرون والغابون، وساهمت القبائل البربرية بتجارتها ودعاتها في انتشار الإسلام والثقافة الاسلامية في ربوعه وبين طبقاته.

واستقرت العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها في عصر الدولة الموحدية ثم انتعشت في عهد الدُّوَل الوريثة، وتنافس الزيانيون والمرينيون في الاستحواذ على طرق التجارة نحو السودان الغربي والأوسط وما تدره من أرباح كبيرة، كما كانت عنايتهم بتوطيد العلاقات الثقافية وأساسها التجار والدعاة الذين كانت لهم جهود محمودة في

توضيح معالم الاسلام وتوطيده بين سلاطين الأفارقة الزنوج وشعوبهم وباتت المنطقة منتشية بما احتوته من علوم وما أنتجته من علماء

وفي العصر الحديث حظيت القارة الإفريقية باهتمام واسع من قبل القوى الخارجية منذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في أجواء من الشره الأوربي نحو السيطرة على العوالم الضعيفة تلبية لنزعة الاستعمار ولاستعادة أمجاد أجدادهم الرومان والبحث عن مصادر جديدة لموارد الثروة بعد أن تراخت القوى الإسلامية في الأندلس، وتراجع وجودها ثم سقوطها نهائيا سنة 897هـ/ 1492م، وكان الحشد العسكري السبيل إلى ذلك تزامنا مع البدايات الأولى للنهضة الأوروبية، وتمكنها من بعض الاختراعات العسكرية، وكان المنهج المتبع في ذلك يسير في اتجاهين متوازيين:

الأول: ملاحقة المسلمين الفارين من الأندلس النازحين إلى الشمال الإفريقي عبر سلسلة من الحملات على سواحله، ولم تتوقف إلا بعد السيطرة الكاملة على الشريط الساحلي وأجزاء من المناطق الداخلية في القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

الثاني: الحركة التي تلبّست بلبوس الاكتشافات الجغرافية واتجهت غرب الأندلس مصاقبة للساحل الغربي للمحيط الأطلسي، وكان الهدف منها الالتفاف على القوى الإسلامية المسيطرة على البحر المتوسط، والاتجاه نحو الشرق الأقصى عبر طرق وممرات بعيدة مثل رأس الرجاء الصالح، وخلال ذلك تم التعرف عن كثب على

[1] يرى الفيلسوف هيجل أن العقيدة الاسلامية كانت العامل الوحيد الذي أدخل الزنوج في نطاق الحضارة: انظر كتابه، العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2007م، ج1 ص 174-175.

ظروف المنطقة الغربية من إفريقيا، وبدأت عمليات استنزافها ماديا وبشريا، ومحاولة قطع صلاتها بالعالم العربي والإسلامي.

ومن أجل ذلك قام الغرب- البرتغال والإسبان أولا ثم باقي الدول الأوروبية- إلى فرض إبادة شاملة على شعوب إفريقيا الغربية، ومارسوا بحقهم جرائم تقشعر منها الأبدان، مستعملين في ذلك أقبح الوسائل اللاأخلاقية واللامشروعة، وتمكنوا من سَوْقِ الملايين منهم عبيدا تحت القهر وألوان من العذاب عبر الموانئ إلى أمريكا ومناطق من أوروبا في ظروف غير إنسانية، وعند وصولهم يتم بيعهم في أسواق النخاسة سلعة لأرباب الأعمال في المناجم ومزارع القطن والمغازل والمناسج. وقد قدر عدد الرقيق الذين شحنوا إلى أمريكا عبر موجات متتالية منذ القرن السادس عشر وما بعده بعشرات الملايين، تصل إلى حدود ثمانين مليونا. وهكذا تمت السيطرة على الأرض الإفريقية الغربية بعد أن سامها فراغ ديموغرافي رهيب.

استمرت معاناة إفريقيا بعد اقتسام احتلالها من قبل القوى الاستعمارية الغربية سنة 1884م، وتعرضت لاستعمار مزدوج، فإلى جانب الاستعمار العسكري، شنَّت المدرسة الكولونيالية حملة من الدراسات الانتروبولوجية والتنقيبات الاثرية لفهم مسار الشعوب الافريقية وصيرورتها ولإعادة تشكيل تاريخها وفق المستهدف من المشروع الاستعماري، وتمكنت خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين من توسيع مجالها ونشرها في مؤلفات ودوريات متخصصة.

ولم تتحصل الشعوب الإفريقية على استقلالها عموما إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وفي أعقاب الاستعمار لم تكن إفريقيا قادرة على تأسيس نفسها بفعل ما تعرض له استقلالها من مخططات تكبح جماحها عن أي توجه نحو التطور، ولتبقى تحت التبعية الغربية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

وبمرور الزمن تنامى الوعي الإفريقي بحقيقة المآسي والمعاناة الكبيرة التي تعرضت لها دوله منذ أن وطئت أقدام الأوروبيين أرضهم، واستخلصوا دروسا قيِّمَة أكدت لهم انهيار مقولة الرسالة الإنسانية للرجل الأوربي(الأبيض)، وتبدُّدِ دورِه في تمدين العالم المتخلف وتحضره، وكشفت أقنعته المتوحشة، وتبيَّن أن مشروعه لم يكن يستهدف سوى استنزاف خيرات البلاد الإفريقية، والاستحواذ على مواردها البشرية والمادية، وصار من الضروري التوجه نحو التعاون الداخلي بين الشعوب الإفريقية ومع شعوب العالم الخارجي التي لا تملك سجلا قاتما وتجربة دامية معها.

وفي سُنَّة الدورات التاريخية، وفي ظل التطورات العلمية التكنولوجية الكبيرة التي يشهدها العالم، وثورة المواصلات والاتصال والانترنيت، وتيسير الوصول إلى المعلومة والحصول عليها، وتنوع شبكات التواصل الاجتماعي، أصبحت إفريقيا محل اهتمام العالم الغربي والروسي والصيني والتركي واهتمام العالم العربي والإسلامي، واتسعت دائرة الوعي لدى الأفارقة وأصبح الانفتاح المدروس على العالم من التحديات اللازمة لبلدانه، مع التوجس المتنامي من شبح التاريخ المخيف للغرب الأوربي الذي كان وراء معاناتهم لقرون. وإدراكهم لفحوى مشاريعه ومخططاته وتنبههم لموجات القلاقل التي تصنعها سياساته في المنطقة لتوهين قدرات دوله، وتوجهاتها نحو التنمية والعصرنة المتحررة من سطوة النفوذ الغربي.

وفي هذا الإطار يأتي التوجه نحو الدراسات الإفريقية للحاجة إلى تشكيل شبكة مترابطة من العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية، تهدف من ورائها تمتين أواصر الأخوة والتعاون المتبادل لتنمية مستدامة، توفر الفرص الحقيقية لتجاوز منطق الضعف والخروج من التبعية للغرب إلى فضاء الشراكة البَيْنِيَّة والتطور الذاتي.

وكانت مصر سباقة إلى التفاعل مع إفريقيا جنوب الصحراء بإنشائها معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة منذ 1970م، ثم تلتها المغرب بإنشائها معهد الدراسات الإفريقية بالرباط 1987م، وفي كلا البلدين أُلِّفت كتب، وأنجزت أبحاث لاستكشاف المنطقة، ساهمت في معرفة جذورها وتمتين جسورها، بينما بقيت بلادنا تعاني من غياب الاهتمام العلمي بهذه المنطقة، رغم اتساع المجال الحدودي الذي يشمل مجموعة من الدول الإفريقية ذات الأبعاد العرقية والثقافية المتنوعة والمشتركة.

وفي خضم هذه التطورات العالمية نحو إفريقيا، وتزايد معدلات الاهتمام بها بات من الضروري بعث مشروع وطني استراتيجي يرنو إلى تجديد العلاقات وتعزيزها مع دول السودان الغربي والأوسط (بما فيها دول الساحل)، وتدشين مرحلة جديدة تستثمر ما توطَّن في الضمير الإفريقي من علاقات متينة بينها وبين المغرب الأوسط رسَّخها التاريخ الاقتصادي والثقافي الذي شكلته جهود قوافل التجار والدعاة والعلماء عبر القرون.

وفي انتظار قرار تأسيس معهد خاص بالدراسات الإفريقية يتولى مهمة البحث والغوص في مختلف القضايا الإفريقية، كان من الضروري أن تفتح ورشات علمية تبحث في العلاقات بين الجزائر والسودان الغربي والأوسط[1]،

وجاءت هذه الندوة "العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء) لتغوص بالدراسة والبحث في

---

[1] عقد في الجزائر مؤخرا ملتقى دولي حول "الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي: الحوكمة واستقرار المجتمعات الإفريقية ووحدتها" يومي 12-13 ديسمبر 2022. وحضره لفيف من العلماء ورؤساء المنابر العلمية والتصوف في السودان الغربي.

عمق العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط، وتكشف عن معادلة التفاعل للمؤثرات والوسائط المختلفة التي أسهمت في المنتج الحضاري الذي بني عليه صرح التعاون والتمازج واستمر أثره إلى عصرنا الحالي.

وساهم في هذه الندوة نخبة من الأساتذة من جامعات قسنطينة 2 وقالمة وعنابة وغرداية فضلا عن جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية تناول كل منهم زاوية من زوايا العلاقات الثقافية التاريخية بين المغرب الاوسط والسودان الغربي والاوسط وكيف تم نسجها عبر قوافل التجارة ولفيف من التجار والدعاة والعلماء والفقهاء الذين كانوا رسلا للتثاقف وجسورا للعلم والمعرفة.

الكلمة الافتتاحية في ندوة:

العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)

أ.د. إسماعيل سامعي
رئيس الفرقة

العلاقات بين بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)، في العصر الإسلامي (الوسيط الأوربي) علاقات طبيعية جغرافية واجتماعية واقتصادية وثقافية، أو حضارية.

لم تكن الصحراء برمالها وحرارتها وجدبها عائقا في وجه تواصل شعوب المنطقتين أو قل المنطقة الواحدة، بل كانت همزة وصل، وملتقى الشعوب والثقافات.

إن فرقتنا هذه تعمل ضمن مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية التي بحثت العلاقات الثقافية بين المنطقتين من حيث الجذور والتحولات الكبرى لاسيما منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن 10/ 16، وكانت الكيانات السياسية المتمخضة عن تحولات الفترة أبرز منافذ هذه العلاقة لاسيما في بلاد المغرب الأوسط " الجزائر " من خلال الرستميين، الذين كانت بلاد السودان الغربي مجالا حيويا لهم، فقاموا بدور الوسيط التجاري والثقافي، وعمق هذا التوجه الفاطميون الذين دخلوا في صراع مع الخلافة الأموية بالأندلس لأجل السيطرة على مسالك التجارة الصحراوية لاسيما الذهب والعبيد، ثم المرابطون من خلال قبيلة صنهاجة الصحراء وصنهاجة الشمال، من جهة، والكيانات السودانية (غانا، مالي، سنغاي ...) من جهة أخرى.

لقد حاول الاستعمار الأوربي الحديث لاسيما الفرنسي إعادة هيكلة الروابط التاريخية والحضارة لمصلحته عن طريق الجزائر بعد احتلالها بالتوغل جنوبا إلى ما وراء الهقار والطاسيلي، وتسيير القوافل (المهارة)، ومد الخط الحديدي من الجزائر نحو

خليج غانا الذي توقف عند ورقلة لأجل السيطرة ونهب الثروات، وهو خط شبيه بخط سكة حديد الحجاز.

حاولت إذن الجزائر منذ استرجاع استقلالها في سنة 1962 إعادة ربط علاقاتها بالمنطقة باعتبارها مجالا حيويا جيواستراتيجي، وبعدا حضاريا، وهي تدرك أنه لن يتأتى لها ذلك إلا بالتنمية (طريق الوحدة الإفريقية)، التي توفر الأمن والاستقرار، فأي هزة في المنطقة تتأثر وتؤثر في الجزائر مباشرة كما حدث في عقد الثمانينات (الجفاف والمجاعة)، وكما في السنوات الأخيرة (الحروب والإرهاب).

وإذا كان المثقفون الغربيون من علماء ومؤرخين وغيرهم قد مسحوا المنطقة الشمالية والجنوبية (المغرب الأوسط "الجزائر") والسودان الغربي والأوسط (إفريقيا جنوب الصحراء)، بما أنجزوه من دراسات وبحوث أصبحت مراجع لاغنى عنها لأي باحث في تراث المنطقتين على الرغم من أنها عكست مرحلة استعمارية، وكرست الهيمنة الثقافية الغربية (اللغة مثلا)، واستغلال الثروات الطبيعية والبشرية والتي مازلت مستمرة حتى يومنا هذا، فإنه يصير من واجبنا ومن حقنا أيضا أن نعيد الكتابة عن هذه المنطقة وعن علاقات الجزائر بها في إطار سياسة بلدنا وأهدافه، وطموحاتنا الحضارية المشروعة .

إذا كان جنود بلدنا اليوم يقفون على الحدود لتأمينه وتأميننا وتأمين المنطقة، فالواجب يفرض علينا نحن معشر الباحثين الجامعيين أن نسهم في تقريب شعوبنا وتأمين بلدنا بالعلم والمعرفة والمشاركة في العطاء الحضاري.

قسنطينة في 26 شعبان 1436/ 14 جوان 2015

قراءة في بعض المصادر العربية الخاصة بتاريخ العلاقات بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط " (إفريقيا جنوب الصحراء)

أ.د. إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر العربية الخاصة بتاريخ علاقات هاتين المنطقتين قليلة لاسيما في المرحلة الأولى من العصر الإسلامي وتتميز بالآتي:

1-تخلو من تحديد أزمنة الأحداث والوقائع التاريخية، وما أوردته لا يعبر عن الحقيقة بل تنقصه الدقة.

2-ذكرها للأمكنة يسوده عدم التحديد إضافة إلى إيرادها للمكان الواحد في جهات مختلفة وبأسماء متنوعة، ويصعب اليوم مع زوال بعضها وصول الباحث خاصة الأثري إلى تحديد مكانها ولو بالتقريب.

3-اختلاف التسميات واختلاطها.

4-غموض المفاهيم المستعملة .

5-معلوماتها مقتصرة على الطبقات الحاكمة والمتنفذة.

وهذه المصادر تتنوع بدورها إلى نوعين أو قسمين:

أ- المصادر المادية (الأثرية)

ب - المصادر المكتوبة أوالمخطوطة والتي تضم:

1- المصادر الجغرافية التي تأتي في المقدمة من حيث صحة المعلومات، ومن أهمها اليعقوبي، والمهلبي، والبكري، والوزان، وابن بطوطة.

2- المصادر التاريخية كابن الصغير، والسعدي.

3ـ مصادر الطبقات والتراجم كالمالكي والدرجيني، وأحمد بابا التنبكتي، ومحمود كعت.

4ـ المصادر الفقهية كالمغيلي

أ-المصادر المادية (الأثرية)

1- الأثار وتشمل العمائر، والفخاريات، وشظايا الخزف، والأدوات كالزجاج، وقد بينت الحفائر أن أقدمها يعود إلى القرن 3 هـ/ 9 م) من ذلك ما وجد في موقع أودغشت من بقايا تعود إلى العهد الفاطمي.

2- التحليل بالكاربون 14 الذي قدم تفاصيل تقريبية عن التحقيب التاريخي للأحداث والوقائع من خلال تحديد عمر الكائنات والمواد المختلفة وبقايا العادات كاللباس والأكل والاحتفالات التي مازالت متأصلة ومتواصلة لدى شعوب المنطقتين السودانية والمغربية.

ج- **المخطوطات**: التي مازالت تزخر بها بعض مكتبات المنطقة على الرغم ما تعرضت له من تلف ونهب، ومعظمها يتوزع اليوم على مكتبات العالم لاسيما الدول التي استعمرت المنطقة والقارة الإفريقية كفرنسا وبريطانيا.

ومازالت توجد مئات المكتبات الخاصة موزعة في بعض الدول الإفريقية، كتشاد، ونيجيريا، والنيجر، ومالي، وموريطانيا، والسنيغال، والكاميرون، وبوركينا فاسو، وغيرها من الدول الإفريقية، وتضم ما يقرب من خمسة (5) ملايين مخطوطة، تنتمي إلى عصور قديمة، وحتى القرن التاسع عشر، ومعظمها لم يتم استكشافها والبحث في مواضيعها حتى الآن.

وفي تمبكت بمالي أُنشئ معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية بتوصية من مؤتمر أبديجان (ما بين 31 أغسطس إلى5سبتمبر 1966م) واليونسكو، وهو مركز إقليمي للتوثيق والبحث، ومؤسسة عامة ذات صبغة علمية وتكنولوجية

وثقافية، تهدف إلى جمع المخطوطات وصيانتها وتحقيقها، يضم الآن (30000) مخطوط.

ومن بين هذه المخطوطات التي تضمها تلك المكتبات وبدأت ترى النور وكنموذج:

"**السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية** "للعلامة أحمد بابير الأرواني"، الذي حققه الهادي المبروك الدالي حيث تناول المسائل المهمة ذات الصلة المباشرة بأمور الدين والدنيا،وعلى رأسها فوائد التاريخ الدنيوية والأخروية، وصفة تنبكت وفضلها، وأول من سكنها، والتعريف بالطوارق، وبمالي، والملك سني علي، واسكيا الحاج محمد، وذكر مساجدها والتنويه بعلمائها، وأعيانها من قضاة، وأئمة معروفين، والتعريف بجامعة سنكري، وعلماء بادية تنبكت، وبعض أعلام قبيلة كنتة.

والمخطوط كما يلاحظ على مضمونه يقتصر على بلاد السودان دون بلاد المغرب.

المصادر الجغرافية: كما سبقت الإشارة أن مؤلفات الجغرافيا والرحلة من أهم المصادر، والتي تتميز بتناولها للمنطقتين السودانية والمغربية، ونقدم فيما يأتي أربعة نماذج لها:

أولا- ابن حوقل المتوفى سنة 380/ 990: يذكر ابن حوقل أن الاتصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي والأوسط اتصال طبيعي ويكتسي صبغة الديمومة، فالقوافل غير منقطعة من بلاد المغرب إلى بلاد السودان والعكس[1]، كما يتحدث عن القبائل التي يبدو أن أغلبها كان موجودا ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر) بل هي فروع لقبائل كبرى متوزعة عبر بلاد المغرب وبلاد السودان كصنهاجة، ومسوفة،

---

[1]- كتاب **صورة الأرض**، (ط، 2 ، بيروت: دار صادر، عن طبعة مطبعة بريل بمدينة ليدن 1938)، ص99.

ومداسة، وكدالة، ويقدم إضافات عن بعض ممالك بلاد السودان وعلاقاتها ببعضها، وضمنيا مع مع دول بلاد المغرب لاسيما الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (الجزائر) كأودغست، وغانة، وأهم ما يفيد فيه هذا المصدر هو التجارة، وموادها الأساسية الملح والذهب، وذكر أن سعر الحمل كان بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار[1]، ويشيد برقي التعامل التجاري بين المنطقتين (بلاد المغرب والسودان الغربي) حيث بلغ من الثقة والتقانة درجة التعامل بالصكوك[2].

2- المهلبي الحسن بن أحمد[3](ت حوالي 380/ 990) ويضم مؤلفه الموسوم "المسالك والممالك "[4] الموضوعات الخاصة بالكثير من البلدان في آسيا وإفريقيا منها بلاد السودان التي أفرد لها فصلا خاصا فقدم عنها وصفا لمدنها ولمكوناتها الطبيعية والبشرية وعمارتها وعمرانها، وأسواقها، وزراعتها، والمسافات بين حواضرها، وقد قدرها بالفرسخ، كما ذكر قبائلها، وإماراتها أو دولها كزغاوة، وكوكو.

3-البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد أبوعبيد الأندلسي، (ت487/ 1094) صاحب (المسالك والممالك) الذي يخرج من الأندلس فنقل معلوماته عن المصادر الحية والمكتوبة، وهو مثل غيره تناول المنطقتين بلاد المغربوبلاد السودان التي أفرد لها عدة موضوعات في قسمين أساسيين الأول منها خاص بالطرقات المؤدية إليها، والتي تربط العديد من حواضرها بحواضر بلاد المغرب لاسيما المغرب الأقصى

---

[1]- نفسه، 101.

[2]- نفسه، 99.

[3] - تراجمه قليلة جدا منها: ابن العديم الصاحب كمال الدين بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، د ت)، 5/ 2293 ؛ البغدادي إسماعيل باشا،هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (استانبول: وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، 1951)،1/ 272.

[4] - ويسمى أيضا " الكتاب العزيزي ".

كالطريق من مدينة تامدلت إلى مدينة أودغست، والطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان، وثانيهما خاص بذكر بلاد السودان ومنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها من ذلك غانة، وطرقها المؤدية إلى غيارو، وتادمكة، والقيروان، وغدامس.

والطرق والمسافات يعبر عنها بالمراحل، ويشير إلى المرافق التي توجد على تلك الطرقات كآبار المياه ، والقرى، ويتعرض إلى نمط حياة سكانها واقتصادهم المبني على تربية الحيوان والتجارة، كما يذكر قبائلهم كصنهاجة الصحراء التي لها علاقة بصنهاجة الشمال أو صنهاجة بلاد المغرب لاسيما الأوسط، وملوكهم، ومذهبهم لاسيما في العهد المرابطي، ويفيض قليلا في الحديث عن الحركة العلمية والثقافية في بلاد السودان والتي لها علاقة وطيدة ببلاد المغرب عموما والأوسط (الجزائر)[1] خصوصا، وينفرد بنقل بعض المعلومات كوجود لقبيلة زناتة البربرية الكبرى المعروفة، إلى جانب العناصر العربية ببلد أودغشت ، بالإضافة أن هذه البلدة كانت مقر إقامة ملك غانة، كما يذكر أهم مدن بلاد السودان لاسيما المنتشرة على طول نهر النيجر (النيل كما كان يعرف لدى الجغرافيين)، وديانتهم الوثنية، ويتعرض لجهود بعض الدعاة الذين مكنوا للإسلام بين أهل بلاد السودان، ويذكر بعض هذه المدن كالتكرور، وسلى، وقلنبو، وترنقة، وزافقو، إلى جانب ذكره للممالك هذه البلاد كمملكة الفرويين، ومملكة غانة[2].

[1]- البكري، المسالك والممالك، تحقيق، جمال طلبة، (بيروت : دار الكتب العلمية 1424/ 2002)، 2/ 350.

[2]- نفسه، 2/ 359 – 370.

والكتاب مرجع أساسي لأي باحث ودارس، فرغم أن البكري لم يكن رحالة ولم يخرج من الأندلس كما سبق ذكره إلا أن معلوماته صحيحة ودقيقة وجد هامة نقلها أو وردت إليه من مصادر ثقة لم يعد الكثير منها موجودا اليوم.

4-**ابن بطوطة** محمد بن عبدالله بن محمد الطنجي (ت779/ 1377) له (الرحلة) المعروفة باسمه، وقد ترجم للسلاطين والأمراء في كل الديار التي زارها، ونزل بلادا كثيرة منها بلاد السودان (إفريقيا ما وراء الصحراء) فأتى على سلاطينها، ودولها كدولة مالي، وعادات شعوبها[1]، والكتاب مرجع لتاريخ بلاد السودان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في القرن 9 هـ/ 14 م.

كما أفرد القسم السابع من رحلته لبلاد السودان فعدد ممالكه وأهم حواضره أو مدنه حيث كانت تتم الأنشطة الاقتصادية عموما والتجارية خصوصا، وكذا النشاط السياسي، وربط العلاقات الخارجية، من ذلك علاقات قبائل وممالك المنطقة ببلاد البربر أي بلاد المغرب لاسيما العلاقات التجارية والثقافية والدينية والسياسية[2].

5-**الوزاني** الحسن "ليون الإفريقي"(اختفى بروما سنة 957ه/ 1550م) صاحب كتاب " **وصف إفريقيا** " يفيد مصنفه الجغرافي في تحديد المفاهيم التي تهم موضوع هذه الدراسة لأن الحسن الوزان يوضح بعضها، كمفهوم "بلادالسودان" ويعطي فكرة عن حدودها الجغرافية والبشرية رغم ما يكتنف فهمنا لغموض والاضطراب وانعدام الدقة، حيث يرى أن هذه البلاد تقع على ضفتي نهر النيجر وروافده، إذيقول:" تمتد على ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحدهما عن دنوميدي أو ينتهي في هذه البلاد، والآخر يمتد إلى البحر المحيط."[3]، وعلى

---

[1] - أنظر : رحلة ابن بطوطة، طبعات كثيرة منها طبعة (بيروت : دار صادر ودار بيروت، 1964/ 1384).

[2] - نفسه، 2/ 161.

[3] - وصف إفريقيا، 2/ 161.

العموم فإن همن خلال الكتاب "وصف إفريقيا" يستطيع الباحث أن يقف على جملة من الأمور المرتبطة بالرحلات التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، سواء على المستويات اللوجستية أو على المستويات التنظيمية والأمنية وبعض الجوانب الأخرى، من ذلك مثلا مشكلة ندرة الماء في تلك المناطق، وإعداد القوافل التجارية، وأمنها وطول الطريق العابر للصحراء، والمراكز التجارية عبر الطريق المتباعدة والبسيطة، وكذا الإطار المنظم للتجارة العابرة للقارة، إلى بلا بلاد السودان، والثقة التي يجب توفرها في مسألة التبادل التجاري لاسيما أن المعاملات كانت تتم بالمقايضة، ومشكلة نقل السلع والحفاظ عليهاعبر هذا الطريق البعيد والغير الآمن، والموحش، وشدة الحرارة وكثرة الغبار، كما أن السلع كانت متنوعة وذات أهمية ومغرية التي تنقل في الاتجاهين أو يتم تبادلها في عمليات التصدير والاستيراد، وهي: الملح، والذهب، والعاج، والحبوب، والتمور، والمنتوجات الحرفية كالأقمشة التي تأتي من بلاد المغرب، والمجوهرات، والخيول، والرقيق، الذي يأتي من بلاد السودان.

وانتقال العديد من العلماء والباحثين والرحالة، وعلماء الدين لاسيما الفقهاء والأئمة، والذين كانوا من ضروريات اكتمال إعداد القافلة، ناهيك على أن بعضهم كان يحترف التجارة .

المصادر التاريخية: أوردت هذه المصادر عرضا بعض الإشارات والفقرات التي تعضد المعلومات المستقاة من المصادر الأخرى، ومنها كمثال:

1-**ابن الصغير** (ق 3/ 9)، وكتابه" أخبار الأئمة الرستميين " الذي يخلو من التواريخ،وقد أشار فيه إشارة خفيفة إلى العلاقات التي كانت قائمة على أيام الدولة الرستمية بين بلاد المغرب والسودان الأوسط والغربي من خلال ذكره للطرق المؤدية

إليه، وللعلاقات التي كانت قائمة بين تيهرت وبلاد السودان على عهد أفلح بن عبد الوهاب[1].

2- **المالكي** أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله (ت 453/ 1061)، " له " رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم"[2]، وهو تراجم أعلام الأفريقيين المالكيين – فقد قدم إفادات جد هامة في مصنفه الرياض لاسيما فيما يخص العلاقات التجارية والثقافية بين بلاد المغرب عموما وبلاد السودان الأوسط والغربي خصوصا من خلال إشاراته منها إشارته إلى بعض المصنوعات التي كانت تصدر من المغرب إلى بلاد السودان، وحمايتها لاسيما من الغش الحماية القانونية والأخلاقية[3].

3- **أحمد بابا التنبكتي** (ت 1036 هـ/ 1607م)له من المصنفات " نيل الابتهاج بتطريز الديباج" قدم فيه معلومات كثيرة وقيمة عن الحياة الفكرية في بلاد السودان الغربي بخاصة، وبالتالي فهو مرجع هام في التأريخ للحياة العلمية والثقافية في هذه المرحلة وفي هذه البلاد.

أما كتابه " **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**"[4] المشار إليها آنفا، والمرتب هو الأخر على حروف الهجاء أبرز فيه أسماء المصنفات التي ذكرها لمؤلفيها، وحرص المؤلف على إبراز دور المترجم لهم في نشر العلم وامتداده وتوزع طلابه في بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان، وجعل هذا الكتاب مصدرا لتراجم الفقهاء المالكية،

---

[1] – ابن الصغير،أخبار الأئمة الرستميين، 32 ، 62.

[2]– حققه يشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي،(بيورت: دار الغرب الإسلامي، 1983/ 1403). وكانت الطبعة الأولى الجزء الأول (تونس: دار بوسلامة)، صدرت بعناية حسين مؤنس سنة 1951/ 1370،الدباغ، المعالم، 190/ 3.

[3] – نفسه، 1/ 182.

[4]- ضبط النص وعلق عليه، أبويحيى عبد الله الكندري ، (بيروت: دار ابن حزم ، 1422/ 2002).

وصورة تاريخية لمجمل الوقائع التاريخية التي عاشها وعايشها المؤلف، وابرز الجانب التصوفي فيهم من خلال ذكر محاسنهم دون مثالبهم، وسعى المؤلف إلى إعادة ترتيب ما تناوله في نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وحرصه على إبراز تراجم أهل بيته وأسرته، وقد توسط في حجم الترجمة دون إطناب، ودون اختصار مخل مع متابعة من ترجم لهم كأسر علمية وهم موزعين داخل كتابه[1].

والخلاصة أن هذا المدخل يعد إطلالة مقتضبة اقتضتها مناسبة الندوة وموضوعها، وهي أكثر تفصيلا في العمل الذي قامت به الفرقة، والذي نتمنى أن يرى النور قريبا بطبعه وجعله في متناول الباحثين والقراء.

[1]- نفسه ، مقدمة المحقق، 7- 9 .

العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد الرستمي (160هـ/296هـ/777م/909م)

أ.د/ إبراهيم بكير بحاز
جامعة غرداية

تمهيد:

عرف العهد الرستمي (160ـ 296هـ/ 777ـ 909م) علاقات متميِّزة مع جيرانهم جنوب الصحراء، هي فاتحة العلاقات المغربية السودانية (السودان الغربي والأوسط) في العهد الإسلامي الوسيط، وهي العلاقات التي ستستمر طويلا عبر العصور الوسطى ثم العصر الحديث فالمعاصر، ولا تزال تلك العلاقات تُلهم وتشعُّ بظلالها إلى أيامنا هذه، أو على الأقل يُحتمَل ذلك.

أولا: منذ متى كانت علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان؟ سؤال طالما طرحته على نفسي، منذ متى كانت علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان؟ إلى أي عهد من عهود التاريخ القديم تعود العلاقات المغربية السودانية؟

لا شك أن الرومان لا علاقة لهم ببلاد السودان، فخطوط الليمسالتي يتحدث عنها مؤرخو التاريخ القديم تجعل من الرومانيين لا يتجاوزون حدود منطقة بسكرة ومسيلة وتيهرت، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب من ولوج الصحراء، وكانت الأساطير التي تموج في مجتمعهم آنذاك عن الصحراء عموما، تحبسهم عن التقدم فيها، ولذلك حافظت صحراؤنا الكبرى وهي امتداد لصحراء الجزيرة العربية عن بِكْرِيَّتِهَا، فلم يصلوا إلى البيت العتيق بمكة وهي على مرمى حجر من بلاد الشام التي استولوا عليها من شمالها إلى جنوبها.

ويبدو أن الوندال والبيزنطيين كانوا على نهج أسلافهم الرومان، وكانت الأساطير التي حبست الرومان عن ولوج الرمال الصحراوية هي نفسها الشائعة في ذَيْنِك العهدين؛ فالصحراء المغربية الكبرى إذن لم يلِجْها سوى أهلها البربر أو بتو عمومتهم العرب ابتداء من عهد الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في الربع الثاني من القرن الأول الهجري/ الربع الثالث تقريبا من القرن السابع للميلاد.

بداية من هذا التاريخ تقريبا، ستخبرنا النصوص التاريخية والجغرافية العربية، عن ولوج الصحراء وعن القبائل الصحراوية صاحبة العلم بمواطن المياه والمسالك الآمنة للتجارة بعيدا وعميقا في الضفة الجنوبية من هذه الصحراء الكبرى. فهل نستطيع أن نقول إن بداية العلاقات المكثفة بين ضفتي الصحراء الكبرى وشواطئها ترجع إلى العهد الرستميبالنسبةللمغرب الأوسط؟ ذلك ما يمكن أن يؤكده زملاؤنا الباحثون المتخصصون في التاريخ القديم.

ثانيا: الرستميون قنطرة صلة بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد السودان: يتحدث ابن الصغير منذ عهد الإمام الأول عبد الرحمن بن رستم، (160 –171هـ) عن السودان وعن التجارات وعن المسالك، فيقول: «واستُعمِلت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرقٍ ومغربٍ بالتجارة وضروب الأمتعة...»[1]، فقد كانت العلاقات قائمة منذ هذا التاريخ الأول للرستميين، وإن وُصفت بالعلاقات التجارية، فكلنا يعلم ما كانت التجارة والتجار تحمل من الثقافات، وما كانت تؤديه من التبادل الفكري أو التأثير الديني، والمغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، كما يؤكد ابن خلدون في مقدمته، في جميع مظاهر الحياة، والغالب هنا هم الرستميون وتجارهم الذين اقتحموا المفاوز ووصلوا بلاد السودان حاملين معهم ثقافاتهم الإسلامية بالدرجة الأولى، وممالك السودان هي المغلوبة بما ستتلقاه من التأثيرات القادمة من

---

[1] ابن الصغير: أخبار الأيمة الرستميين، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986م، ص32.

الشمال الإفريقي، والغالب والمغلوب هنا كلاهما مستفيد لأن الغلبة والانتصار حضاري وليس عسكريا، ومنطقة السودان الغربي والأوسط ستتدرج منذ ذلك التاريخ ضمن الدولة الإسلامية وحضارتها المتميِّزة.

ثالثا: بعض مظاهر العلاقات الثقافية الرستمية مع بلاد السودان.

لقد كانت العلاقات الرستمية السودانية رسمية وشعبية ،إن صحت العبارة، ولم ترق إلى العلاقات الرسمية بين أيمة تيهرت وملوك السودان أو بعضهم على الأقل، إلاَّ بعد نجاحها منقطع النظير في شقها الشعبي، فأراد الرستميون أن تكون لهم الميزة في تلك البلاد، لذلك نجد الإمام أفلح (208 -258هـ) يرسل سفارة من قبله إلى ملك من ملوك ذلك الإقليم الواسع، يحدثنا مؤرخهم عنها وعن سفيرها الرستمي فيقول: «وكان بالبلد رجل يُعرف بمحمد بن عرفة وكان وسيمًا جميلاً جوادًا سمحًا، وكان قد وَفَد على ملك السودان بهديَّة من قبل أفلح بن عبد الوهاب ، فعجب ملك السودان ما رآه من هيبته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل فهزَّ يَديْه وقال له كلمةً بالسودانية ليست تُعبَّر بالعربية لأنّ لا مخْرج للإسان إنما هو فيها بين القاف والكاف والجيم، إلا أن معناها: "أنت حسن الوجه حسن الهيبة والأفعال"»[1].

إن اهتمام ابن الصغير بمخارج الكلمة وبما أبداه ملك السودان من الإعجاب بسفير أفلح، إنما ينم عن تأثيرات ثقافية مهمة لم تَطَل الجانب اللغوي فحسب، وإنما توحي الرواية بالتأثُّر في الجانب الجمالي والهندام والأخلاق بل حتى جانب الفروسية.

إن العلاقة التجارية الواسعة التي ربطت السُّودانَيْن الغربي والأوسط بمراكز اقتصادية في الدولة الرستمية، لن تمر دون أن تخلف آثاراً ثقافية، يمكن التعليق عليها

---

[1] ابن الصغير: نفسه،ص 62.

بأنها كانت عميقة ومهمة، عمق وأهمية تلك التجارة التي كانت الوسيلة في وصول التجار عموما والإباضية منهم بخاصة إلى تلك البلاد النائية[1].

تتحدث المصادر عن عدد من علماء المذهب الإباضي الذين قطنوا ببلاد السودان أو دخلوها فاستفادت منهم، فالدرجيني يخبرنا عن شيخ يدعى عبد الحميد الفزاني، من رعايا الرستميين، كان عالماً كبيراً قطن بلاد السودان[2]. أما الشماخي الذي يسوق لنا رواية أكثر أهمية في هذا الموضع، فيحدثنا عن أبي يحيى ابن أبي القاسم الفرسُطَّائي، من يتامى معركة مانو، حيث أن أباه قتل فيها سنة 283هـ. وكانت لأبي يحيى رحلةٌ إلى بلاد السودان، التقى فيها بأحد ملوكها، وكان نحيل الجسم ضعيف القوى مريضاً، فدعاه إلى الدخول في الإسلام، وبعد أخذ ورد بينهما يصوره أبو يحيى نفسُه فيقول: «فما زلت أذكّره نعم الله وآلاءَه حتى أسلم وحسن إسلامه»[3] فاستعاد قوته. ويحتمل أن تكون رعيتُه قد أسلمت بإسلامه مادام "الناس على دين ملوكهم" كما يُقال، وكما هو واقع الحال اليوم في تلك المناطق من بلاد تشاد ومالي والنيجر والسنغال، فكلها أو جلها على الدين الإسلامي بلا منازع.

إن أكبر تأثير وأكبر علاقة للرستميين مع جيرانهم جنوب الصحراء، إنما يتجلّيانفي الدين الإسلامي الذي انتشر في تلك الربوع منذئذٍ، وما رافقه بالضرورة من تَعلُّم اللغة العربية؛ لغة القرآن ولغة الصلاة، ثم ما يأتي بعد ذلك من التأثُّر باللباس الساتر للرجل والمرأة وكانا عارِيَيْن أو شبه عاريَيْن قبل ولوج الإسلام تلك الربوع.

---

[1] راجع الباب الثاني من كتابنا الدولة الرستمية (160ـ296هـ/ 777ـ909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، نشر دار ألفا، الجزائر، 2010 م، فصل التجارة معا لسودان

[2] الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد: طبقات المشايخ بالمغرب، تح. إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة، 1974م، ج 2، ص 327، يضع الدرجيني هذا العالم في الطبقة السادسة (250-300هـ).

[3] الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد: سير، طبعة حجرية بقسنطينة، الجزائر، 1301هـ ص 311-313.

لم تنقطع علاقة الرستميين بالسودان، حتى بعد سقوط دولتهم بتيهرت إذ في سنة 575هـ، استطاع علي بن يخلف، أحد مشايخ الإباضية في نفوسة الذين سافروا إلى غانة، أن يستدرج ملك مالي في الدخول في الإسلام هو ورعيته وذلك لما جدبت مملكته وتفاقمت أوضاعها، فأغاثهم علي بن يخلف بصلاة الاستسقاء، فسقطت الأمطار وجرت الأنهار، فآمن الملك ورعيته.

إن هذه الروايات المختلفة، لا تدل إلا على وجود علاقات ثقافية عميقة بين الدولة الرستمية وبلاد السودان. فما وجود الشيخ عبد الحميد الفزاني، أو العالم الكبير الذي بعثه عمروس بن فتح، قاضي نفوسة، إلى السودان[1]، ما وجود هاذين العالمين ببلاد السودان، إلا دليل على دخول بعض ممالك السودان في الإسلام، وبالتالي احتاجت إلى من يُفقّهها في دينها، ويسلك بها المراحل الأولى في هذا السبيل.

لقد كان للتجار من رعايا الدولة الرستمية فضل السبق في نشر الإسلام في جزء من تلك البلاد النائية، ووضعوا بذلك البذور الأولى لحركة انتشار هذا الدين في

---

[1] الدرجيني: طبقات،ج 2، ص 517-518. الشماخي: سير،ص 457-458. اطفيش محمد بن يوسف: إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، ص 67.

[2] محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، دارالعودة بيروت،1976م، ص 223

بلاد السودان[1]. ويبدو أن هذا الدور لأولئك التجار، في ذلك الزمان، ما زال بحاجة إلى دراسة[2]، أعمق، تكشف عن أسراره وأبعاده المختلفة.

وتشير بعض الكتب إلى وجود قرى عديدة تعتنق الإباضية في السودان في القرن 19م[3]. وليس هذا بمستبعد مادام ابن بطوطة[4]، ينقل لنا مشاهدته في نهاية القرن السابع الهجري، ويذكر أن في قرية زاغري جماعة من الإباضية يسمون صغنغو. وبقي الوجود الإباضي مستمراً ببلاد السودان حتى أثبته الأستاذ شاخت (Schach J.) الذي لاحظ في مساجد بعض تلك الأقوام وجود هندسات مشابهة تماماً لما عند إباضية وادي مزاب أو وارجلان، كالمحراب مستطيل الشكل والمئذنة ذات الشكل المستطيل المخروطي إضافة إلى ظاهرة فريدة عند الإباضية، وجدها ماثلة في بعض

---

[1] محمود إسماعيل: الخوارج، ص223. عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، نشر الجامعة الأردنية، عمّان، 1978م، ص 110.

وانظر: MasquerayChroniqued'AbouZakaria, p.275-277, note 2. LewickiT: Etudes Ibadites, p.71. Anne Marie: Contribution, opcit, p.76. Schacht J: sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le sahara, travaux de l'institut des recherches sahariennes (I.R.S.) Tome XI, lersemestre, imp. E. imbert, Alger, 1954, p.11,21,27.

[2] رغم وجود أطروحة دكتوراه في انتشار الإسلام بالسودان الغربي فإن باحثه لم يشر إلى هذا الدور إطلاقاً أو لم يطلع على المصادر الإباضية، انظر دريد عبد القادر نوري: انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن 5-11هـ/ 11-16م، رسالة دكتوراه جامعة بغداد، كلية الآداب، 1401هـ/ 1981م. وقد سلك نفس المسلك الذي أتبعته الدراسات التي سبقته، ولعل بحوثا بعد ذلك قد استدركت الأمر، خاصة بعد نشر العديد من المصادر الإباضية وتحقيقها ومنها شرائع الدين للوّاب بن سلام وسير الوسياني.

[3] اطفيش: إزهاق الباطل، ص 67-68.

[4] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص 680.

مساجد السودان، ذلك هو عدم وجود المنبر في المسجد، وتفسير ذلك أن الإباضية منذ سقوط تيهرت الرستمية وزوال إمامتهم بها اعتبروا صلاة الجمعة مرفوعة، لعدم توفر شرط مهم لقيامها وهو ما يُعرَف عندهم بالإمام العادل[1].

إن انتقال مثل هذه الهندسات والاعتقادات، عبر الصحراء، إلى بلاد السودان، وعبر السنين والقرون، لا تدل إلا على عمق ما تركه التجار الإباضية في تلك البلاد، ابتداء من عهدهم الأول، أيام الدولة الرستمية.

ومن الآثار الثقافية التي تركتها العلاقة بالسودان، تعريب جزء من تلك المناطق ولو بشكل محدود، وتكونت بفعل الاحتكاك الدائم والمستمر لغات مزيجة كلغة الآزر وهي لغة وكالات تجارة الذهب والرقيق في نطاق الساحل السوداني، وقد استعارت قوامها من العربية ومن البربرية ومن اللغات الإفريقية[2].

مجمل القول إن العلاقة الثقافية بالسودان كانت أكبر من أن تشملها هذه السطور، إذ كان للتجار من رعايا الدولة الرستمية وغيرها، الدور الريادي في إخراج قبائل تلك البلاد من بدائيتها، وتكوين سكانها وشحذ أخلاقهم ومداركهم عبر السنين والحقب، كما يقول غوستاف لوبون[3]، وإن استيراد مئات الزنوج والزنجيات، وربما نقول الآلاف ولا نكون مخطئين، نحو المغرب الأوسط بخاصة وشمال إفريقيا بعامة حيث مملكة الرستميين في عهدهم إلى ما بعد عهدهم، لأكبر علاقة مستمرة إلى

---

[1] Schacht J: sur la diffusion, p. 11-19. نلاحظ هنا أن أغلبية الإباضية اليوم يصلون الجمعة وتوجد المنابر في مساجدهم كغيرها من المساجد المالكية بالجزائر. انظر كذلك كتابنا الدولة الرستمية

[2] موريس لومبارد: الجغرافيا التاريخية، ص 134.

[3] غوستاف لوبون: حضارة العرب،ص 666.

اليوم، فوجود الجنس الأسود في بلاد البربر إنما هو الأثر الباقي لتلك العلاقات المتميزة عبر العصور.

إن أهم ما مَيَّز ويُميز العلاقات بين المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط، منذ بدايتها على يد الرستميين في القرن 2هـ/ 8م، إلى يومنا هذا، هو أنها كانت دومًا علاقات سلميةً لا دخل للجيوش والأسلحة فيها ولا للهيمنة، علاقاتٍ ثقافيةً تجاريةً سياسيةً حضاريةً.

التبادل التجاري بين تلمسان والسودان الغربي في في القرنين السابع والثامن الهجريين/ ق 13-14م"

د. عبد الجليل قريان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص:

تمكنت تلمسان في العصر الوسيط الزياني أن تنسج علاقات تجارية مميزة مع السودان الغربي، مستفيدة من الموقع الجغرافي للمدينة التي كانت مركز التقاء لثلاث اتجاهات أساسية في حركة التجارة الاقليمية شرقا وشمالا وجنوبا، ومستغلة الفراغ السياسي الذي تركته دولة الموحدين في توسيع حدودها السياسية والتجارية نحو سجلماسة، مدعمة في كل ذلك بتنوع إنتاجها المحلي والعابر في الوقوف بثبات في ترسيم الخارطة التجارية نحو السودان الغربي وأوروبا.

وكان للشركات التجارية التلمسانية دور فعال في التموقع في المراكز التجارية والربط بينها بواسطة وكلاء تجاريين ساهموا في تنشيط الحركة التجارية والتمكين لها وترسيخها في إطار التفاعل بينهم وبين الطبقة السياسية في كل من تلمسان والسودان الغربي مما كان له أثره المحمود في استمرارها لعقود، مستهدفة في ذلك مختلف السلع الأساسية التي كانت تتدفق بينها بأريحية.

ولم تقتصر آثار الحركة التجارية نحو السودان الغربي على الجانب الاقتصادي فحسب بل تجاوزت ذلك إلى التأسيس لشبكة من العلاقات السياسية والثقافية والحضارية بين ضفتي الصحراء حيث كانت بين الدولة الزيانية والسودان الغربي وفادات ومراسلات، كما ساهم علماؤها(تلمسان) وغيرهم في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية، وكانت لذلك آثارها الطيبة على المستوى السياسي والشعبي إذ أصبحت تعج بالعلماء والفقهاء والقضاة، وبقيت على ذلك إلى عصرنا.

1- مقدمة:

كثير من الدراسات نأت بنفسها عن البحث في العلاقات التي تربط تاريخ المنطقة المغاربية ببلدان جنوب الصحراء، أو ما يعرف بالسودان الغربي، نظرا لصعوبة الحصول على المعلومة التاريخية التي توفر السند العلمي في أي بحث تاريخي[1]، وما تم من بحوث متعلقة بالمغرب الإسلامي يتحدث باقتضاب شديد عن العلاقات

---

[1] شح المادة التاريخية بالنسبة للسودان الغربي عانى منه المؤرخون السابقون عندما تعرضوا لتاريخ المنطقة، فلم يكن بين ايديهم مصادر مكتوبة يستلهمونها في تدوين تاريخها، مثل ابن خلدون وابن فضل الله العمري؛ فابن خلدون ينقل بعضا من تاريخ المنطقة عن ابن سعيد في روايته الشفهية عن الشيخ عثمان فقيه غانية عندما قدم مصر سنة 699هـ/ 1299م والتقى به؛ كما ينقل ابن خلدون نفسه مشافهة عن شخصيات مثل القاضي أبي عبد الله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة الذي أوطن بلاد كوكو وكان قاضيا بها، لما التقى به ابن خلدون سنة 776هـ/ 1374م، وقال فيه :"فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبته"، انظر العبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421ه/ 2001م، ج6، ص 269.

ولا يختلف ابن فضل الله العمري عن ابن خلدون، فكل ما كتبه ابن فضل الله العمري عن السودان الغربي هي أحاديث أخبره بها أشخاص في مصر: أولهم أبو عثمان سعيد الدكالي الذي استوطن إحدى مدن السودان الغربي، والفقيه والمؤرخ أبو الروح عيسى الزواوي، والدليل مهنا بن عبد الباقي، والأمير أبو الحسن علي بن أمير حاجب الذين التقوا واجتمعوا بالسلطان منسى موسى بمصر لما جاء لأداء فريضة الحج، والإمام محمد بن حمد ابن الصايغ الأموي الأندلسي، وأحاديث تجار مصر، ولم يذكر سوى مصدر واحد لابن سعيد المغربي(ت 683هـ/ 1284م).، وقال في الأخير :" هذا ما انتهى إلينا من أخبارهم"، انظر كتابه، المسالك الممالك، تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411ه/ 2010م، ج4، ص 61. أما القلقشندي فإنه كان ناقلا أمينا عن ابن فضل الله العمري في مسالكه، انظر، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/ 1922م، ج5، ص 273.

التجارية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي(افريقيا السوداء) لندرة التعاملات السياسية بينها، بحكم الفاصل الطبيعي الكبير، وصعوبة التواصل[1]، وكل ذلك كان وراء هذه الندرة للمادة التاريخية.

وولوج هذا الموضوع في حد ذاته مغامرة في مفازة يحتاج سالكها إلى جرأة كبيرة، وزاد وفير، وجهد مضن للخروج منه ببعض النتائج، تماما كصعوبة العبور في الصحراء الكبرى. ومن ثم فإن أي جهد بحثي يبذل في هذا الاتجاه سوف يُسهم في فتح نافذة إضافية لرصد العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها، ويكشف عن المعالم الأساسية والعوامل التي كانت وراء هذا التواصل، والوقوف من جانب آخر على العقبات التي حجَّمت من هذا التواصل في العصر الوسيط المتأخر.

وفي هذه الورقة نحاول إزاحة الستار عن نافذة العلاقات التجارية بين تلمسان كعاصمة للدولة الزيانية، وبين السودان الغربي من خلال ما توفره بعض النصوص

---

[1] من الدراسات التي أشارت باقتضاب إلى ذلك، نذكر منها، مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة ، الجزائر، 2009م. فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، موقم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002هـ. بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، أطروحة دكتوراه في التاريخ ، بقسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، السنة الجامعية 1426-1427هـ/ 2005-2006م. خالدي مسعود: وسائل انتشار الاسلام في السودان الغربي بين القرنين 1-5هـ/ 7 -11 م، رسالة ماجستير بقسم التاريخ، كلية الاداب والحضارة الاسلامية، بجامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية السنة الجامعية 1999-2000م. الجاليات العربية والبربرية في أفريقيا جنوب الصحراء(السودان الغربي والاوسط) بين القرنين 5-10هـ/ 11-17م. بينما لم يتعرض برنشفيك إلى المبادلات التجارية بين الحفصيين وبلاد السودان الغربي إلا في إشارة مقتضبة جدا، انظر كتابه، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ/ 1988م ج2، ص244.

المنشورة هنا وهناك في مختلف المصادر، من أجل الحصول على أجزاء من الصورة التاريخية التي كانت قائمة بين ضفتي الصحراء، وكيف ساهمت في تنويع العلاقات السياسية والثقافية.

لقد مكنت القوافل التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من اختراق مفازة الصحراء التي كانت تشكل عائقا طبيعيا بين المنطقتين، نظرا لشساعة مساحتها، ومخاطرها[1]، من حيث ندرة المياه التي لا توجد إلا بعد فاصل زمني يقدر من يومين إلى أربعة عشر يوما[2]، ويكون ذلك بعد قطع القوافل مسافة تزيد عن مائة أو مائتي ميل، مع ملوحته، وشدة الحرارة، وكل ذلك قد يؤدي إلى فقد الحياة؛ وقد وصف الحسن الوزان الصحراء التي تسير بها قوافل تلمسان بأنها أكثر "وعورة ووحشة، يمر بها التجار الذاهبون من تلمسان إلى تمبكتو ويقطعونها من أبعد طرفي قطرها، فتؤدي صعوبة المرور إلى موت العديد من الناس والدواب، لفقدان الماء"[3].

ومن مخاطر الصحراء كذلك العواصف الرملية التي تُذهب معالم الطرق في المفاوز الشاسعة[4]، والوحوش والحيات، والغارات، وحتى الضرائب والإتاوات

---

[1] الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403هـ/ 1983م، ج2، ص 153.

[2] الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1422هـ/ 2002م ، ج1، ص 18، 107. وجاء في ص 107 :"ومنها مجابة نيسر التي ذكرنا أنها أربعة عشر يوما لا ماء بها ولا يوجد له أثر فيها، وهي مشهورة بذلك ".

[3] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 150.

[4] الإدريسي: م.س، ج1، ص 18.

الكبيرة التي كانت تفرض على القوافل[1]، واتساع المسافة، حيث قدرت المسافة المستقيمة بين تلمسان وتمبكتو بأكثر من ألفي كيلومتر.

ورغم هذه الصعوبات المضنية والمكلفة ماديا ومعنويا وربما حياتيا فقد تجاوزتها هذه القوافل[2]، وساهمت بشكل كبير في التبادل التجاري بين المنطقتين، وفي تنمية هذا النشاط إلى البلدان الأوروبية، كما ساهمت هذه القوافل التجارية من جهة أخرى في نقل عوامل الحمل الحضاري، والتي لم تستطع جيوش الفتح الوصول إليها وتحقيقه بحكم العوائق الطبيعية.

- نقصد بالسودان الغربي ذلك **الفضاء الجغرافي والسكاني الزنجي** الذي يقع جنوب الصحراء الكبرى، والممتد شرقا من بحيرة تشاد، مرورا **بالنيجر إلى المحيط الأطلسي**، ويضم كل من **الجزء الغربي للنيجر، ثم مالي فموريتانيا والسنغال**[3]، باعتبار أن **بلاد السودان** تقع جغرافيا جنوب الصحراء الكبرى، وتشمل من الشرق إلى الغرب كلا من: **السودان الحالي**(مع اريتيريا) غرب البحر الأحمر، **وتشاد، والنيجر**،

الحسن الوزان: م.س، ج1، ص 60. وعلى سبيل المثال كان الأعراب يفرضون على القوافل ربع مثقال عن كل جمل، انظر، الحسن الوزان: وصف افريقيا، ج2، ص 122، 129.

[2] انظر عن مصاعب العبور في الصحراء، الإدريسي: م.س، ص17، 18، 107، 108. زكرياء بن محمد القزويني :آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، 1418هـ/ 1998م، ص 19. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2 1400ه/ 1980م، ص 146، 621-622. والنص الذي يورده الحسن الوزان يعطي صورة أوضح عن مخاطر الطريق الصحراوية، انظر، وصف افريقيا، ج2، ص 148-149، 153.

[3] انظر، بودواية: م.س، ص 35. انظر كذلك، حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1407هـ/ 1987م، ص 366، خريطة رقم 174.

ومالي، وموريتانيا، والسينغال على المحيط الأطلسي في خط موازي للصحراء التي تفصل بينه وبين الشريط الساحلي للبحر المتوسط .

– ولماذا العهد الزياني: لأن التجارة بين تلمسان والسودان الغربي في هذه الفترة كانت في أوجها، وخاصة في القرنين السابع والثامن الهجريين/ 13–14م، حيث تطورت من تجارة خاصة إلى تجارة دولة وأسهمت في نسج علاقات سياسية وثقافية.

– **المصادر**: أما المصادر التي تناولت الموضوع فقد تنوعت بين، **كتب التاريخ العام**، وأهمها كتاب"تاريخ العبر" لابن خلدون الذي رصد بعض الملامح الأساسية في سير حركة التجارة البينية بين تلمسان والسودان الغربي، وفي نفس السياق يأتي كتاب روض القرطاس ليفصح عن حلقة مهمة من حلقات الصراع الزياني المريني حول مركز بالغ الأهمية في التجارة مع جنوب السودان وهو مركز سجلماسة.

كما كان لكتب الرحلات مساهمة ثمينة ويأتي على رأسها "رحلة ابن بطوطة" التي أبرز من خلالها رحلته إلى مالي، وكانت له عليها ملاحظات اقتصادية دقيقة، وخاصة في المسائل التجارية.

أما كتب الجغرافيا فقد ساهمت بشكل أساسي في رسم ملامح الجغرافيا الاقتصادية الرابطة بين تلمسان والسودان الغربي، وخاصة فيما تعلق بالمسالك والطرق التجارية وأنواع المواد المصدرة والمستوردة بين المراكز الحضارية والتجارية الكبرى انطلاقا من تلمسان إلى تمبكتو.

وإذا تجاوزنا كتاب صورة الأرض لابن حوقل الذي ساهم في توضيح الجانب التجاري من العلاقات الاقتصادية في القرن الرابع الهجري/ ق 10م بين بلاد المغرب والقيروان بالخصوص مع مدينة سجلماسة، وأعطى صورة واضحة للحركة التجارية

---

[1] انظر عن حدود بلاد السودان، القلقشندي: م.س، ج5، ص 273.

لهذه المدينة[1]، فإننا بدءا من القرن الخامس للهجرة/ ق 11م سوف تتضح المعالم التجارية بين تلمسان والسودان الغربي من خلال تأريخها للقوافل والطرق التجارية والعلاقات الاقتصادية بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي. من خلال كتاب "المسالك والممالك" للبكري، و"الاستبصار" لمؤلف مجهول، و"نزهة المشتاق" للإدريسي، و"كتاب الجغرافيا " لابن سعيد المغربي، و"مسالك الممالك" لابن فضل الله العمري، و"الروض المعطار" للحميري، وختاما "بوصف إفريقيا" للحسن الوزان[2].

ومن بين المصادر التي كانت لها لفتات دقيقة في موضوعنا،"**كتب التراجم**"، حيث تحدثت عن حركة العلماء في مختلف بقاع العالم الإسلامي، ومن بينها رحلاتهم إلى بلاد السودان، ويأتي على رأسها في الفترة موضوع البحث كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، ومؤلفات أحمد بابا التنبكتي وأهمها "نيل الابتهاج"، و"تاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي، وغيرها.

2- عوامل التحكم في الجانب التجاري لتلمسان:

ثمة مجموعة من العوامل التي ساهمت بشكل لافت في تدعيم دور تلمسان كقطب تجاري لا غنى عنه، منها:

أ- الموقع الجيو سياسي لتلمسان:

جمعت تلمسان بين الصحراء والبر والبحر، ووقوعها جغرافيا في موضع يسمح لها بأن تكون منطقة وسيطة بين الصحراء وبلاد السودان من جهة الجنوب،

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، **1411**ه/ **1992**، ص**65**.

[2] هناك مصادر جغرافية أخرى تحوي نبذا نادرة في هذا الموضوع مثل، آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني.: أحسن التقاسيم للمقدسي. وكذا موسوعة القلقشندي صبح الأعشى. وإفريقيا لمارمول كاربخال.

وبين المشرق العربي من جهة الشرق، وكذلك أوروبا وألميريا بالأندلس من جهة الشمال، في ملتقى ثلاث اتجاهات أساسية كانت تسيطر في القرن السابع والثامن الهجريين على الموارد التجارية.

ومن الناحية السياسية وفي بداية القرن السابع الهجري/ ق13 م تعرض الغرب الإسلامي بقيادة الموحدين إلى هزيمة العقاب سنة 609ه/ 1212م التي كانت منعطفا حاسما في حياة الأندلس وقاصمة لظهرها[1]، إذ تقهقرت الدولة الموحدية

---

[1] ابن عذارى المراكشي: البيان قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/ 1985م، ص 263. ابن الخطيب: أعمال الأعمال، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م، ج2، ص 239. ابن سماك العاملي: الحلل الموشية في الاخبار المراكشية، تحقيق بوباية عبد القادر، دار الكتب العلمية، ط1، 1431هـ/ 2010م، ص 244. . المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1989م، ج5، 285.

الحقيقة أن الخليفة المنصور الموحدي(580-595 ه/1184-1198م) كان على وعي تام بالتطورات التي تحدث في الأندلس والتحركات الخفية للنصارى بعد معركة الأرك (591هـ/ 1194م)، وكانت المؤشرات عنده تؤكد تضعضع موقع جزيرة الأندلس لصالح النصارى حتى بعد انتصار المسلمين في الأرك، ويروي ابن عذاري في البيان ص 231-232 بَوْحَهُ بذلك، مشيرا إلى مستقبلها القاسي فقال:" لما دنت وفاته رحمه الله، جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها قوله: أيها الناس أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالأيتام واليتيمة. فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص محمد بن يحيى الهنتاتي: يا سيدنا ومولانا، وما الأيتام واليتيمة؟ فقال: الأيتام، أهل جزيرة الأندلس، وهي اليتيمة، فإياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الأسوار وحماية الثغور، وترتيب أجنادها". انظر نص الوصية كذلك في، الحلل الموشية، ص 242.

وانقسمت ثم تساقطت مدنها تترى في يد النصارى[1]، وهاجر أهلها إلى العدوة المغربية، وإلى المدن الإسلامية المختلفة، وكان لذلك أثره في التحول الدراماتيكي في علاقة المغرب بالأندلس.

وكانت تلمسان وإقليمها من أهم المدن المغاربية التي استقطبت وفودا وهجرات واسعة من الأندلسيين الذين يعتبرونها شبيهة بمدن الأندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها[2]؛ وقد وفد إليها إلى جانب طبقة العامة كثيرا من العلماء والفنيين والمزارعين، وكثيرا من التجار وذوي رؤوس الأموال، الذين ساهموا في تنمية النشاط الاقتصادي التلمساني والمغاربي، فتغيرت ملامحه[3] "فمصروا أقاليمه، ونوعوا بها الغراس، فكثرت مستنزهاتها، وامتد بسيط نباتها"[4]، و"أصبحت هذه الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية"[5]. وكان "التأثير الأندلسي بارزا في كل الصناعات التي تتعلق

---

[1] متتالية سقوط المدن الأندلسية كما يلي: جزيرة ميورقة سنة 627هـ/ 1230- قرطبة سنة 633هـ/ 1236م- بلنسية سنة 636هـ/ 1238م- دانية سنة 641هـ/ 1243م - جيان سنة 643هـ/ 1245م - شاطبة سنة 644هـ / 1246م - إشبيلية سنة 646هـ/ 1248م- مرسية سنة 664هـ/ 1265م - جزيرة منورقة سنة 686هـ/ 1287م.

[2] ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 1389هـ/ 1970م، ص 140.

[3] انظر نص المقري في نفح الطيب، ج 4، ص 4- 5.

[4] القلقشندي: م.س، ج5، ص 102.

[5] محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب،، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ط2، 1428هـ/ 2008م، ص 75. انظر كذلك ، عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 1421هـ/ 2000م، ج2، ص 29-220.

بالبناء وزخرفة الدور والقصور، والتأثيث واللباس، وأنواع الزينة والحلي"[1]، واستفادت تلمسان استفادة جمة من الفنيين الأندلسيين وفي مختلف الصناعات[2].

ولا شك أن طبقة التجار وذوي رؤوس الأموال الأندلسيين قد ساهمت في توسيع حركة التجارة في الداخل، إلى جانب مشاركتها في التجارة إلى بلاد السودان الغربي.

ب- النشاط الاقتصادي لتلمسان:

تميزت تلمسان ومحيطها في هذين القرنين بنشاط تجاري مكثف، وربما كانت من أكبر الأسواق في المغرب الإسلامي نظرا لما كانت عليه من وفرة الانتاج المحلي لمختلف السلع الزراعية[3]، والحيوانية، والصناعية[4]، ولحركية الاستيراد والتصدير

---

[1] زنيبر محمد: دراسات في الحضارة اللامية وثقافة الغرب الإسلامي، مطبعة الامنية، بالرباط، ط1، 1431هـ/ 2010م ص 327. انظر كذلك، زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ/ 1981م، ص 121.

[2] سعيدان عمر: علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن 8هـ/ 14م، ثالة: الأبيار، الجزائر، 1432ه/ 2011 م، ص 68. نقلا عن وثيقة وهي عبارة عن رسالة تحمل رقم 91 بتاريخ 24 ربيع الثاني دون ذكر سنة الإرسال وقد تكون كما قال سعيدان في حدود سنة 724-725هـ/ 1323-1324م.، وهي مسجلة بالأرشيف الأراغوني في قسم الأرشيف الأندلسي ج3 سفر 1 ص 97. انظر كذلك عن هذه الوثيقة ، الطهار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1404هـ/ 1984م، ص 129.

[3] الادريسي: م.س، ج آ، ص 248. زراعة الحبوب كانت كثيفة في تلمسان ومحيطها ولكننا نخص بالذكر الفواكه التي كان إنتاجها يثير الدهشة فهذا الحسن الوزان يزور مناطق تلمسان ويتحدث بإعجاب عن صنوف الفواكه وكثرتها، انظر كتابه وصف إفريقيا،ج2 ، ص15-16. انظر كذلك، امبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث: ج2، ص 483.

[4] ابن سعيد: م.س: ص 140.

"فهي كثيرة الخصب والزرع، كثيرة الغنم والماشية، طيبة المراعي، ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب والأندلس لرخسها وطيب لحومها"[1]. وتواترت النصوص بأنها كانت تتميز عن غيرها "برخس أسعارها، ونفاق أشغالها، ومرابح تجارتها"[2].

وكان بها فئة التجار الكبار، والقوافل التجارية التي تنتقل باستمرار بين مناطق الانتاج ومناطق الاستهلاك في الحواضر المغربية، والموانئ الساحلية، والأسواق البعيدة، نحو أوروبا في الشمال[3]، أو نحو السودان الغربي جنوبا[4].

وكانت كل الطرق التجارية الأوروبية تمر عبر تلمسان نحو الصحراء والسودان الغربي، وذلك ما وفر لتلمسان أموالا طائلة من خلال الرسوم التي تفرض على حركة البضائع دخولا وخروجا[5]، فضلا عن تجارتها الخاصة. وقد اشتهر تجار

---

[1] مجهول: كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد بلا تا، ص 179، وكذلك ص 176 يقول فيها:" كثيرة الخصب رخيصة الاسعار كثيرة الخيرات والنعم".

[2] الشريف الإدريسي: م.س، ج1، ص 248. الحميري: م.س، ص 135. انظر كذلك: القلقشندي: م.س، ج5، ص 150.

[3] كانت مدينة مشهورة بإنتاج القمح حيث كان يصدر في المراكب للسواحل الاندلسية وغيرها، انظر، ابن سعيد : م.س، ص142.

لقد كان ميناء هنين من الموانئ الاساسية للتجارة الخارجية المربحة جدا بين تلمسان وأوروبا، انظر عن حركة السفن الشراعية التجارية القادمة من البندقية إلى تلمسان في ، الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 15.

[4] المبلي: م.س، ج2، ص 483. فيلالي عبد العزيز: م.س، ص 213. بودواية: م.س، ص 273.

[5] الحسن الوزان : م.س، ج2، ص 23.

تلمسان بالإنصاف والإخلاص والأمانة[1]، مما ساهم في رواج تجارتهم، ووفود التجار إليها، والتعامل الآمن معها.

وربما كان من الضروري التدليل على ضخامة حجم التجارة الخارجية لتلمسان من خلال ما شاهده الحسن الوزان وعاينه بنفسه عندما كان مرافقا لأحد كتاب ملك تلمسان "جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية، حملت من البضائع ما يموّن تلمسان لمدة خمس سنوات، وبلغت قيمة الرسوم التي قبضها الملك خمسة عشر ألف مثقال[2] ذهبا مسكوكا"[3]. إن هذه المبالغ الكبيرة تمثل حصيلة صفقة واحدة مع سفينة خاصة، ولنا أن نقدر حجم التجارة مع باقي السفن والمدن الأوروبية؛ كما يمكننا أن نقدر الحجم الكبير لمردود التجارة مع افريقيا جنوب الصحراء، خاصة إذا علمنا أن أهم الأسفار التجارية التي يقوم بها التجار التلمسانيون هي تلك التي يتجهون بها إلى السودان الغربي حسب ما أكده الحسن الوزان[4].

جـــ- الاستقرار السياسي:

إذا ما استثنينا بعض التقلبات الأمنية مع الجارتين الشرقية والغربية، وما أصاب عاصمة الدولة الزيانية تلمسان من ذلك الحصار المريني الذي استمر لمائة شهر

---

[1] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 21.

[2] المثقال كان وزنه معادلا لوزن 72 حبة قمح متوسطة الحجم، انظر المقريزي في كتابه ، ثلاث رسائل، النقود الاسلامية، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية، 1298هـ، ص 8، حيث يورد بأن عشرة دراهم موافقة لسبعة مثاقيل وان كل درهم يحوي خمسين حبة وخمس فيكون عشرة دراهم مقابلة لـ505 حبة إذا قسمناها على سبعة مثاقيل يكون لكل مثقال 72 حبة.

[3] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 16. مع العلم ان التجارة مع جنوة والبندقية كانت اساسية في تلمسان حتى ان كان بتلمسان فنادق خاصة بتجار جنوة، انظر، المصدر نفسه، ج2، ص 20.

[4] وصف افريقيا، ج2، ص 21.

في نهاية القرن السابع الهجري/ ق13م[1]، وما أصابها من احتلال من قبل الدولة المرينية وسلطانها أبي الحسن المريني من سنة 737هـ/ 1336م إلى 760ه/ 1358م[2]، كانت الدولة الزيانية وعاصمتها تلمسان تعيش نسبيا وعلى العموم حياة مستقرة وآمنة، وخاصة بعد اعتلاء سلطانها أبي حمو الثاني سدة الحكم سنة 760هـ/ 1358م.

إن هذه الفترة شكلت الفترة الكبيرة والحافلة في حياة الدولة الزيانية في القرنين السابع والثامن الهجريين، وكانت تلمسان من الحواضر الأساسية في بلاد الغرب الإسلامي؛ وقد حفزت هذه الظروف المستقرة تدفقا مميزا للتجار وسهولة في التعامل التجاري؛ حيث كانت الدولة الزيانية تمسك بالخيوط السياسية والتجارية، فقد كانت القوافل تسير من تلمسان إلى السودان الغربي مستفيدة مما قامت به الدولة من التحكم والسيطرة على سجلماسة في فترة ليست بالقصيرة[3]، ومن إقامة علاقات ودية مع سلاطين كانو، وبورنو، وسنغاي، ومالي، وتبادل الهدايا والرسائل معهم، كما ارتبط هلال القطلاني حاجب أبي تاشفين الأول بالصداقة مع منسا موسى سلطان

---

[1] انظر عن هذا الحصار الذي بدأ في شعبان سنة 698ه/ واستمر لمائة شهر ، ابن خلدون: العبر، وديوان المبتدإ والخبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ/ 2000م، العبر، ج7، ص 126-127. التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل: نظم الدر والعقيان، في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ/ 1985م،ص 130.

[2] انظر، يحيى بن خلدون: بغية الرواد: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر: 1400هـ/ 1980م،ج1، ص219. ابن خلدون: العبر، ج7، ص 147-148.

[3] ابن خلدون : م.س، ج7، ص 114. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972، ص، 297.

مالي[1] (كانت ولايته منذ 712ه/ 1312م، وتوفي 738ه/ 1337م)، عندما التقى به في موسم الحج[2] سنة 724ه[3]. وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية.

3- **المسالك والمراكز التجارية:**

هناك طريقان رئيسيان رصدهما الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق، وبقيتا تشكلان أهم الطرق الواصلة بالسودان الغربي. **الطريق الأول** قال عنه:" وأما من أراد الطريق إلى تلمسان من مدينة سجلماسة فالقوافل تسير من **تلمسان** إلى **فاس** إلى صفروي إلى **تادلة**[4]، إلى **أغمات**[5] إلى بني درعة إلى **سجلماسة**"[6].

والطريق الثاني نادر السلوك، لأنه يمر عبر مفازة الصحراء، وطريقه من " **تلمسان** إلى **قرية تارو** مرحلة، ومنها إلى **جبل تامديت** مرحلة ومنها إلى **غايات** وهي قرية خراب مرحلة، وبها بئر ماء، ومنها إلى **صدرات** مرحلة، ...ومنها إلى **جبل تبوي** مدينة خراب وبها عين ماء،...إلى **فتات** بئر في وسط الصحراء مرحلة ومنها إلى **شعب الصفا** مرحلتان، ومنه إلى **تنلي** وهي قرية عامرة مرحلة ومنها إلى **قرية تمسنان** مرحلة ،

---

[1] انظر عن أخبار هذا السلطان، ابن خلدون: م.س، ج6، ص 267. القلقشندي: م.س، ج5، ص294.

[2] بودواية : م.س، ص 321.

[3] ابن فضل الله العمري :م.س، ج 27، ص 345. ابن خلدون: م.س، ج5، ص 496. وج6، ص267.

[4] من بلاد المغرب ، انظر، الحميري: م.س، ص 127.

[5] أغمات بأرض المغرب وهي مدينتان، أغمات وريكة وأغمات هيلانة، انظر، الحميري، م.س، ص46.

[6] الإدريسي: م.س، ج1 ، ص 249. انظر كذلك عن الاتجاه العام لهذا الطريق، مجهول: كتاب الاستبصار، ص 176.

ومنها إلى تفريت مرحلة ومنه إلى سجلماسة ثلاث مراحل ، وهذا الطريق قليل سالكوه"[1].

ومن سجلماسة تتوجه القوافل نحو بوابة مالي واحة ولاتة (إيوالاتن)[2]، ثم إلى تمبكتو أو إلى أودغشت في موريتانيا . وكذا إلى منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر.

والحقيقة أن هذا الطريق الأخير قد انتعش في القرن السابع الهجري/ 13م وأصبح يدعى "طريق الذهب"[3] بعد أن استولى عرب المعقل (المنبات) على سجلماسة[4]، وأعلنوا تبعيتهم إلى السلطان الزياني يغمراسن بن زيان[5]، وكانت سجلماسة في معظم النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ 13 م تابعة سياسيا للزيانيين[6]، وفي هذه الأثناء كانت تلمسان تستثمر ميناء هنين في ربط تجارتها مع الأوروبيين.

---

[1] الإدريسي: م.س، ج1، ص 249.

[2] وقد كانت مدينة ولاتة شعلة من العلم، زارها واستقر بها عدد من الفقهاء والعلماء بغاية التدريس وترسيخ الدعوة الإسلامية. وأثناء زيارة ابن بطوطة لمالي عام752ه/ 1352 م، توقف رحالتنا بولاتة(إيولاتن)، وخلّف لنا وصفا لمظاهر الحياة الإسلامية بها، أكد فيه وجود قاض بالمدينة. وقد تطورت تلك المظاهر بشكل لافت، مما أهل ولاتة لأن تصبح مركزا مشعا لدراسة العلوم الإسلامية في القرون اللاحقة، وهذا ما كشف عنه كل من عبد الرحمن السعدي خلال القرن 17م، انظر كتابه، تاريخ السودان، مكتبة أمريكا والشرق، باريس،1401ه/ 1981م.

[3] **Ch.E.Dufourcq Une route de l'or au moyen age de l'Afrique noire, Magorque par Sigilmassa et Tlemcen, Bulletin d'information historique, Faculté des lettres d'Alger' N° 3 Janvier , 1966 , p : 19.**

[4] ابن خلدون: م.س، ج7، ص 114. العروي: م.س، ج2، ص 224-225.

[5] ابن خلدون: م.س، ج7، ص 114. ابن ابي زرع: م.س، ص 297.

[6] ابن أبي زرع: م.س، ص312. حسن حافظي علوي: سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ 14م، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، 1418هـ/ 1997م، ص 201.

وكان يغمراسن يبعث أحد أبنائه كل سنة إلى سجلماسة لجمع الخراج[1]؛ ولا يبعد أن تكون القوافل التجارية مزدهرة إلى سجلماسة ثم بلاد السودان الغربي نحو مدينة تنبكتو وأودغشت[2].

والجدير بالملاحظة أن الموسم المناسب لسفر القوافل المتوجهة إلى بلاد السودان عبر الصحراء هو فصل الخريف، تفاديا للزوابع الرملية، والحرارة المفرطة، وذلك لانخفاض درجة الحرارة فيه، وتجنب الهلاك من العطش[3].

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ ق14م وبعد أن تراجع دور طريق سجلماسة التي كانت أوضاعها الأمنية غير مريحة، صار إقليم توات الذي يقع شرقيي سجلماسة ومنطقته الشرقية تمنطيط مركز عبور بالغ الأهمية للتجار القادمين من المغرب وبالخصوص من تلمسان والمتوجهين إلى مالي من السودان الغربي أو العكس، حيث كان يقوم بتوفير الحماية الآمنة للقوافل التجارية عبر هذا الخط عن طريق الاستيجار، بحيث أصبح من الطرق الأساسية الآمنة للتجار، أو قل الطريق الأساس للتجارة البينية بين المغرب وبلاد السودان[4]. وكان له دور كبير في ازدهار التجارة والقوافل التجارية نحو بلاد السودان[5]. نظرا لما تمتعت به المنطقة من الاستقلال الذاتي عن السيادة المرينية حيث كان لقبائل المعقل حضور قوي وتنظيم خاص لم يفلح المرينيون في لجمه واحتوائه.

---

[1] ابن ابي زرع: م.س، ص 312 . حسن حافظي علوي: م.س. ص 368.

[2] كانت أودغشت مركزا تجاريا كبيرا، يفد إليه التجار من مختلف الجنسيات، انظر، الحميري: م.س، ص 64.

[3] الإدريسي: م.س، ص 107، 108.

[4] ابن خلدون: م.س، ج7، ص 76-77.

[5] نفسه ج7، ص 77.

ولابد من الإشارة إلى وجود خطوط تجارية كانت تربط الجهات الشرقية للدولة الزيانية بالسودان الغربي، وقد برهنت هذه الخطوط على حيويتها وفعاليتها التجارية، حيث شكلت منطقة وادي مزاب[1] وورگلة[2] مركزين أساسين للتجارة بين مدن الجزائر وبجاية، وقسنطينة وحتى تونس، لتجتمع القوافل كلها بعد ذلك في تيكورارين[3] وتتوجه نحو بلاد السودان، ولا شك أن هذين الخطين يؤكدان الحضور الإباضي في تجارة الذهب[4]، وفي ترسيم المنطقة كفاعل أساسي في النشاط التجاري بين ضفتي الصحراء.

وقد لعبت المراكز التجارية، التي امتدت على طول وأطراف المحاور التجارية العابرة للصحراء، أدوارا مختلفة في العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، كأسواق تجارية استقطبت تجار شمال الصحراء وجنوبها، وأبرمت فيها صفقات تجارية مهمة، وكمحطات سمحت للقوافل التجارية بالتوقف من أجل الاستراحة، والخضوع لتنظيم معين استعدادا لعبور الصحراء، ولأنها كانت بمثابة همزة وصل بإمكان القوافل التجارية أن تتزود فيها بالمؤن والمواد التجارية المختلفة وتعمل على إعادة توزيعها وترويجها، كما شكلت سوقا استهلاكية للمواد التي

---

[1] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 134-135.

[2] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 136.

[3] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 133. انظر كذلك، مرمول كربخال: افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المملكة المغربية، 1408هـ/ 1988م، ج3، ص 166.

[4] يقول الإدريسي بأن أهل وركلة وأهل المغرب الأقصى هم أكثر الناس شراء للتبر من السودان، انظر،الإدريسي: م.س، ج1، ص 24. كما يؤكد أن الفواكه الرطبة لا تأتي إلى بلاد السودان إلا عن طريق وركلة، انظر المصدر نفسه، ج1، ص 20. وانظر كذلك، الحميري: م.س، ص 611، عندما تحدث عن مدينة ونقارة.

يصدرها السودان الغربي، ومن بين هذه المراكز: سجلماسة، وولاتة، واودغشت، وتمبوكتو.

الوكلاء التجاريون:

تطورت المراكز التجارية بتوفرها على وكلاء تجاريين في مختلف المدن والمراكز التي تمر بها القوافل التجارية، بدءا من تمبكتو إلى تلمسان عبر سجلماسة، إذ يقومون بالإشراف على تجاراتهم في مختلف هذه المراكز، حيث كانوا يقيمون بها طوال أيام السنة، نظرا للنشاط المكثف لتجارة البضائع، واستمرار تدفقها بين تلمسان والسودان الغربي.

وفي هذا الإطار، **وفي نص نادر للمقري الجد (ت 759ه/ 1357م)** الذي كتبه في سياق حديثه عن مذكراته الشخصية، ومن خطه نقله ابن الخطيب في كتابه الإحاطة عند التعريف به، حيث **تعرض المقري الجد للحديث عن أجداده ومن خلال وثائق مكتوبة كانت بحوزته في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ 14م**، وقد وصف النشاط التجاري لأجداده المقَّريين في القرن السابع الهجري/ 13م واستمر إلى منتصف الثامن الهجري/ 14م، وأكد وجود شركة تجارية للمقَّريّين مكونة من خمسة إخوة موزعين بين **تلمسان وسجلماسة وولاتة**.

يقول المقري الجد:" ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل، وراية تقدم عند المسير، وكان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال، **فعقدوا الشركة بينهم** في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، فكان **أبو بكر ومحمد** – وهما أرومتا نسبي من جميع جهات أمي وأبي– **بتلمسان، وعبد الرحمن** وهو شقيقهما الأكبر **بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي** وهما شقيقاهم الصغيران **بإيوالاتن(ولاتة)**، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار، وتزوجوا النساء واستولدوا الإماء. **وكان** التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد

والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفها بقدر الخسران والرجحان[1]، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم..."[2].

إن هذا النشاط التجاري المكثف خاص بشركة واحدة من شركات مدينة تلمسان، ولنا أن نتصور بقية الشركات التجارية التي كانت تنشط في مختلف التجارات، لندرك حجم التبادلات التجارية بين تلمسان وجنوب السودان.

لقد كانت التجارة رائجة وثرية بين تلمسان وبلاد السودان الغربي عبر سجلماسة[3]، وشكلت ثراء منقطع النظير لمجموعة من الشركات التي كانت تنشط في هذا الخط[4]، وقد فسر ابن خلدون المعاصر لهذا النشاط التجاري أسباب ثراء التجار

---

[1] كانت سجلماسة فعلا مدينة يمكن اعتبارها مركز عبور أساسية للتجارة الدولية بين بلاد المغرب الإسلامي من جهة وبلاد السودان الغربي أو إفريقيا جنوب الصحراء من جهة ثانية، وذلك لانها كانت آخر مدينة آهلة بالسكان ، انظر ، ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 107.

[2] انظر النص في، ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الجانجي القاهرة، ط1، 1394هـ/ 1974م، ج2، ص 192. المقري: م.س، ج5، 203، 204، 205.

[3] ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان في منتصف القرن الثامن الهجري/ 14م بوجود تجار من تلمسان في القافلة، منهم التاجر الحاج الزياني الذي كان يمارس في طريق الرحلة أنواعا من اللعب بالحيات، انظر، رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1417هـ/ 1997م، ج4، ص 242.

[4] في هذه الفترة كان كبار التجار المغاربة يتمتعون بثراء كبير، نظرا لتنوع الأنشطة الاقتصادية، انظر، محمد حسن: التجار والحرفيون بإفريقية في بين القرنين السادس والتاسع الهجري/ 12-15 م، ضمن كتاب"المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق الهادي التيمومي، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1420هـ/ 1999م، ص 66.

الذين يتاجرون في بلاد السودان وأرجعه إلى الندرة كسبب رئيس بقوله: "ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته، واعتراض المفاوز الصعبة المخطرة بالخوف والعطش ... فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم، فتعظم بضائع التجار من تناقلها، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك... وأما المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة، وأرباحهم تافهة، لكثرة السلع وكثرة ناقليها"[1].

4- أنواع السلع والبضائع البينية:

ثمة صعوبة في الحصول على تقديرات دقيقة لأنواع البضائع وحجم المبادلات التجارية فيها، في غياب نصوص تاريخية واضحة، غير أننا نمتلك صورة واضحة حول الأرباح الهائلة للنشاط التجاري بين السودان وتلمسان في هذين القرنين.

ونظرا لتوفر تلمسان على نشاط اقتصادي متنوع محلي ومجلوب أو عابر، فإن السلع التي كانت تصدر إلى بلاد السودان من تلمسان من خلال بعض مصادر الرحلة والمصادر الجغرافية تمثلت بالخصوص في **الملح** أولا[2] حيث كان أهم مادة تستهلك من قبل بلاد السودان لانعدامه بها[3]، وكان سعره في القرن الثامن الهجري/ ق14م مرتفعا فقد ذكر ابن بطوطة بأن"الحمل منه يباع بايولاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالا"[4]، بينما في القرن التاسع

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، **1421هـ/ 2001م**، الفصل الثاني عشر "في نقل التاجر للسلع"، ص**497**.

[2] الإدريسي: م.س، ج**1**، ص **17**، **18**.

[3] ابن فضل الله العمري: م.س، ج**4**، ص**60**.

[4] ابن بطوطة: ج**4**، ص **240**.

الهجري/ 15م صار سعر الحمل منه في مدينة تمبكتو ثمانين مثقالا[1]؛ كما كان السودان يتصارفون بالملح كما يتصارفون بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به[2].

ومن المواد المصدرة إلى بلاد السودان الغربي تجد كذلك الخزر[3] والنحاس الأحمر والملون المصنوع[4]، وصنوف النظم من الزجاج[5] والأصداف والأحجار الكريمة والعطر وآلات الحديد المصنوع[6] والتمور[7]، ومختلف أنواع الحبوب والفواكه[8].

أما ما كانت تلمسان مختصة به ورائدة فيه على باقي الحواضر المغاربية[9] مع أحوازها مثل هنين[10] وندرومة[11] فهي المنسوجات الصوفية، حيث تربعت تلمسان

---

[1] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 166.

[2] ابن بطوطة: م.س، ج4، ص 240.

[3] الإدريسي: م.س، ص 18. الحميري: م.س، ص 134.

[4] الإدريسي: م.س، ص 18. الحميري: م.س، ص، 46، 71. القلقشندي: م.س ، ج5، ص 286. الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 117.

[5] القزويني: م.س، ص 19. الحميري، م.س، ص46.

[6] الإدريسي: م.س، ص 42، 232. الحميري، م.س، ص46.

[7] الإدريسي: م. س، ص 20.

[8] ابن خلدون: المقدمة، ص 70 قال :" وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين وورگلان".

[9] ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيقيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ/ 1981م ص 129. ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1429ه/ 2008م، ص 192.

[10] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 15.

[11] نفسه، ج2، ص 14.

على عرش النسيج في العصر المغاربي الوسيط، وتلك خصيصة من خصائص النشاط الاقتصادي التلمساني الذي ترسخ عبر عقود ماضية، فقد تحدث يحيى بن خلدون عن ذلك بقوله:" إن غالب تكسبهم (أهل تلمسان) الفلاحة وحوك الصوف، يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، ...بذلك عرفوا في القديم والحديث، ومن لدنهم يُجلب إلى الأمصار شرقا وغربا"[1].

وبلغت منسوجات تلمسان شهرة واسعة ملأت آفاق المشرق والمغرب على السواء، لجودتها ونفاسة صناعتها، واختصاصها بالصوف الرفيع[2]. وكانت صناعتها رائجة ومواردها كبيرة[3]، حيث كانت القوافل ترد عليها من مختلف المدن لشراء أجود منسوجاتها الصوفية الرفيعة[4]. وقد بلغت "قدرا من الدقة حتى أن بعضها لا تزن عشرة أواق[5]"[6]. وكانت مطلب الملوك والأمراء، فقد ذكر ابن فضل الله العمري (ت 749ه/ 1348م) أن غالب لبس سلطان مملكة تونس ولبس أكابر مشايخه من قماش عندهم "يسمى السفساري، يعمل عندهم من حرير وقطن، أو حرير وصوف، إما أبيض أو أحمر أو أخضر،وقماش يعرف بالحريري وهو صوف رفيع جدا، وقماش

---

[1] يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص90، 92. انظر كذلك عن شهرة مدينة هنين بالمنسوجات واختصاصها فيه، الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 15.

[2] ابن مرزوق: المناقب، ص 188. ابن مرزوق: المسند، ص 129. ابن سعيد المغربي: م.س، ص140.

[3] ابن مرزوق: المناقب، ص 188 – 189.

[4] ابن مرزوق: م.س، ص 190.

[5] الأوقية = 21 درهما. الرطل= 16 أوقية= 21x16= 336 درهم، انظر، القلقشندي: م.س، ج5، ج5، ص 114.

[6] مرمول : م.س، ج2، ص300.

يعرف بالتلمساني مما يعمل بتلمسان، وهو نوعان: مختم وغير مختم، منها صوف خالص، ومنها صوف وحرير"[1].

ومنهم كذلك السلطان أبو الحسن المريني الذي "كان يؤتى بثياب الصوف التلمسانية الخالصة، فيتخير أجودها ويعطيه لمجالسيه"[2]. **وقد أكد ابن مرزوق الخطيب (الجد) ذلك بقوله:" وملوك إفريقية والمغرب إنما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف فإنها اختصت به"**[3].

وفي هذا الإطار نؤكد كمثال على ذلك أن أسرة واحدة وهي أسرة **عبد الله بن النجار** (جد جدة ابن مرزوق الخطيب لأبيه فاطمة بنت أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن **عبد الله بن النجار**) كان يمتلك معامل ضخمة لحياكة الصوف الرفيعة بتلمسان، وكانت ترده التجار من كل بلاد إفريقيا والسودان الغربي، بعد أن طور الصناعات النسيجية ونماها، وقد أثرى بذلك ثراء كبيرا حتى كان يتملك دروبا له ولأبنائه ولعماله وخدمه[4].

كما كانت تجارة الخيول البربرية رغم صعوبتها تجد هي الأخرى نوعا من الاهتمام من قبل الحكام بالخصوص للاستخدامات الملوكية والعسكرية[5].

وما ذكره الإدريسي في القرن السادس الهجري/ق10م من تنوع المواد المصدرة[6] بقي ينقل في القرن السابع الهجري وبداية القرن الثامن الهجري وخاصة

---

[1] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 77. **وانظر النص نفسه نقله عنه القلقشندي في كتابه صبح الأعشى: ج5، ص 142.**

[2] ابن مرزوق: المسند، ص **129**.

[3] ابن مرزوق: المناقب، ص **189**.

[4] ابن مرزوق: المناقب، ص **188-189** .

[5] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص **53**.

[6] الإدريسي: ج2، ص 529.

البخور والأصداف والأسورة النحاسية وكميات كبيرة من التمر[1]، **وهو ما يؤكد ثبات أنواع السلع في عملية التجارة بين الشمال والجنوب، ويعكس استمرار الاستهلاك لهذا النوع من المنتوج المغاربي.**

وذكر أبو الفداء في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أن التجار المغاربة يحملون إلى بلاد السودان **التين، والملح، والنحاس، والودع**[2]. وأشار ابن بطوطة إلى بعض المواد التي كانت تجلب من قبل المغاربة وتجد رواجا كبيرا في بلاد السودان الغربي بقوله:" والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا، ولا إداما، ولا دينارا، ولا درهما، إنما يحمل قطع الملح، **وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية**، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل، والمصطكى، وتاسرغينت"[3].

– **أما البضائع** التي تستورد من بلاد السودان إلى تلمسان فيأتي على رأسها وفي الدرجة الأولى "**التبر**" الذي أصبحت تعرف به فيقال:" **بلاد التبر**"[4]، أو **الذهب**[5]، "وهي أكبر غلّة عند السودان، وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم"[6]. وكان يجلب "في

---

[1] الإدريسي: م.س، ص **20**. انظر كذلك، الحميري: م.س، ص **63، 64**.

[2] أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء . القلقشندي: م.س، ج**5**، ص **282**.

[3] ابن بطوطة: م.س، **193**.

[4] انظر ، القزويني: م.س، ص **18**.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، **1397**ه/ **1977**م، ج**2**، ص **12**. ابن الخطيب لسان الدين: الاحاطة، ج**2**، ص **192**. المقري: م.س، ج**5**، **203، 204، 205**.

[5] ذكر البكري ان ذهب اودغشت اجود ذهب على الارض، انظر المسالك والممالك، ج2، ص 344. 344 . والنص نفسه في الاستبصار لمجهول ص 216. الحميري: الروض ، ص 63..

[6] الإدرسي: م.س، ج1، ص 25 . انظر كذلك عن الذهب كأهم سلعة تجلب من السودان الغربي، ابن فضل الله العمري: م.س ، ج 23، ص 63. الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 125

"في شكل مسحوق، أو سبائك من داخل القارة السمراء"[1]. وقد أشار مؤلف تلمساني مجهول إلى وفرة الذهب ببلاد السودان وله معدنان خالصان "بحيث لا يحتاجان سوى درهمين من الورق عند التذويب لكل دينار"[2]، ويؤكد أنه لا يحتاج إلا نارا قليلة للتذويب، وأن أفضله التبر الأحمر الموجود في الأبيار عند وفور مياهها، ومنه من ينحط من جبل في وقت السيل فيجتمع عند حد السيل في ذلك الجبل مثل خنادق وشعوب، وحله يحفره قوم هناك من السودان[3]. ويبدو أن هذا الذهب يوجد في شكله الخام. وكان بيعه في تلمسان وبلاد المغرب بأسعار باهضة تجلب فوائد ضخمة محليا ولتجار أوروبا. كما يستخدم في الاستهلاك المحلي في صناعة الحلي، وضرب النقود.

كما نشطت تجارة العبيد بشكل لافت، وكانت أسعارها كأسعار التبر زهيدة مما شجع القوافل على تحمل مشاق السفر[4]. وكان العبيد السود يشكلون غالبية مادتها، يستخدمون في مختلف الأشغال العسكرية والمدنية ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، وقد قال ابن خلدون -وهو شاهد العصر- في ذلك:" وفي جنوب هذا النيل - يعني نهر النيجر- قوم من السود يقال لهم لَمْلَم وهم كفار، ويكتوون في وجوههم وأصداغهم، وأهل غانة وتكرور يغيرون عليهم، ويسبونهم، ويبيعونهم للتجار، فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامة رقيقهم "[5].

---

[1] برنشفيك: م.س، ج2، ص 271.

[2] مؤلف مجهول: رسالة في تصفية المعادن، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11053، ورقة(284 ظ).

[3] نفسه.

[4] الإدريسي: م.س، ص 109-110. الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 126.

[5] ابن خلدون: المقدمة، ص 69-70. يبدو أن هذا النص قد نقله ابن خلدون عن الإدريسي في كتابه كتابه نزهة المشتاق، ص 19. وانظر كذلك ص 22.

كما تجلب وبدرجات أقل مواد اخرى مثل الجلد، والعاج، والجوز[1]، والمسك، إضافة إلى الشب، وريش النعام، وناب الفيل[2].

5 – التذبذب التجاري:

منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ 14م بدأت التجارة بين تلمسان وبلاد السودان الغربي في التراجع الكبير، نظرا للظروف الأمنية التي كانت في المغرب الإسلامي.

وقد عزا المقري الجد تقلص هذا النشاط إلى عاملين أساسيين: **الأول**: حدوث الاضطرابات السياسية في مالي[3]. **والثاني**: دخول التجارة المصرية بقوة وخاصة النسيجية إلى مالي، وبروز بعد ذلك صناعة نسيجية في مالي نفسها[4].

إن هذه المنافسة القوية شكلت خطرا اقتصاديا كبيرا على تجارة المنسوجات التلمسانية، وكانت سببا في تقلصها؛ وتشير بعض المصادر إلى أن الإسكندرية في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كانت تحتوي على أربعة عشر ألف مصنع للنسيج[5]. ورغم ذلك تمكنت تلمسان من الحفاظ على هذه الصناعة عبر القرون اللاحقة إذ بقيت بها معامل النسيج مزهوة طوال الفترة العثمانية وإلى الغزو الفرنسي للجزائر[6].

---

[1] ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة، ج2، ص **192**. المقري: م.س، ج**5**، **203**، **204**، **205**.

[2] بودواية : م.س، ص **297**، **332**.

[3] ابن الخطيب: م.س، ج2، ص 193–194.

[4] حسن حافظي: م.س، ص**390**.

[5] حسن حافظي: م.س، ص **390**.

[6] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مركب الطباعة، الرغاية، الجزائر، 1402هـ/ 982م، ص 95.

ورغم ذلك بقيت بعض النشاطات التجارية متواصلة بين تلمسان وبلاد السودان، وسجل بعضها ابن خلدون عندما قال:" وقبلة تلمسان وعلى عشر مراحل منها قصور تيكورارين ...وفيهم التجار إلى بلاد السودان"[1].

6- الجانب الحضاري للتبادلات التجارية:

يجوز لنا أن نؤكد بأن القوافل التجارية العابرة للصحراء كانت من أهم الوسائل التي ساهمت بشكل أساسي في نشر الإسلام في السودان الغربي[2] الذي تقبل الإسلام طوعا[3]، حيث كان منطلقها **تلمسان** نحو ما وراء الصحراء، وكانت تضمّ بين أفرادها ثلة من العلماء والفقهاء والدعاة[4] الذين كان لبعضهم دور كبير في إسلام ملوكها[5]، وفي نقل معالم الحضارة الإسلامية إلى إفريقيا الوسطى والغربية. وهكذا كانت القوافل تنقل إلى جانب السلع والمواد التجارية المختلفة الثقافة والعادات والتقاليد الإسلامية لتنشرها في أوساط السكان.

وتشير المصادر إلى أن بلاد تكرور(ويقال لها كذلك سقاي) المصاقبة لبلاد غانة دخلها الإسلام وانتشر بها قبل القرن الخامس الهجري/ 11م، وتمكن الإسلام فيها بعد أن أسلم ملكها وارجابي بن رابيس(ت 432ه/ 1040م)[6] الذي ساهم في إسلام أهلها.

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج7، ص 77.

[2] السلاوي: م.س، ج5، ص99-100. محمد صالح ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية، نشر جمعية التراث(القرارة غرداية) ط2، ص1419هـ/ 1999م ص 264.

[3] السلاوي: م.س، ج5، ص 103. نقلا عن كتاب أحمد بابا التنبكتي "معراج الصعود".

[4] مارمول: م.س، ج3، ص 195-196.

[5] ابن سعيد: م.س، ص 95.

[6] البكري: م.س، ج2، ص 360.

أما بلاد غانة فإنه كان بها جالية كبيرة من المسلمين الوافدين والمقيمين، وأصبح لهم حضور ونفوذ قوي، قال البكري:"ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثني عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة العلم"[1]، ويوجد في "مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك"[2]، وبها مدارس للعلم[3].

وكان ملكها مؤثرا للمسلمين حيث جعل منهم تراجمته، وصاحب بيت ماله، وأكثر وزرائه[4]. ووصفها الإدريسي في القرن السادس الهجري/ 2م بأنها أكبر بلاد السودان قطرا، وأكثرها خلقا، وأوسعها متجرا، وإليها يقصد التجار المياسير، من كل الأقطار وخاصة المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون[5] ؛ كما كان ثمة مسلمون في بلاد أخرى مثل يرسني، وملل[6]، وكوغة[7]، وغيرها. وتدعم الوجود الإسلامي في ربوعها ربوعها في عهد المرابطين[8]. وفي القرن السابع الهجري/ 13م كان الإسلام منتشرا بها بشكل واسع[1].

---

[1] البكري: م.س، ج2، ص 363. انظر كذلك، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 266. القلقشندي: م.س، ج5، ص284. الحميري: م.س، ص426.

[2] البكري: م.س، ج2، ص 363. الحمري: م.س، ص 426.

[3] السلاوي: م.س، ج5، ص 100.

[4] البكري: م.س، ج2، ص 363.

[5] ج1، ص23 .

[6] نفسه 366.

[7] نفسه 367.

[8] السلاوي: م.س، ج5، ص 100.

غير أن مُلْك بلاد غانة تقهقر وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو، واستعبدوهم، وصيروهم في جملتهم[2]، ثم تغلب أهل مالي على أهل صوصو، وملكوا ما بأيديهم[3]، وافتتحوا دولة كَوْكَو، وصارت حدود دولة مالي من غانة غربا إلى بلاد التكرور شرقا، وكانت هي الدولة المهيمنة على السودان الغربي في القرن الثامن الهجري/ 14م[4].

وقد استوطن الكثير منهم هذه البلاد، ولفترات طويلة وصارت بها أجيال متعاقبة. ومن الإشارات البالغة الأهمية في ذلك ما ذكره ابن فضل الله العمري (ت 749ه/ 1348م)بأن الشيخ أبا عثمان سعيد الدكالي سكن مدينة بيتي خمسا وثلاثين سنة[5]، وكانت بينهما صداقة علمية استفاد منها ابن فضل الله العمري في كتابة بعض

ملاحظة: ذكر أحمد بن سعيد الدرجيني أن أحد علماء الإباضية واسمه علي بن يخلف سافر إلى غانة وانتهى إلى مدينة مالي والتقى بملكها الذي كان مشركا وبقي عنده، وكانت نتيجة تأثره به أن أسلم ملكها، وأسلمت المدينة كلها، انظر، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة، 1394هـ/ 1974م، ج2، ص 517- 518.

[1] ابن سعيد: م.س، ص 93.

ملاحظة: ذكر ابن خلدون في العبر ج1، ص 104 أن بلاد السودان إنما دانت بالإسلام في المائة السابعة، وهو ما لايتفق مع المصادر التي أكدت أن الإسلام دخل البلاد منذ القرن الخامس الهجري/ 11م على أقل تقدير.

[2] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 266. السلاوي: م.س، ج5، ص 100.

[3] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 266. السلاوي: م.س، ج5، ص 100.

[4] ابن خلدون: العبر، ج1، ص 70. ج6، ص 266-267. السلاوي: م.س، ج5، ص 100.

[5] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 49.

المسائل التاريخية والجغرافية المتعلقة بالسودان الغربي[1]. كما ذكر ابن خلدون بأنه كتب الكثير عن السودان الغربي اعتمادا على ما أخبره به القاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول من أهل سجلماسة عندما التقى به سنة 776ه/ 1374م ، وكان هذا القاضي قد استوطن أرض كوكو وحسنت سيرته واستعملوه في خطة القضاء[2].

ولا شك أن هذا الحضور المستمر كانت له نتائجه الكبيرة على المستوى الثقافي والحضاري، ومن الإشارات على ذلك ما تحدث به ابن بطوطة عندما زار السودان الغربي عن وجود ثلة من العلماء والفقهاء والقضاة، وكانت له عليهم ملاحظات؛ ولكنه أشار إلى أن شعوبهم صارت حريصة على أداء الصلاة في المساجد، والحرص الشديد على تعليم أبنائهم القرآن الكريم[3]، وغيرها من المزايا التي تؤكد النشاط الدعوي للعلماء والفقهاء[4] في هذه المناطق الصحراوية.

ويُعَدُّ القرن الثامن الهجري/ ق14م من أزهى القرون انتعاشا للثقافة الإسلامية في السودان الغربي ذلك أن سلطان مالي قام بإرسال بعثات علمية إلى بلاد

---

[1] ينقل ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأمصار كثيرا مما أملاه عليه أبو عثمان سعيد الدكالي الذي كان خبيرا في، انظر ج4، ص 49، 52. وجل ما كتبه القلقشندي عن السودان نقله عن مسالك الأمصار للعمري، ويذكر بالنص نقلا عن الدكالي وابن أمير حاجب، انظر صبح الأعشى، ج5، ابتداء من ص 286.

[2] ابن خلدون: العبر، ج6، ص 269.

[3] ابن بطوطة : م.س، ج 4، ص 245، 247، 255، 265.

[4] من الفقهاء من كان مقيما بالسودان الغربي، ومن خلال معلوماته حول المنطقة استقى كثير من المؤرخين بعضا من تاريخها وجغرافيتها، ومنهم القزويني الذي ينقل عن بعض الفقهاء المغاربة، انظر كتابه آثار البلاد، ص 42، 57، 58.

المغرب ليتمّ تكوينهم، ويكونوا سندا للحركة الثقافية الإسلامية في بلده، وكان مع ولي عهده يتقنون اللغة العربية[1]، وساهما في أن تكون لغة رسمية لبلاده[2].

ويبدو أن أثر الدعاة المالكية في السودان الغربي كان كبيرا حتى أن السلطان منسا موسى بن أبي بكر في رحلة حجه كان يلتقي بكبار فقهاء المالكية في مصر مثل الفقيه والمؤرخ أبي الروح عيسى بن مسعود الزواوي المالكي(ت 744هـ/ 1343م)[3] الذي انتهت إليه رياسة المالكية في الديار المصرية والشامية[4]، حيث اجتمع به وتحدث إليه في مسائل بلاده[5]. وفي عهد أخيه السلطان منسا سليمان بن أبي بكر- الذي صار أعظم ملوك السودان وأوسعهم أرضا وأكثرهم عسكرا[6] – انتشرت في بلاد السودان

---

[1] مرمول: م.س، ج3، ص 201.

[2] القلقشندي: م.س، ج5، ص 298. بودواية: م.س، ص 188.

[3] شرف الدين عيسى الزواوي المالكي (664- 744ه/ 1265- 1343م) انظر ترجمته في، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج2، ص 72. ابن فضل الله العمري(معاصره وصديقه): م.س، ج6، ص145-147. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، ط1، 1418ه/ 1998م ج3، ص727. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص 210. السيوطي عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1387ه/ 1967م، ج1، ص 459-460.

[4] ابن فرحون: م.س، ج2، ص 73.

[5] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 59-60. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 267.

[6] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 49.

المغرب ليتمّ تكوينهم، ويكونوا سندا للحركة الثقافية الإسلامية في بلده، وكان مع ولي عهده يتقنون اللغة العربية[1]، وساهما في أن تكون لغة رسمية لبلاده[2].

ويبدو أن أثر الدعاة المالكية في السودان الغربي كان كبيرا حتى أن السلطان منسا موسى بن أبي بكر في رحلة حجه كان يلتقي بكبار فقهاء المالكية في مصر مثل الفقيه والمؤرخ أبي الروح عيسى بن مسعود الزواوي المالكي(ت 744هـ/ 1343م)[3] الذي انتهت إليه رياسة المالكية في الديار المصرية والشامية[4]، حيث اجتمع به وتحدث إليه في مسائل بلاده[5]. وفي عهد أخيه السلطان منسا سليمان بن أبي بكر- الذي صار أعظم ملوك السودان وأوسعهم أرضا وأكثرهم عسكرا[6] – انتشرت في بلاد السودان

---

[1] مرمول: م.س، ج3، ص 201.

[2] القلقشندي: م.س، ج5، ص 298. بودواية: م.س، ص 188.

[3] شرف الدين عيسى الزواوي المالكي (664- 744ه/ 1265- 1343م) انظر ترجمته في: ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج2، ص 72. ابن فضل الله العمري(معاصره وصديقه): م.س، ج6، ص145-147. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، ط1، 1418ه/ 1998م ج3، ص727. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص 210. السيوطي عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1387ه/ 1967م، ج1، ص 459-460.

[4] ابن فرحون: م.س، ج2، ص 73.

[5] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 59-60. ابن خلدون: العبر، ج6، ص 267.

[6] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 49.

أسئلة مطروحة تهم قضايا اجتماعية وأسرية وعلمية وسياسية[1].

وكان له تأثير كبير في النخب العلمية والسياسية بالسودان الغربي حيث صارت تمبكتو في القرن التاسع الهجري/ 15م مركزا من المراكز الإسلامية المتميزة بحركية علمية فريدة[2]، إذ كان بها "عدد كبير من القضاة والفقهاء، والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعا مرتب حسنا، ويعظم الأدباء كثيرا، وتباع أيضا مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع"[3].

كما شكلت فتواه المتعلقة باليهود بمنطقة توات وتطاولهم على الإسلام والمسلمين[4] مبررا كافيا ومقنعا لكي يصبح ملك تمبكتو من ألد أعداء اليهود "لا يريد أن يقطن أحد منهم المدينة، وإذا علم أن تاجرا من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله"[5].

ولابد من الإشارة بأنه أصبح للسودان الغربي في القرن التاسع والعاشر الهجريين/ 15-16م فقهاؤه وقضاته المحليون الأصلاء[6] الذين كانوا نتاج الجهود الكبيرة والمحمودة عبر القرنين السالفين. وقد عقد السعدي في كتابه تاريخ السودان الفصل التاسع والعاشر لجمهرة من العلماء والفقهاء والقضاة الذين تزينت بهم

---

[1] التنبكتي: م.س، ص 576. حاج أحمد نور الدين: م.س،ص 50. عبد الرحمن زكي: حركة الاصلاح الديني في غرب إفريقيا، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، مدريد، مج 13 سنة 1965- 1966م، ص 140.

[2] السعدي: م.س، ص 21.

[3] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 167. مرمول: م.س، ج3،ص 203، ويبدو انه ينقل عن الوزان.

[4] عن فتوى المغيلي المتعلقة باليهود، انظر، التنبكتي: م.س، ص576 . ابن مريم: م.س، ص 253.

[5] الحسن الوزان: م.س، ج2، ص 167.

[6] السعدي: م.س، ص 19، 20.

السودان في محافلها العلمية والتربوية والدعوية[1]، وصاروا من الدارسين لبعض المؤلفات التلمسانية، كشرح العقيدة الصغرى للإمام محمد بن يوسف السنوسي[2]، والمعيار المعرب للإمام الونشريسي[3]، وغيرها.

وثمة ملاحظة جديرة بالتأمل وهي أن الدعاة والعلماء والفقهاء المغاربة كانوا يتصلون مباشرة بالملوك والأمراء السودانيين، وكانوا يدعونهم إلى الإسلام فيسلمون بين أيديهم وتسلم قبائلهم ومدنهم معهم، ولكن هذه الشعوب ما تلبث بمرور الزمن أن تتراجع إلى الوثنية من جديد، ليأتي أفواج من العلماء مرة أخرى ويقومون بواجب الدعوة إلى ملوك السودان ليسلموا وتسلم مدنهم، وقد استمرت هذه الظاهرة لفترة طويلة. والسؤال المطروح لماذا لم يستقر إسلام هذه الشعوب إلا ما بعد القرن التاسع الهجري؟ وما هي الأسباب التي كانت وراء ذلك؟

وللإجابة على هذا التساؤل، يمكننا أن نرجعه إلى عاملين أساسيين: العامل الأول يتعلق بجهود العلماء الذين كان تركيزهم على السلاطين الذين كانوا يتعاملون معهم كتجار وذووا رؤوس أموال، ولاشك أنهم كانوا يجدون صعوبة كبيرة في الاستقرار في هذه البلاد لمناخها شديد الحرارة[4]، ولطبيعتها التي تختلف اختلافا بَيِّنًا عن بلاد المغرب وحتى مصر، فهي "قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات"[5]، كما تختلف

---

[1] ص 27 – 56.

[2] السعدي: م.س، ص 43. انظر كذلك، البرتلي محمد بن ابي بكر الصديق الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1401ه/ 1981م، ص 32، 35.

[3] نفسه 46. البرتلي: م.س، ص 32.

[4] القزويني: م.س، ص 18، 24، يذكر بأنهم يتخذون للنهار سراديب من تحت الأرض حماية لهم من أشعة الشمس وحرارتها.

[5] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 49. القلقشندي: م.س، ج5، ص 282.

تختلف من جهة أخرى من حيث طبيعة البشر[1]. والعامل الثاني يتعلق بإشكالية اللغة والتواصل بينهم وبين هذه الشعوب التي تتنوع فيها اللغات واللهجات بشكل لافت، وقد وجد الدعاة صعوبات جمة في الاستقرار والتواصل بينهم وبين هذه الشعوب، في غياب رؤية بعيدة أو مشروع دعوي واضح المعالم، نحو التعريب كخطوة أساسية في ذلك، ومن ثم رأينا كيف أن هذه المناطق رغم أنها كانت مسلمة إلا أن بها بعض السلوكات التي تتنافى كليا مع المعلوم من الدين بالضرورة في الإسلام، مثل انعدام الغيرة عند الرجال، وانتساب الابن إلى خاله بدلا عن أبيه، ويرث الرجل أبناء أخته عوضا عن بنيه[2]، مما يؤكد أن جهود الدعاة والعلماء والفقهاء لم تكن كافية لإيصال شريعة الإسلام وعقائده واستقرارها كما يجب، نظرا للصعوبات التي ذكرناها، ومن ثم تراجعت إلى الوثنية. ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن فضل الله العمري عن الأمير أبي الحسن بن أمير حاجب الذي كان كثير الاجتماع بالسلطان منسى موسى بمصر لما كان مارا لأداء فريضة الحج أنه كان من عادة أهل مملكة مالي في عهده إذا نشأ لأحد منهم بنتا حسناء قدمها له أمة موطوءة، فيملكها بغير تزويج، مثل ما ملكت اليمين مع ظهور الإسلام بينهم وتمذهبهم بالمذهب المالكي، رغم أن السلطان منسى موسى -كما أخبره- كان متدينا محافظا على الصلاة والقراءة والذكر، ولما ذَكَّره ابن أمير

---

[1] يرى ابن خلدون أن طبيعة الأقاليم تؤثر في ألوان البشر وأحوالهم، وبخصوص بلاد السودان التي تقع في الإقليم الأول والثاني فهي بعيدة عن الاعتدال، وتؤثر في أهلها فيكونوا أبعد عن الاعتدال، انظر العبر، ج1، ص 104. وجاء في ص 108 :" قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش، وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر".

[2] ابن بطوطة: م.س، ج2، 245-246. وتحدث كذلك عن النساء يتخذن صواحب في حضور أزواجهن، والرجال يتخذن صاحبات في حضور أزواجهن؟؟؟؟.

حاجب بأن ذلك لا يجوز، أكد له السلطان منسى موسى بأنه لا علم له بذلك، ثم ترك ذلك ورجع كلياً عنه[1].

ولم يترسخ الإسلام إلا بعد أن كانت تلك البعثات التي جاءت من بلاد السودان إلى المشرق أو المغرب للدراسة ثم رجعت بالعلوم الشرعية، وبعد أن صار لأهل البلد علماؤه وفقهاؤه الذين استطاعوا أن ينشروا الإسلام ويرسخوه في بلادهم، ثم بعد ذلك يأتي دور الطرق الصوفية التي دعمت مواقفها وتغلغلت في عامتها.

والملاحظ أن غياب الاهتمام باللغات المحلية واستثمارها في الحركة الثقافية من جهة، وغياب سياسة واعية لتدعيم تعليم العربية وتوسيع نشرها في الأجيال كان وراء إنتاج تلك الثقافة الإسلامية الهجينة بين التقاليد المحلية الراسخة وبين ما استطاع الدعاة أن يوصلوه من تعاليم الإسلام، وربما كانت تنوع اللغات واللهجات المحلية في السودان عائق لجهود العلماء في تعميم التعريب.

7- نتائج:

استطاعت تلمسان أن تتفاعل مع المجال الجغرافي السوداني الغربي رغم صعوبة الوصول إليه، وكانت تهدف هذه القوافل إلى الاستفادة التجارية وإيجاد منافذ إضافية للاقتصاد، في ظل التنافس والعداء بين تلمسان وجارتيها الشرقية والغربية، إضافة إلى التنافس الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والمشرق. ويمكن أن يكون ذلك شبه اضطرار لتوفير مناطق أكثر أمناً وبضائع نفيسة، وما تبع ذلك من الحمولة الثقافية التي ساهمت في نقل الإسلام إلى هذه المناطق البعيدة.

ويمكننا القول بأن العلاقة العامة بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي كانت تتحكم فيها إلى حد بعيد العلاقات التجارية، ومن خلالها نسجت العلاقات

---

[1] ابن فضل الله العمري: م.س، ج4، ص 55.

السياسية والثقافية، وعندما تراجعت العلاقات التجارية، تأثرت بذلك العلاقات السياسية والثقافية. فهل تكون التجارة سبيلا في عصرنا لعلاقات متنوعة ووطيدة مع إفريقيا؟.

المصادر والمراجع:

المخطوطات:

-مجهول: رسالة في تصفية المعادن، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11053.

المصادر والمراجع المطبوعة:

-الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1422ه/ 2002م.

-برنشفيك روبير: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1408ه/ 1988م.

-ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1417ه/ 1997م.

-بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، أطروحة دكتوراه في التاريخ، بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، السنة الجامعية 1426-1427ه/ 2005-2006م.

-التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1409ه/ 1989م.

-التنسي: نظم الدر والعقيان، في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ/ 1985م.ص 130.

-حاج أحمد نور الدين: المنهج الدعوي للإمام المغيلي، رسالة ماجستير في الشريعة الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 1431-1432هـ/ 2010-2011م.

-ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1414هـ/ 1993م.

-حساني مختار: تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

-حسن حافظي علوي: سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ 14م، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، 1418ه/ 1997م.

-الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1403ه/ 1983م.

-حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1407ه/ 1987م.

-حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الرغاية، الجزائر، 1402هـ/ 1982م.

-الحميري: الروض الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2 1400ه/ 1980م.

-ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1411ه/ 1992.

-ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الجانجي القاهرة، ط1، 1394ه/ 1974م.

ابن الخطيب لسان الدين: أعمال الأعمال، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424ه/ 2003م.

-ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421ه/ 2001م. ج6، ص 269.

-ابن خلدون يحيى أبو زكرياء: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ/ 1980م.

-الدرجيني أحمد بن سعيد: كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة، 1394هـ/ 1974م.

-ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972.

-زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ/ 1981م.

-زنيبر محمد: دراسات في الحضارة اللامية وثقافة الغرب الإسلامي، مطبعة الأمنية، بالرباط، ط1، 1431هـ/ 2010م.

-السعدي عبد الرحمن: تاريخ السودان، مكتبة أمريكا والشرق، باريس،1401ه/ 1981م.

-سعيدان عمر: علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن 8هـ/ 14م، ثالة، الأبيار، الجزائر، 1432ه/ 2011 م.

-ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 1389هـ/ 1970م.

-السلاوي الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1418ه/ 1997م.

-ابن سماك العاملي: الحلل الموشية في الاخبار المراكشية، تحقيق بوباية عبد القادر، دار الكتب العلمية، ط1، 1431ه/ 2010م.

-السيوطي عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1387ه/ 1967م.

-الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، ط1، 1418ه/ 1998م.

-الطهار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1404هـ/ 1984م، ص 129.

-ابن عذارى المراكشي: البيان قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1406ه/ 1985م.

-العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 1421ه/ 2000م.

-ابن فضل الله العمري مسالك الممالك، تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411ه/ 2010م.

-فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

-القزويني زكرياء بن محمد:آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، 1418هـ/ 1998م.

-القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/ 1922م، ج5، ص 273.

-مجهول: كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد بلا تا.

-محمد حسن: التجار والحرفيون بإفريقية في بين القرنين السادس والتاسع الهجري/ 12-15 م، ضمن كتاب"المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي، تنسيق الهادي التيمومي، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1420هـ/ 1999م.

-محمد صالح ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية، نشر جمعية التراث(القرارة غرداية) ط2، ص1419هـ/ 1999م.

-محمد الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب،، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ط2، 1428هـ/ 2008م.

-ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيقيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401ه/ 1981م.

ابن مرزوق الخطيب: المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1429ه/ 2008م.

-مرمول كربخال: افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المملكة المغربية، 1408هـ/ 1988م.

-ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المليتي: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1406هـ/ 1986م.

-المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1989م.

-المقريزي: ثلاث رسائل، النقود الإسلامية، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، 1298هـ.

-الميلي امبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، بلا تا.

- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397ه/ 1977م.

-Ch.E.Dufourcq Une route de l'or au moyen age de l'Afrique noire, Magorque par Sigilmassa et Tlemcen, Bulletin d'information historique, Faculté des lettres d'Alger' N° 3 Janvier , 1966 , p : 19.

الانعكاس الثقافي والإسلامي
على تعلم اللغة العربية وآدابها في السودان الغربي

د. رياض بن الشيخ الحسين
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدارس لتاريخ المجتمعات والقبائل الصحراوية في منطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء سيجد هذه الصحراء الشاسعة بأنهارها ووديانها وكثبان رملها وسلاسل جبالها وغاباتها ومدنها وقراها وآثارها الرائعة جميعا والمخيفة أحيانا، يكون آباؤن وأجدادنا قد شقوا أديمها في حركة دؤوبة لا تعرف التوقف من خلال رحلاتهم الحضارية المتوالية، المتولدة عن حبهم وتطلعهم لنسج علاقاتهم المتعددة الجوانب مع الأقوام الأخرى، ولعل أهم هذه الوشائج وشيجة التجارة التي كانت مبعثا للاطلاع على أحوال هؤلاء الأقوام، واطلاعهم هم أيضا على حضارتنا ومستجدات حياتنا اليومية، فكان أن نتج عن ذلك علاقة تأثير وتأثر أفضت بدورها لتقوية الروابط الاجتماعية، بين أبناء هذه الأقاليم واختلطت دماؤهم بواسطة المصاهرة، وبفضل روابط أخرى أدت إلى تشكيل بنية اجتماعية جديدة بدم وروح جديدين، كان لانتشار الاسلام واللغة العربية فعل جلي فيها، ومن نتائج التأثير أيضا تشييد المنارات العلمية التي عملت على نشر العلوم العربية كاللغة والفلك والمنطق والحساب والطب وغيرها من العلوم الحضارية، حيث لم يبخل ناقلوها بإشعاعها على كافة الأماكن فيها، فسهروا على نقل تراثهم المكتوب والشفوي إليها، ولاسيما ما تعلق بعلوم الدين والأدب بنوعيه الشعر والنثر، والعادات والتقاليد الاجتماعية التي انتقلت بين المصرين، وسنقصر بحثنا على العلاقة الثقافية القائمة على أساس التواصل اللغوي والديني والعلمي والاجتماعي والأدبي، وأهم العلماء المجسدين لهذه الأنواع من العلاقات،

وينصب حديثنا في البداية على تعلم اللغات بين أهل المنطقة وهي الوسيلة التي تمد حبال التواصل بين هؤلاء الأقوام بالإضافة إلى علوم اللغة العربية وآدابها الأخرى التي سيتأتى الحديث عنها لاحقا.

تعليم اللغة: توجد بإفريقيا جنوب الصحراء بيوت تعرف بالعلم يرتادها طلبة العلم فينهلون منها الكثير من العلوم الشرعية والفكرية، فكان لهذه الدور والمؤسسات والمعاهد موقف بارز في إثراء الحركة الفكرية، لأن التعليم بهذه البلاد كان يحظى بمكانة متميزة في قلوب الحكام والمحكومين، لأنه السبيل إلى نيلهم أرقى المناصب والمكانات في المجتمع، التي تتيح للمتعلم الحصول على قدر ملموس من التحصيل العلمي والمعرفي، فكان السلم التعليمي يمر بثلاث مراحل هي:

مرحلة التعليم الأولي والذي يكون مقره الكتاتيب، ثم مرحلة التعليم المتوسط حيث تتم في مدارس خاصة به أو بالمساجد، يلتحق بها المتعلم بعدما يكمل تعليمه الأول بنجاح، وبعد أن يتعرض طالب العلم إلى صقل معرفته وتزويد مخزونه الثقافي ببعض الدروس المتعلقة باللغة والعلوم الشرعية الأخرى، التي ينهلها بتوجيه من أساتذته وشيوخه من المؤلفات التي يختارونها له، فتبدأ بسيطة ثم تتدرج نحو ما هو أعمق ومفصلا أكثر، ينتقل بعدها المتعلم إلى المرحلة الموالية من التعليم وهي مرحلة التعليم المتقدم أو العالي، وقد عرفت منطقة "تمبكت" خاصة باحتضانها لهذا النوع من التعليم من خلال جامعتها المشهورة "سنكرى" التي كانت مقرا للتدريس بالإضافة إلى بعض المساجد والزوايا التي تهتم بالتعليم المتقدم كما يشير إلى ذلك المؤرخ عبد الرحمن السعدي في كتابه تاريخ السودان[1]، وقد كانت مناهج التدريس فيها متوسعة ومعمقة تخضع لها أمهات المؤلفات الكبيرة مثل: كتب القاضي عياض وكتب المغيلي

---

[1] انظر: هادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في ما وراء الصحراء من نهاية القرن 15 إلى بداية القرن 18 جامعة القاهرة . مصر، ط2، 2001، ص167.

وموطأ مالك والخزرجية وتحفة الحكام ومقدمة التاجوري... وغيرها[1]، ويلاحظ ان تزويد هذه المؤسسات العلمية بالكتاب والخبرة العلمية كان على عاتق الجوامع العربية المعروفة (الأزهر، الزيتونة، القرويين، ليبيا) حيث كانت تربطها علاقات ثقافية وعلمية متينة ومن بين هذه العلوم التي كانت تعطى لطلبة العلم بهذه المراحل، العلوم اللغوية والأدبية، حيث تعد من بين العلوم المهمة التي كانت تدرس بإفريقيا جنوب الصحراء، اعتمادا على مصادرها الأساسية ونفائس المؤلفات التي كانت شائعة في كل الجوامع والمعاهد العربية والإسلامية آنذاك، كمؤلف: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك، وهو كتاب يختص بعلم النحو، ومؤلف شرح الكافية الشافية في علم النحو، وكتاب الأصول لابن السراج والخزرجية وتلخيص المفتاح وشرحه في البلاغة[2]، وإذا اعتبرنا اللغة كما يعرفها العلامة اللغوي أحمد بن عمر أقيت المتوفي سنة 965 هـ – 1538 م هي: "ضبط المفردات" على ما تكلمت به العرب وشرح معانيها[3] وأن موضوع هذا العلم يختص بالكلمات العربية فيبحث في حركاتها الإعرابية والبنائية، ويكون القصد منه فهم كلام العرب وكذا إدراك معاني ومقاصد كتاب الله تعالى وسنة رسوله وتفسير الأحكام الفقهية، فإن هذا العلم الآلي الذي حرص علماء المغرب والعارفون به، على نقله إلى مناطق إفريقيا جنوب الصحراء والذي يطلق عليه إسم "علم النحو" فإنه يعد أحد العلوم الأساسية التي كانت تتربع على رأس الحركة العلمية في الحياة الإفريقية جنوب الصحراء، من أجل أن يستقيم لسان أهلها ويتدرب على النطق بالعربية، ويحترز من الوقوع في الخطأ اللساني، ناهيك عن الخطأ الذي قد يصيب المعتقد، وقد برع في تدريس علم النحو عدد من العلماء أهمهم العالم أحمد بن

---

[1] المرجع نفسه: ص167.

[2] المرجع نفسه: ص184.

[3] المرجع السابق: ص184.

عمر أقيت، الذي كان يجمع مع النحو علوما أخرى برع فيها كالفقه والعروض، حيث كان يشهد له فيها بالتحصيل والإحاطة[1]، وبالإضافة إلى هذا العالم الجليل عالم آخر لا يقل اقتدارا عن سابقه هو أبو عبد الله أحمد بابا بن الأمين المختار التنبكتي (1014هـ - 1595 م) صاحب مؤلف المنح الحميد في شرح الفريد، وغير هذين العالمين علماء أجلاء آخرون اهتموا بعلم النحو من أبناء إفريقيا جنوب الصحراء، وهذا ما نؤكد به مكانة علم النحو التي لم تكن تبتعد عن مكانة الدين، وقد كانت لهؤلاء العلماء تآليف انتشرت قراءتها والاستعانة بها في معرفة علم النحو ككتاب: " حاشية القيومية على شرح الآجرومية " لصاحبه العالم الشهير محمد بن عمر أقيت، هذا المؤلف الذي لازال مخطوطا يحفظ بالخزانة الحسنية بالمغرب[2]، وكتاب المنح الحميد في شرح الفريد وهو مختص بالنحو يقوم بشرح ألفية السيوطي[3]، هذه الجهود العلمية التي بذلت، تعطي دلالة واضحة على اهتمام علماء منطقة إفريقيا جنوب الصحراء بالعلوم العربية عامة والنحو بصفة خاصة لأنهم يعتبرونه ويصنفونه في أعلى العلوم مرتبة وأغزرها منفعة وهم في ذلك يكرسون الأهمية ذاتها التي كان علم النحو يحظى بها في بلاد المشرق والمغرب العربيين فيكشف بذلك عن علاقة التأثير والتأثر التي كانت سائدة بين المنطقتين، والتي نتج عنها من بين ما نتج، الانتشار الواسع للغة العربية على حساب اللهجات المحلية التي شهدت انحسارا ملموسا بعد ما كانت منتشرة في تلك المنطقة[4]، وخوفا من انتشار اللحن في النطق باللغة العربية بذل علماء النحو جهودا كبيرة في استنباط القواعد من مصادرها حفاظا على هذه اللغة، وصار تعلم النحو وتحصيله

---

[1] المرجع نفسه: ص185.

[2] المرجعنفسه: ص184.

[3] المرجع نفسه: ص185.

[4] مطير سعد غيث أحمد: الثقافة العربية الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال 10 و11 هـ - 16 و17 م،دارالكتب الوطنية، ليبيا، ص 115.

ضرورة لمعرفة سنن العربية وأساليب العرب في الكلام ليتوصل من يريد الأخذ بنصوصها لاسيما نصي القرآن والحديث نطقا وكتابة وتأويلا الى إدراك المعاني والمقاصد على حقيقتها من غير العرب الذين قصدهم ابن جني في تعريفه لعلم النحو بقوله: " هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها في الفصاحة فينطق بها..."[1]، فيشير بذلك الى أن علم النحو مستمد من كلام العرب ويمكنه أن يشمل الذين لا ينتمون لهذا الكلام عندما يصبحون قادرين على أدائه ويعرفون مسالك الفصاحة فيه، لكن سر مكانة علم النحو لا تنحصر في وظيفته الآلية كمعرفة المنصوب والمرفوع والمجرور والمبني والمعرب من كلام العرب فقط بل تتعدى ذلك الى التحكم في دلالاته ومقاصده، وعلى هذا النحو انتحى عدد من أعلام إفريقيا جنوب الصحراء، وكان لهم في ذلك باع طويل، فإرادة امتلاك اللغة كانت تمثل بالنسبة لأئمتهم مطلبا واجب التحقيق، لأن الغاية الشريفة العليا هي إدراك مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية دون إعمال أي حساب للبعد العرقي لأن كتاب الله تعالى "...هو أصل الدين والدنيا المعتمد ومعرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وإقامة معانيها على الحقيقة "[2]، وقد سبق اتفاق علماء النحو على أن علم النحو وضع لتفادي اللحن الذي عد في مرتبة اقتراف الذنب عند القدماء وقد قال ابن فارس في هذا الشأن:" وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه ويقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب"[3]، وقد كان لتأثير الدرس النحوي المغربي أثر واضح على

---

[1] ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت. لبنان، جزء 1،ص 34.

[2] ابوالقاسم الزجاجي: الايضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دارالنفائس، بيروت. لبنان، ط5/ 1986، ص96.

[3] ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت. لبنان، 1964،ص66.

متعلمي ومثقفي إفريقيا جنوب الصحراء "السودان الغربي" وقد بلغ هذا التأثير مستوىً مهيمناً على كل المستويات بدليل المدارس التي كانت منتشرة في المنطقة والتي كانت تدرس الفقه المالكي الى جانب تدريس الكتب النحوية التي كانت متداولة بالمغرب وكادت هذه المدارس ان تكون وجها من وجوه المدارس المعروفة في فاس والقيروان وتلمسان، ولعل السبب الأساسي في ذلك يرجع الى أن انتشار الإسلام في هذه الربوع تم عن طريق المغرب، فكان محملا بكل آثاره وطبوعه المغربية وأهمها الثقافة والتقاليد[1]، بالإضافة الى أن طريقة التأليف المنتهجة من طرف علماء منطقة السودان الغربي كانت هي ذاتها الطريقة المتبعة بالمغرب بدليل مؤلفات الفقيه السوداني الغربي المعروف أحمد بابا التنبكتي التي بلغت ما يزيد عن الثلاثين مخطوطا كتبت بطريقة مغربية بحتة مقتفية منهجا مغربيا واحدا[2]، ويجب أن نشير إلى أن هذا الإنتعاش العلمي والثقافي الذي شهدته هذه المنطقة قد نجم عن ظاهرة إلتقاء ثقافتين نتج عنهما إحتكاك بالعناصر الثقافية الفاعلة لدى الجانبين ، إنبثق عنه بروز لمجموعة من الظواهر العلمية والحضارية، ومن بينها إنتشار اللغة العربية إلى جانب اللغات المحلية، التي عرفت إنتشارا واسعا هي أيضا وتعلقا متميزا لأهلها بها مثل الهوسا والفلانية والسنغي والماندنجية والسوننكي، وهي لغات تمزج بين العربية واللغات الإفريقية القديمة وكانت تكتب بالخط العربي[3] ولعل أهم عامل يذكر في هذا الصدد، إنما هو إنشار الإسلام الذي يعني بداهة إنتشار اللغة العربية معه فهي لغة دستور هذا الدين الوافد، الذي أستقبل بحفاوة وتفاعل شديدين وقد إنجر عن ذلك إثراء اللغة العربية

---

[1] حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دارالنهضة العربية القاهرة. مصر، 1963، ص 266.

[2] المرجعنفسه: ص 267.

[3] محي الدين صابر : العرب وإفريقيا. العلاقات الثقافية، المكتبة العصرية، بيروت. لبنان، 1987، ص 12، 13.

للغات المحلية، التي ذكرناها أضف إلى ذلك الإقبال الشغوف للأهالي المسلمين الجدد على تعلم اللغة العربية وتقديسها، لأنها من قداسة الدين الجديد وهي لغة الشعائر التعبدية وعلى رأسها تعلم القرآن وتلاوته ، ويمكن أن نشير لعوامل أخرى نراها من الأهمية بمكان هي وجود العنصر العربي في تلك المنطقة قبل مجيء الفتح نتيجة الاختلاط والمصاهرة بسبب هجرة القبائل العربية ومن بينها: بنوهلال وبنو معقل وبنو سليم بداية من القرن الخامس الهجري،[1] وكذا الإفتاء بإجماع الأئمة بحرمة قراءة القرآنوممارسة الشعائر، ومنها الصلاة خاصة بغير اللغة العربية، مما شجع المسلمين المتحمسين والمتعطشين على تعلم لغة القرآن الكريم من ناحية، والتضلع في معرفة تفاصيلها وسائر علومها من ناحية ثانية وتعلم العلوم الشرعية الإسلامية بها من ناحية ثالثة ، وقد انتبه الباحث إبراهيم علي طرخان إلى وضعية اللغة العربية في مجتمعات غرب إفريقيا، وأهتم بالحظوة التي حظيت بها في قلوب الأفراد فشبهها بوضع اللغة اللاتينية في أوربا العصر الوسيط، فأشار إلى ذلك بقوله: (ويشبه هذا ماكان عليه وضع اللغة اللاتينية عند الملوك الجرمان والشماليين وشعوبهم، فهم يتكلمون بلغاتهم الأصلية الفرنجية والنورمانية أوالواندالية أو القوطية أو السكسونية بجانب اللغة اللاتينية، لكن العبادة والحكومة والثقافة والآداب والقوانين فباللغة اللاتينية)[2] ، أما عن الخط الذي تكتب به اللغة العربية في هذه المنطقة فقد تأثر بالخط المغربي أو ما يعرف بالهندسة المغربية وبنقوشها[3]، من حيث إعجام الحروف وترتيبها ، وما يعرف

---

[1] إبراهيم علي طرخان: الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة. مصر، 1969، ص71.

[2] مسعود عمر محمد علي: تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين 8و10الهجريين، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس. ليبيا، ط1/ 2003، ص178.

[3] المرجع نفسه: ص،ن.

أيضا بالخط الكوفي، وفي مابسطنا من القول دلالات واضحة على أثر اللغة العربية في اللغات المحلية ببلاد السودان الغربي.

الشعر والشعراء:

أما في مجال الأدب ونعني به الشعر والنثر معا فإن منطقة السودان الغربي عرفت تطورا ملموسا وانتعاشا فيه هوأيضا، وآية ذلك بروز الأعمال الأدبية التي تدل على نموالذائقة الأدبية المتجلية في قرضالشعر، الذي يقتفي فيه المبدعون أثر الشعراء العرب القدامى، فقد تناولوا أغراضهم الشائعة كالمدح والرثاء، كما أبرزوا معاناتهم النفسية ووصفوا لواعج الشوق والحنين التي يبثونها في قصائدهم تجاه من يحبون، ويمكن أن نذكر من هؤلاء الشعراء المبدعين العالم الفقيه والإمام الوافد محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان محل إعجاب وتأثر واقتفاء شعراء المنطقة، حيث جمع بالإضافة لبعض المحاسن العلمية نظم الشعر، حيث كتب العديد من القصائد التي حظيت بإقبال القراء وإعجاب المؤرخين والعلماء ولاسيما قصيدته الميميةالتي امتدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وينحوفيها نحو "بردةالبوصيري" حيث تناص مع وزنها ورويها وجاء في هذه القصيدة قوله:

بشـــــراك يا قلب هـذا سيـــد الأمم ... وهـذه حـضـرة المختـــار في الحـرم
وهذه الـروضـــــة الغـراء ظـاهرة ... وهـذه الـقـبـة الخضـــراء كالعلـم
وقبـــر المصطـفى الهـادي وحـجرته ... وصـحـبـه وبـــقـــيـع دائـــر بهم
فطب وغب عن هموم كـــــنت تحملـه ... وسل تنل لك كل ما ترجـــوه من كـــرم
يا سيدي يا رسول الله خـــذ بيـــدي ... فالعبـــد ضيـف وضيـف الله لم يضـــم[1]

---

[1] مطير سعد غيث أحمد: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين10 و11هـ/ 16 و17 م،ص253، هذه القصيدة نقلت من مخطوط يوجد بمركز أحمد بابا بتنبوكت. مالي وتحتوي على 26 بيتا.

وكذلك الشاعر "مود سالم سوار التكروري" الذي يسلك النهج نفسه في نظم الشعر، حيث تعلق به مسحة من نظم الأوراد المتأثرة بالثقافة التقليدية والعلوم الشرعية، وتعلوه نبرة خطابية لأن الشاعر يؤثر في نص قصيدته الموضوع أكثر من اهتمامه بالشكل ومن قصائده، نص في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني وفيه قوله:

سعد لنا قطب الوجود إمامنـــا ... هو شيخنا وحبيبنا الجيـــــلاني
سعـــد لنا وبـــه استجرنا وكلنا ... وبـه تـوســلـــت إلى الرحمـــن
هو غوثنا ومغيثنا في هولنا ... ويـعـودنا حـــقا إلى الرحمـــن[1]

ومن شعر المدح أيضا قصيدة للشاعر الفقيه "المختار بن أبداه" يمدح فيها الشيخ أحمد بابا التنبكتي يقول في مطلعها:

حبي من آل الشيخ بابا أحمـــد ... الـطيـب المحـبـــب المحـمـد
الـفـاضـــل المـبـارك المـــودد ... الـطـاهـــر الحلاحل الزبـرجـــد[2]

ومن الشعراء الفقهاء الذين عرفوا بفن المديح في المنطقة أيضا الشيخ محمد بابا بن محمد الأمين حبيب الله الذي نظم قصيدة ترحيبية بشيخه الإمام محمد يحيى الولاتي بعد عودته من رحلة قضاها ببلاد المغرب، يرحب فيها بقدومه ويفتخر بعلوكعبه وشموخ هامه، وحقلموطنه تنبكت ولقومه بأن يتباهوابرجوعه وبمقامه بينهم، ومنها هذه الأبيات:

نيل الرياح أوالنجاح الســـرمـــدي ... والسير في النهج القويم الســـرمدي
فازت به تـنـبكـت دون مغـــارب ... ومـــشـــارق من كل قـطـر أبعـــد
فـتـباشـرت أيـامـــها وتـشـامخت ... أعـــلامـها مـن راسـيـات ركـد

---

[1] المرجعنفسه: ص.ن.

[2] المرجع نفسه: ص254 ،نقلت من مخطوط بمكتبة عادل الأرواني، تنبوكت. ماليفي 31 بيتا.

لكن الشاعر الفقيه محمد بابا بن محمد الأمين لم يقصر نظمه للشعر على المدح فقط بل تناول غرض الرثاء أيضا، كما يشير إلى ذلك عبد الرحمن السعدي، حيث نظم قصيدتين في رثاء الفقيهين محمد محمود بغيغ وعبد الرحمن،[2] كما اشتهر من بين هؤلاء الشعراء الفقيه محمد بن أحمد بن محمود بغيغ، الذي نظم قصيدة ذائعة الصيت عرفت بـ"أم البراهين"،[3] لخص فيها علم التوحيد على غرار الأنظام التي ألفت في علوم أخرى كالنحو والفقه مثل ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك في علم النحو.

وذكر المؤرخون بأن للفقيه أحمد بابا التنبكتي آثارا شعرية أخرى، تتناول موضوعات أخرى أظهر فيها الشيخ الفقيه نبوغا وإجادة في كتابة الشعر الذاتي أوالوجداني، الذي يبرز فيه حالته الشعورية والنفسية ويعبر عن تجربته الذاتية، وهوالنوع الذي يتجلى فيه الصدق الفني أكثر، ومنها تصويره لحنينه وشوقه إلى الأوطان والأهل وإلى المرابع العزيزة بتنبكت التي تجسدها مقطوعته المتكونة من ثمانية أبيات يقول فيها:

---

[1] محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد، بغداد. العراق، 1982، ص 545.

[2] عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، طبعة هوداس، أنجي. فرنسا، 1964، ص 218.

[3] المصدر نفسه، ص 109.

أيا قاصداكاغو فعج نحو بلدتي ... وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق ... إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي
وعندي أقارب هناك أعزة ... على السادة الألفة دفنت بغربة
أبي زيدهم شيخ الفضائل والهدى ... وصنو ابن عمي وأقرب أسرتي
وسيفي وسيف البين سل لفقدهم ... علي وهل الموت ركني وعدتي
ولا ننسيعبدالله ذا المجد والندى ... فقد مد حزني فقد قوتي وعشرتي
وشيان بيتي سارعو عسن أخيرهم ... إلى ملك الأملاك في وقت غربتي
فوا أسفا منهم وحزني عليهم ... فيا رب فارحمهم بواسع رحمتي[1]

ويجدر أن ننوه بالجهود التي بذلها هؤلاء المشايخ في جمع عيون الشعر العربي، وحفظه وتعليمه لطلبة العلم من أجل أن يستقيم عودهم في تعلم اللغة العربية من مضانها، والشعر القديم واحد منها، بالإضافة إلى العامل البيئي الذي كان مساهما هوأيضا في تشكيل القرائح وصقل المواهب ومن ذلك جمال الطبيعة الذي كان مصدر إلهامهم ومؤجج مشاعرهم سواء في حلهم أوفي ترحالهم فتعلق الشاعر بتنبكت مثلا كان دافعا قويا إلى وجده وهوبين أحضانها، وحنينه وغربته وهوبعيد عنها، فهي تشبه في جمالها وروعتها ما شبه به الحريري البصرة بالعراق في مقاماته[2] وهذا ما يجعلنا نؤكد على اهتمام العلماء وطلبتهم باللغة العربية وبعلومها وفنونها، وهوما يعني لنا بأن الثقافة العربية والإسلامية وجدت مكانتها ونالت حظوتها في قلوب أهل إفريقيا جنوب الصحراء خلال فترة الدراسة، وإن اهتمامهم بها حقق لها الاستمرارية والازدهار في المنطقة، بفضل حبهم وتمسكهم بالدين الإسلامي الذي فتح لهم أبوابا

---

[1] محمد الصغير الإفراني: نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص173.

[2] محمود بن الحاج المتوكل كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس، باريس. فرنسا، 1964، ص178، 179.

جديدة لتفجير الطاقات وإشباع نهم القراءة والمعرفة وانبعاث وهج الابداع، ومما يشهد به لأقوام إفريقيا جنوب الصحراء، أنه متى وفد عالم من الشرق أوالغرب بكتاب جديد فإذا بطلبة العلم يتزاحمون عليه وينكبون على قراءته ويحفلون بذلك العالم ولا يفارقونه حتى يستفيدون من علمه الغزير[1]، ولذلك صارت اللغة العربية هي لغة الصفوة من العلماء الراسخين فيتكلمون بها ويؤلفون في كل العلوم وسائر الفنون المختلفة ومنها اللغة والأدب وقد بلغ من تفوق طلبة العلم في اللغة العربية وتذوقهم لها ولعذوبة ألفاظها وجزالتها إن اتجهوا إلى قرض الشعر العربي -كما أسلفنا القول- وبرعوا فيه لأنهم كانوا يحاولون مضارعة القصيدة العربية القديمة والجاهلية على وجه الخصوص ويحاكون الشعراء الفحول أمثال امرئ القيس والنابغة وطرفة وزهير وغيرهم.

الشعر الهوساويالعربي:

من خلال التأثير والتفاعل الثقافي العربي والاسلامي في سكان ولايات الهوسة ومدى تأثر ثقافتهم ولغتهم خاصة بهذا المد الإشعاعي،فإن الأثر سينعكس بداهة وسيبرز جليا على كل ماله علاقة باللغة وبعلومها ومن ذلك الشعر،حيث اتجه شعراء الهوسة الموهوبون والذواقون إلى قرض الشعر العربي لأنهم كانوا يتميزون بالتفوق في التعاطي مع الدرس اللغوي وحسن التذوق للغة العربية ولعذوبة ألفاظها وجزالة تعابيرها وأساليبها

ومن هؤلاء الشعراء الهوساويين نذكرمحمد البخاري بن الشيخ عثمان الهوساوي نسبة إلى "الهوسا" الذي نعثر له على قصيدة يمدح فيها عمه الشيخ عبد الله فودي نقتطف منها مقطعا يقول فيه:

أصحوت أم هاجت هواك منـــازل عفى معـــــارفها البلى وهواطـــل

---

[1] أحمد محمد كني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة. مصر، ط ١، ١٩٨٧، ص ٤٣.

"بثـــلاثامـــى أوبـــجن" فمـا بهـا ... إلا نعـــام ترتـــعي وفـــراعـــل

دار عهدت بها الحلول وكل مـــــن ... أهوى معي والعـــيش غض باجـــل

ولـــقد وقفـــت برسمـــها مستنجدا ... عـــــن أهلـــها والدمع مني سائـــل

للـــه درك هـــل وقـــوفـــك نـافع ... برسمـــــها أم هل لدمـــــعك طائل

ولـــــقد حبـــاك الدهر شيخا ما له ... في العلم في تلك الأراضي مســـــائل

أعـــني إمام العصـــر عبـــد الله من ... ساد الشيوخ النبل مـــذ هـــو شابل[1]

يلاحظ القارئ المتفحص للمقطع أن الشاعر يجاري القصيدة العربية القديمة سواء من حيث الشكل ونقصد نظامها القائم على وحدة البيت وتعدد موضوعاتها وكذا التقيد بمقدمة القصيدة، وهي هنا المقدمة الطللية، فيخيل للمتلقي وكأنه يقرأ أويستمع لشاعر من شعراء الرعيل الأول، وهوما نشهده أيضا عند شاعر هوساوي آخ هو: "محمد بللو"، الذي يقتفي الأثر الفني والموضوعي القديم، حيث نلمح هذا متجليا في قصيدته التي يمدح فيها أحد كبار مشايخ الطريقة القادرية "السيد المختار بن أحمد الكنتي" قائلا:

ألمـــم بســـاحـــة أحـــبـابي وسـادتي ... وأشف الحنان بهم من كل إعـتـات

وأربع عليها وشم من مزن عارضـــها ... بـــــرق الوصـــــال وإدراك المسرات

وأنـــف الهمـــوم وأشجـــانا تكابـــرها ... فقد تخلصـت مـــــن وعث المعـــرات

وباكر الكـــرع من صهـــباء صافيـــة ... بكف لا تـرزق الأخـــلاق لـــــوات

وأحطـط رحالك في أمـــن وفي دعـــة ... فأنـــت آمـــن ســـرب وافـــر الـذات

فلا عليـــك فقـــد جاورت ذا كـــرم ... يمحي المجـــاور من عات وفحشات[2]

---

[1] صبري إبراهيم علي سلامة: أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا، مجلة الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعةالقاهرة، مصر،العدد2000/ 22،ص31.

[2] أحمد سعيد غلادينت: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من 1804م إلى 1966م، دار المعارف، القاهرة. مصر، 1982، ص132،133.

ومن موضوع الرثاء أيضا ما نجده عند الشاعر عبد القادر مصطفى الذي يرثي محمد سنبو إثر وفاته وهو أحد رجالات "الهوسا" العلماء قائلا:

فيا للمسلمين لبيك خالي	محمد سمبو ذو علم وخال
فقد حمدت شمائله قديما	بصدق الزهد في جاه ومال
وحسن توكل وعكوف قلب	على باب المهيمن ذي الجلال
فما الدنيا لديه بذات قدر	ولم تخطر له أبدا ببال
وقد مالت إليه فصائد عنها	صدود الحر عن رذل الفعال[1]

كما نظم الشاعر محمد بللو مرثية هو أيضا يرثي فيها أخته وإخوانه الذين غادروا الدنيا إلى الآخرة حيث يقول:

أيا دهر لنا عات	تولى بالرزيات
فرفقا بالقوارير	قلوب كالبليات
وهت أعشارها طرا	لوقع من ملمات
ولا درت لياليا	تبكينا بعبرات
وقد ذهبت بآباء	وإخوة وأخوات[2]

وقد كان لنساء المنطقة أيضا باع في نظم الشعر بعد أن استقام عودهن من خلال الإكثار من قراءة وحفظ أشعار العرب السابقين، ومنهن أسماء بنت الشيخ عثمان التي ترثي صديقتها عائشة بنت عمر زوجة محمد بللو في إحدى قصائدها فتشتكي إلى الله ما ألم بها من هموم وأحزان لفقد عزيزة على قلبها وتمتدح فيها خصالها الحميدة وسمو مقامها في تقوى الله والعلم والورع ومما قالته، هذه الأبيات:

إلى الله أشكو من صنوف البلابل	ثوت في سويداء لقلبي داخل

---

[1] صبري إبراهيم علي سلامة: أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا، ص 34.

[2] أحمد سعيد غلادينث: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من 1804م إلى 1966م: ص 140.

لفقد شيوخ قادة الدين سادة وأخواتنا أخدان خير ونائل
وذكرني موت الحبيبة من مضى من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم من الحافظات الغيب ذات النوافل
فزادت همومي وانفرادي ووحشتي وسكب دموع فوق خدي هواطل
لفقدي لعائشة الكريمة يا لها من امرأة حازت صنوف الفضائل[1]

ومن المواضيع التي أثارها شعراء الهوسة وكانت متناسبة مع واقعهم المعيش حديثهم عن الجهاد، وهو موضوع الساعة نظرا للاضطرابات الشديدة التي تسود المنطقة وكثرة الحروب التي تدور رحاها من حين إلى آخر ما بين القبائل والممالك، فكانت هذه الأحداث فضاء رحبا للشعراء يسهمون فيه بتحريك الضمائر وإثارة المشاعر والوجدان وإيقاظ الهمم، ويسلك الشعراء في ذكرهم لهذا الموضوع مسلك القصيدة القديمة ولاسيما في استعمال الألفاظ والوسائل المستقاة من البيئة العربية الصحراوية القديمة التي كان يستعملها العربي البدوي في خوض حروبه ومواقع صيده مثل الرمح والسيف والسهم والفأس والدرع والكنانة وغيرها، وهي كلمات لصيقة بالواقع السابق ومعبرة عن شظف وصعوبة الحياة الصحراوية القديمة حيث يتجلى هذا في قول أحدهم مثلا:

نصرا لنا برماحنا وسهامنا وسيوفنا ببطونهم والراس
أولادهم ونساؤهم مسبية ورجالهم مقتولة بالفاس[2]

وفي حديث الشعراء الهوساويين عن الجهاد والتحريض على القيام به يستحضرون المعاني الدينية الإسلامية والحقائق الشرعية، فقتلى الهوسا إنما هم شهداء

---

[1] المرجع السابق، ص142.

[2] صبري إبراهيم علي سلامة: أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا، ص37.

وجزاهم عند الله هو جنات الخلد، وفي ذلك دلالة على الإيمان العميق بالله والتعلق والعمل بشريعته، فنجد هذه الدلالات بارزة في قصيدة أنشأها الشاعر محمد بللو نقتطف منها الأبيات الآتية:

فمـــن قتلوه بلغـــوه مـــراده	فطوبى له واللطف والمسك أذفرا
فـروح وريحان وجـــنة خلـده	وورث حورا مـــن نساء حـرائرا
ومن حلل الفردوس يكن جميعها	حريرا وديباجا وذهبـا مهـصـرا
فسبحان من جعل العـدو ذريعة	إلى درك مأمول لنـا قـد تعسـرا[1]

وقد كتب شعراء الهوسة أيضا في الغزل وفي الشكوى والألم والحنين معبرين عن ميولاتهم وأحاسيسهم الذاتية، فتنطلق في هذا النوع ذواتهم من قيود التصنع والقوالب الجاهزة والنبرة الخطابية، ويبرز فيه الدفق الشعري الذي يصدر عن الدفقة الشعورية، وعن تجربة ومعاناة ذاتية تعكس صدقا في العاطفة وجمالية في التعبير، رغم ما يعتوره من نقص في متانة الأسلوب وقوة السبك، ولعل ذلك يرجع إلى نوعية الثقافة والمناهج التي يتلقون بها العلوم العربية.

ولعله من الجدير بالإشارة أن التأثير العربي والإسلامي في المجال الأدبي والشعري خصوصا، لم يقتصر على نظم الشعر باللغة العربية، بل تعدى ذلك التأثير إلى صياغة الشعر باللغة الهوساوية، ولكنه يظهر تأثره بالشعر العربي من حيث بناء القصيدة، أي الإلتزام بالأوزان والبحور الخليلية، وتشير المصادر إلى أن أول ظهور للشعر الهوساوي المقلد للأوزان العربية كان في بداية القرن السابع الميلادي، على يد الشاعر "عبد الله ثقة" المقيم بمدينة "كانو" أين كان يدرس الفقه والتصوف لطلبة

[1] أحمد سعيد غلادينث: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من 1804م إلى 1966م، ص146.

العلم هناك[1]، وقد اشتهر الشعر الهوساوي من حيث النظم بخمسة أنواع هي: الشعري الأحادي أواليتيم –الشعر الثنائي أوالتوأم– الشعر الثلاثي – الشعر التربيعي– الشعر التخميسي[2]، ولكل نمط من هذه الأنماط نظامه الخاص، الذي لا يبتعد كثيرا عن النظام الذي عرفه الشعر العربي، من حيث الشكل والمضمون أيضا – كما سبقت الإشارة إلى ذلك– فيظهر من خلال ذلك كله تأثر الشعراء باللغة العربية ومجاراة الشعراء العرب، وفي ذلك ما يعكس التعالق والتواصل المستمر الذي يربط منطقة جنوب الصحراء بالمشرق والمغرب، وشدة الترابط ووثوق الصلة بين هذه الجهات التي كان يتوجها الإيمان وإرادة التوحد على أساس وحدة الدين.

ويشير المؤرخون إلى أن أهل السودان الغربي، أخذوا من الأدب العربي بالكيفية ذاتها التي نهل بها العرب أدبهم في ذلك الزمان، فتفوقوا فيه وبلغ بهم الشأن حد التأليف والابداع، ومؤلفاتهم تضاهي مؤلفات وإنتاج المسلمين العرب أنفسهم من حيث البعد المعرفي وكذا الفني والجمالي[3].

حركة التأليف وابرز العلماء :شهدت منطقة السودان الغربي انتشارا لحركة التأليف تبعا لنمو وانتشار الثقافة العربية التي برع فيها السودانيون، وصاروا يضاهون علماء المغرب والمشرق، وصاروا مراجع في العلم والكتابة معا وقد تتلمذ على أيدي

---

[1] مصطفى حجازي السيد حجازي: الأثر الإسلامي في شعر الهوسا – دراسة لمطلع القصيدة، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد1961/ 69، القاهرة. مصر،ص125.

[2] أنظرصبري إبراهيم علي سلامة: أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا، ص41.

[3] الشيخ الأمين محمد عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، دارالمجمع العلمي بجدة، السعودية، 1979،ص179.

[4] مسعود عمر محمد علي: تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين 8–10هـ/ 14–16م، منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية،طرابلس – ليبيا، ص 139.

بعضهم تلامذة الجوامع العربية الكبرى التي كانت مصدر اشعاع لمنطقة السودان فب يوم ما ومن أبرز هؤلاء العلماء بالإضافة الى العالم الامام والفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي فتح باب العلم والتبحر فيه في بلاد السودان وكان أول من أخضع المعارف الاسلامية هناك للنقاش والتحليل والحوار ودفع الحكام والعلماء إلى الكتاب والسنةن فكانوا خير متلق ومستوعب لذلك، من هؤلاء :

1-صالح بن أند عمر المعروف بالشيخ العمري :

عرف بوجاهته وعلمه وفضله وتزهده فيما في أيدي الناس ، والدفاع عن المساكين والحظ بالفقراء والمعدومين، ومما أثر عنه مكانته عمد العامة والخاصة على حد سواء حيث كان يشفع للضعفاء عند السلاطين فلا ترد شفاعته، كما قام بتأليف كتاب خصصه لشرح مختصر خليل[2].

2-محمود بن عمر بن محمد أقيت بن علي بن يحيى الصنهاجي(868هـ-955هـ):

اشتهر بعلمه وصلاحه داخل السودان وخارجها، واشتغل بالتدريس وبالقضاء في تنبكت وهو لايتجاوز الخامسة والثلاثين وشهد له أهل العلم والفضل في المنطقة مثل أحمد بابا التنبكتي بأنه((علم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلامدافع))[1] ويتجلى اهتمامه أكثر بتدريس النحو وعلوم الغة العربية ثم الفقه ولاسيما مختصر خليل الذي ألف فيه كتابا من جزئين[2] يشرحه ويعلق عليه .

---

[1] أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس، ليبيا 1989، ص607 نقلا عن مسعود عمر محمد علي : تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي ، ص 140.

[2] المرجع نفسه، ص .

3- الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت(توفي في942ه) :

ينتمي إلى أسرة تشتغل بالعلم وهو أكبر الإخوة الثلاثة المعروفين بالعلم والفقه في تنبكت، لكنه كان يجمع بين الفقه والنحو وعلم العروض، متميزا بقوة حفظه وبراعة استيعابه مما أهله إلى نسخ عدد من الكتب والدواوين وجمع كثيرا من الفوائد والتعاليق[1] التي أفاد منها أهل العلم وطلبته، كما تولى القضاء في تنبكت وولاته، واجتمع ببعض العلماء في رحلاته كالسيوطي وخالد الازهري[2].

4- محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري(930- 1002هـ) :

اشتهر باسم "بيغيغ"، واشتغل بالتعليم دراسة وتدريسا، وعرف بطول النفس فيهما وبالتؤدة والحرص على تلقين طلبته، عبر اختلاف مستوياتهم أنواع العلوم الميسرة مثل اللغة العربية والفقه والحديث والبيان والمنطق ، مسخرا كل اوقاته لذلك، ولانعجب في هذا إذا أدركنا أن الرجل ارتحل من أجل طلب العلم فلم يكتف بالتحصيل على أيدي علماء السودان بل انتقل إلى مصر، فتتلمذ على يد أشهر علمائها أمثال : محمد البكري والتاجوري والناصر اللقاني، وقد ذكره أحمد بابا التنبكتي في مؤلفه "نيل الابتهاج" قائلا: ((لقد صار في آخر الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له... وهو شيخي وأستاذي ماانتفعت بأحد قدر انتفاعي به وبكتبه))[3]، وقد جمع بين التدريس والتأليف، فله مؤلفات في الفقه والحديث والفتوى جمعها له أحمد بابا في مجموع نتصل[4].

5- أبو عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين حبيب الله (توفي عام 1014هـ) :

---

[1] أبوعبد الله الطالب محمد بن أبي بكر البرتلي:فتح الشكور في أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمدحجي، دارالغرب الاسلامي، بيروت، لبنان 1981،ص27.

[2] المصدر نفسه، ص.ن.

[3] مسعود عمر محمد علي : تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، ص 146.

[4] عبدالرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص 46.

بدأ إرواء نهمه العلمي والمعرفي في تنبكت في شتى الفنون والعلوم، وتتلمذ على يد العديد من العلماء الذين أجازوه واعترفوا له بالتفوق، حتى صار عالما علامة كما وصفه عبد الرحمن السعدي، وكان خير المدرس والمجتهد[1]، لكن أهم ما ميزه في حياته العلمية، هو اشتغاله بالتأليف في علوم الدين واللغة والنحو كشرحه لألفية السيوطي وتكملة البجائي على اللامية وشرح شواهد الخزرجي، وكتب في الأدب مقامات ينحو فيها نحو مقامات الحريري وفي الشعر كتب قصائد على نمط القصيدة العربية القديمة .

6- أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أقيت الصنهاجي التنبكتي(963-1036هـ) :

ينتمي لبني أقيت وهم أسرة مشهورة بالعلم والمعرفة، توارثوه أبا عن جد بتنبكت، لذلك سار هو على هذا النهج، فتربى منذ صغره متعلقا بالعلم وتحصيل ماتيسر من علوم في المنطقة على يد كبار المشايخ بداية بأبيه أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت، وبعد تمرسه في الطلب وتضلعه، حاز على عدة إجازات علمية داخل وخارج تنبكت، واشتغل بالتدريس والافتاء وكذا التأليف فأسهم اسهاما جليا في إثراء الخزانة العربية بكتبه ورسائله العلمية وشروحه وفتاويه، التي بلغت في مجموعها تسعا وثلاثين كتابا ورسالة [2] كان أغلبها في الفقه واللغة والحديث النبوي .

ونأتي في خلاصة هذه المداخلة لنؤكد بأن الحركة العلمية والأدبية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء- السودان الغربي، كانت متميزة في ازدهارها وعلو مستواها، حيث كانت في ذلك العصر تواكب وتضاهي ماكان سائدا من معارف في بلاد المشرق والمغرب العربيين، وهو ما يعكس علاقة التأثير والتأثر بين المنطقتين العربية والسودانية والتعايش المنسجم، الذي كانت تحكمه التعاليم والأعراف الدينية الاسلامية.

---

[1] المصدر نفسه، ص 217.

[2] أبو عبدالله الضليب محمد البرتلي: فتح الشكور في أعيان علماء التكرور، ص 35:36.

السودان الغربي من الوثنية إلى الإسلام:
دور التجار والدعاة بين النص التاريخي والتحليل السوسيولوجي.

د. حسين بوبيدي.
جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري.

مقدمة:

يقصد بلفظ السودان بلاد السود، أي الجنس الأسود، والنسبة هنا بالسمة والجهة، وذلك في مقابلة البيضان، واعتمادا على سبب التسمية هذا، فإن اللفظ يشمل جميع المناطق التي تلي الصحراء الكبرى شمال خط الاستواء في الجنوب، وتصل إلى المحيط الأطلسي غربا والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا[1]، وهو ما نجده في بعض المصادر، لكن أغلبها ضيق مفهوم اللفظ عندما حدد تسميات أخرى لمجالات محددة، هي الحبشة والنوبة وأرض الزنج والبجة، وكلها تقع إلى الشرق في محاذاة البحر الأحمر والحدود الجنوبية لمصر[2]، وهو ما سمي بالسودان الشرقي.

---

[1]- مجهول (ت بعد 372هـ/ 982م)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح : يوسف الهادي، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، 1999، ص:147.

Joseph Cuoq **Recueil des sources arabes concernant L'Afrique occidentale du VIII e au XVI siècle (Bilad Al Sudán) Traduction et notes**, paris, édition du centre national de la recherché scientifique,1975, p :6.

[2]- في تحديد مجالات الحبشة والنوبة والبجة وأرض الزنج انظر : الإصطخري، **مسالك الممالك**، ليدن، مطبعة بريل، 1927، ص:11، ابن حوقل أبوالقاسم النصيبي (ت بعد 367هـ/ 978م)، **صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1996، ص:25. مجهول، حدود العالم، ص:144. الزهري محمد بن أبي بكر الأندلسي (ق6هـ/ 12م): **كتاب الجغرافية**، تح: محمد حاج صادق، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، دت، ص:123،122،119.

وبالتالي صار لفظ بلاد السودان مخصوصا بالسودان الغربي والأوسط أحيانا، وغالبا بالسودان الغربي فقط، فهو عند ابن حوقل: "حد له ينتهي إلى البحر المحيط وحد له إلى برية بينه وبين بلاد المغرب، وحد له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحد له ينتهي إلى البرية التي لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر"[1]، وهو نفس المجال الذي وظف فيه البكري هذا المصطلح في مسالكه، وبذلك تم تجاوز الخلط الذي وقع في بعض المصادر المتقدمة[2].

وبعد استقراء أقوال المؤرخين والجغرافيين العرب، نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب من الواقع، وهو أن المنطقة المقصودة بلفظ السودان الغربي تطل غربا وجنوبا على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالا، ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد عند الحدود الغربية لمملكة برنو[3]، وباختصار تشمل المنطقة اليوم ما يعرف

---

[1]- ابن حوقل، صورة الأرض، ص:24-25.

[2]- ومن ذلك التداخل بين لفظي الحبشة والسودان عند ابن خرداذبة وابن الفقيه، انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك ، ليدن ، مطبعة بريل، 1889. ابن الفقيه أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذاني (ت بعد 290هـ/ 902م)، مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1884م، ص:80.

[3]- انظر: المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ، 1999، ص:19.

ومملكة بورنو هي إحدى أهم ممالك السودان الأوسط، كانت مجالاتها حول بحيرة تشاد، وامتدت في بعض فترات قوتها لتشمل مجالات واسعة من الصحراء الواقعة إلى الشمال من البحيرة.

بحوض السنغال وغمبيا وفولتا العليا وحوض النيجر الأوسط[1]، أي أنها محصورة تقريبا بين دائرتي عرض 11-17 شمالا[2].

شهد هذا المجال في الفترة الوسيطة الممتدة بين القرنين 2-10 هـ/ 8-16م تغيرات عميقة نقلته من صورة المجال المنقسم اجتماعيا إلى مجموعات سكانية مختلفة، ودينيا إلى معتقدات متشرذمة رغم بعض عناصرها المشتركة، نحو مجتمع جديد يندمج تدريجيا ضمن مفهوم الأمة/ الدولة تحت راية الإسلام وعقيدته، لكن هذا التغير كان بصورة تدريجية بطيئة لم تحدث قطيعة مباشرة مع التصورات والقيم القديمة، وبسبب طبيعة التحول السلمي فإن عملية التحول ارتبطت بعوامل متعددة، اختلفت من مجموعة سكانية وأخرى، وبين مجال جغرافي وآخر، ولكنها بصفة عامة تستند إلى أدوار فاعلة للتجار المغاربة والدعاة السنة والإباضية، ثم لفعالية السودانيين ذاتهم عندما تحولوا من عنصر متقبل للمؤثرات الثقافية المغربية إلى عنصر ناقل لهذه المؤثرات بين أهله وجيرانه والمجموعات التي تربطها معه مصالح اقتصادية وتحالفات سياسية، ومن أجل تحليل دور التجارة والدعاة المغاربة تعمل هذه الورقة على تفكيك النصوص الواردة في المسألة لإيضاحها وتجلية آلية عمل التجارة والدعوة في تحقيق التحول من الوثنية للإسلام في السودان الغربي.

---

[1]- عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1989، ص:11.

[2] - Raymond Mauny, **Les siècles obscurs de l'Afrique Noire**, Paris, Fayard, 1970, p : 142.

1 – الدين والطقوس الدينية في السودان الغربي قبل اعتناق الإسلام.

وفرت لنا المصادر العربية[1] والدراسات الأثرية والمحفوظ من الرواية السودانية الشفوية مادة هامة حول الوضع الديني في السودان الغربي قبل اعتناق الإسلام، وليس المقصود بها قبل اعتناق الإسلام هنا الفصل بين مرحلتين متمايزتين في تاريخ السودان الغربي، إحداهما وثنية والأخرى إسلامية، ذلك أن المسار المتدرج للإسلام في هذه المنطقة جعله يتعايش في نفس الفترة مع المعتقدات القديمة، وبالتالي فإن الحديث في هذا المبحث هو عن المعتقدات الموجودة في السودان الغربي قبل وأثناء التغلغل الإسلامي، لتصبح القَبْلِيَّةُ هنا تعني الحالة الدينية وليس الإطار الزمني.

أ – معبودات السودان الغربي.

يجد المتأمل في المصادر العربية إجماعا على وثنية السودانيين، وأن الحالة الدينية عندهم لا تختلف عن مسارات المجتمعات البدائية، بتضمنها عنصر التأليه والقربان المرتبط إما بحاجات اقتصادية أو سياسية أو أمنية، أو المؤسّسة على أساطير قديمة لا تكاد تخرج في جوهرها عن السياقات السابقة، ذلك أن الدين في جوهره في هذه المرحلة من تطور البشرية الفكري ليس سوى انعكاسا لحالات النفس المرتبطة بالرجاء والخوف، مع أن هذه الدوافع الحقيقية لتأليه شيء ما تضمر مع مرور الوقت ولا يبقى سوى الشكل الظاهري للتدين.

يلخص البكري في مسالكه ديانة السودان بالقول أن سائرهم كانوا على المجوسية وعبادة الدكاكير،[2] ولم تكن هذه الآلهة آلهة شخصية بل كانت آلهة قرية أو مدينة أو مملكة، لها مكان مخصوص تمارس فيه طقوس العبادة، ومن ذلك ما ذكره

---

[1] – قام جوزيف كيوك بدراسة مختصرة للوضع الديني ببلاد السودان من خلال المصادر العربية في:
Joseph Cuoq, **Recueil des sources arabes**, p: 13-16.

[2] – البكري أبو عبد الله عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـ/ 1094م)، **المسالك والممالك**، تح : جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ج2، ص:360. والدّكور هو الصنم.

المؤلف ذاته أن مدينة ملك غانة من حولها قباب وغابات وشعراء، يسكن فيها سحرتهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس فلا يمكن أحد دخولها ومعرفة ما فيها[1]، وهذا يدل على الدور الهام للدين ورجاله في هرم السلطة،كما أفاد عن أهل مملكة الدمدم، أن في بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه[2]، وعند ابن سعيد أن أهل لملم لهم مدينة كالقرية وفيها بيت دكاكيرهم[3]، وكانت معابدهم عبارة عن أبنية بسيطة مربعة ذات أبراج أسطوانية مزينة بالصور[4]، ومن ثم فإن الآلهة تمثل عند السودانيين جزءا أساسيا من عناصر الوحدة الاثنية أو القبلية، ذلك أن هذه المجتمعات تعتبر الصنم الضامن لرزق القبيلة وانتصاراتها.

---

[1]- المصدر نفسه ، ج2، ص:363.

[2]- المصدر نفسه ،ج2، ص:372. وانظر أيضا: المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت 345هـ/ 956م): **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، تح: عبد الله الضاوي، بيروت، دار الأندلس، 1986.ص:87-88.

[3]- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت685هـ/ 1286م): **كتاب الجغرافيا**، تح:إسماعيل العربي، بيروت، منشورات المكتب التجاري ،1970، ص:91. وينبغي الإشارة هنا إلى أننا نوظف معلومات ابن سعيد المغربي عن بلاد السودان باعتبارها تخص القرن 6هـ/ 12م لأنه ينقل عن ابن فاطمة الذي زار المنطقة في هذه المرحلة، أنظر: كراتشوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** ، تر:صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2008،ص:386-387.

[4]- عطية مخزوم الفيتوري ، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة إنتشار الإسلام)**، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 1998، ص:241.

وتحيلنا المادة المصدرية إلى عبادة سكان السودان الغربي لبعض الحيوانات، فقد ذكر البكري أن أهل زافقو يعبدون حية كالثعبان العظيم[1]، وتذكر المرويات الشفوية أن إله مملكة غانة كان ثعبانا يدعى: "واغادو بيدا"، يعتقدون أنه يقوم بحراسة المدينة وحماية كنوزها وثرواتها[2]، كما ذكر السعدي أن أهل كوكو قبل إسلامهم كان يتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت فيجتمعون إليه ويعبدونه[3]، ويظهر هذا التقديس للحيوانات في وجود قبائل سودانية تحمل اسم حيوان، سواء كانت تعبده أو يتعلق بأسطورة عن قدرة جد القبيلة على الفرار من سطوته[4]، ويعتقد بعض الباحثين أن عبادة الحيوان مرجعه اعتقاد السودان أن أرواح أسلافهم تسكن أنواعا معينة منها[5]، ويمكن أن يكون السبب ما قدمناه من الهيبة منها كما هو الحال في عبادة الثعبان، أو الاستفادة منها كما هو الحال في عبادة الحوت، الذي يبدو أنه يوحي بنمط حياة اقتصادية تعتمد أساسا على الصيد.

---

[1]- البكري، **المسالك والممالك**، ج2، ص:361.

[2]- جوان جوزيف، **الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء**، تر: مختارالسويفي، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1984، ص:57.

[3]- السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر(ت:بعد1066هـ/ 1655م)، تاريخ السودان، تح،: هوداس، باريس، Libraire d Amerique et d' orient، 1981، ص:4. ويمكننا أن نستشف من أسطورة الإله الثعبان واغادوبيدا إلى أنه لا يعدو أن يكون أحد أقدم مؤسسي المملكة، لأن الأسطورة تذكر أنه كان مع المهاجرين الذين أسسوا مدينة غانة أنظر:

Guy Nicolas, **"L enracinement ethnique de L islam au sud du Sahara Etudecompareé"**, Cahiers détudes africaines,Vol.18,71(1978), p: 358-359.

[4] - Maurice DeLafosse, **Les civilizations Nègro- Africaines**, Paris, Librairie Stock,1925,p:61.

[5]- مادهو بانيكار، **الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا**، تر: أحمد فؤاد بلبع، ط2، الهيئة العامة لشؤون المطابع الإميرية، 1997، ص:69.

وقد عبد السودانيون النبات أيضا، إذ ذكرت المصادر عن بعضهم أن لهم شجرة عظيمة يعملون لها عيدا في كل سنة يجتمعون عندها، ويلعبون حولها حتى يسقط عليهم ورقها فيتبركون به[1]، وربما كان في إشارة الوزان إلى أن النار والشمس كانا من معبوداتهم القديمة[2]، ما يحيل إلى معنى المجوسية التي ذكرت جل المصادر أنهم يدينون بها[3].

كما عرف السودان أيضا عبادة الملوك، كأهل زغاوة الذين كانوا يعتقدون أنهم هم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون[4]، ومع أن المصادر لا تبرز هذا الجانب بجلاء، ولكن بعض الطقوس والممارسات التي كان يلتزم بها السودانيون في مجالس ملوكهم يمكن أن تدعم وجود هذه العبادة، أو على الأقل نوع من التقديس لهم.

بعد وفاة الملك يدخل في إطار الأسلاف الذين كانوا يعبدون أيضا، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الوثنية في إفريقيا الغربية، فالأجداد بالنسبة إلى السودانيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وقد ربّوا خلفهم على تلك الأعراف والتقاليد، وموتهم لا يعني سوى انتقال أرواحهم إلى عالم آخر تراقب من خلاله تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عما سنّوه من أعراف أوقعوا به

---

[1]- المسعودي، أخبار الزمان، ص:87-88.

[2]- الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/ 1550م)، **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1983، ج2، ص:160.

[3]- حول استعمال المصادر العربية لمصطلح المجوسية ومقصدها منها انظر:

Joseph Cuoq, **Recueil des sources arabes**, p:13.

[4]- المهلبي الحسن بن أحمد (ت380هـ/ 990م): **الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك**، تح: تيسير خلف، دمشق دار التكوين، 2006، ص: 54-55. وانظر عن تقديس الملوك في السودان الغربي والممارسات المرتبطة بذلك في البلاط : مادهو بابيكار، **الوثنية والاسلام**، ص:465-466.

الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم، ووجهوه من حيث لا يعلم إلى الخير والنجاح في الحياة[1].

اجتهد الباحثون المعاصرون في التعرف على الأساس المشترك بين المعبودات السودانية، وانتهى بعضهم إلى تبني مصطلح" الأرواحية" أو "الإحيائية"، والذي يعني اعتقاد السودانيين بوجود أرواح لكل الأشياء، وأن مصدر قوة الطبيعة هو إله أعلى وأعظم من كل الآلهة الأخرى يهبها قوته، مع عدم الاتفاق على صفاته ولا على الطريقة التي يتم التقرب إليه بها، وما إذا كانت عبادته إلزامية أم اختيارية، حيث كان بعضهم يرى أن الإله الأعظم غير مهتم بما يدور على الأرض، وأنه ترك العلاقة بين البشر والإله لأرواح أقل أهمية منه، فهي بالنسبة لهم أحق وأولى بالعبادة منه مادامت إرادته كذلك[2]، كما قرر هؤلاء أن الإحيائية تعتقد بوجود حياة بعد الموت، وتواصل بين الأسلاف وخلفهم، وتأثيرهم فيهم ومساعدتهم، ومن ثم كانت عبادة الأسلاف هي الواسطة بين الناس والقوة الخفية التي تدير الكون[3].

وهذا الاجتهاد رغم أهميته وتبنيه من مختلف الدارسين، لا يستند في الحقيقة إلى أدلة كافية، ذلك أن الدراسات التي انتهت إليه بنت بحثها أساسا على الجماعات الوثنية الحديثة والمعاصرة، وهو إسقاط فيه الكثير من اللبس، لأنه ينطلق من قاعدة

---

[1]- الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/ 8م إلى نهاية القرن 5هـ/ 11م، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2007، ص:473.

[2]- حسن إبراهيم حسن، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1984، ص:53. وانظر: الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، ص:470.

[3]- عبد الرحمن عمر الماحي، "مساهمة قوافل الصحراءفي نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 4(1993)، ص:226-227.

المجتمعات الثابتة في إفريقيا، والتي لم تتأثر بأي فكر طوال العصر الوسيط وإلى غاية وصول الاستعمار الأوروبي إليها، ومن ثم إهمال التأثير الإسلامي وتطعيم عقائده للكثير من المعتقدات المحلية، وقد يكون منها عقيدة التوحيد، وهو ما يبدو أدعى للقبول من الاعتقاد بتوصل الأفارقة إلى الفكرة التوحيدية المجردة، في الوقت الذي قدمت لنا المصادر صورة دينية تقليدية لم تبلغ بعد مرحلة التجريد والتوحيد[1]، وهو ما يسمح بالقول بأن الأرواحية بالصورة التي تقدمها الكثير من الدراسات الإفريقية هي إحدى نتائج التفاعل بين الإسلام والعقائد الوثنية لدى المجتمعات التي رفضت التحول إلى الدين الحنيف، وليست استمرارا للديانة السودانية التقليدية.

ب- الطقوس الدينية الوثنية.

مما يدل على تقديس الملوك ما ذكره البكري عن طقوس دفن الملوك في غانة، حيث قال بأنه "إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندق حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد"[2]، وهذا يحيل إلى الاعتقاد بالحياة بعد الموت أو على الأقل بالنسبة إلى الملوك.

---

[1]- أنظر مناقشة ذلك في : أحمد الشكري ، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230م-1430م)**، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2015، ص:88-91.

[2]- البكري، المسالك والممالك،ج2، ص:364.

ومن الطقوس الدينية التقليدية في السودان الغربي الطقس المتعلق بالاستسقاء، فقد كانوا إذا أرادوا ذلك جمعوا عظاما فكوموها كالتل، ثم أضرموا بها النار وداروا حولها ورفعوا أيديهم إلى السماء[1]، أو قدموا القرابين كالبقر والغنم والحمير بل والناس كذلك[2]؟!، كما كانوا يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور[3]، وكان من سكان زافقو ممن يعبدون الحية، من يتخذ على باب مغارتها عريشا يسكنه تعظيما لها، ويعلقون نفيس الثياب وحرّ المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب[4].

وقد ورد ما يدل على أهمية طبقة السحرة في السلم الاجتماعي للسودان الغربي، فهم في مملكة غانة الوثنية المكلفون بإقامة طقوس دينهم والإشراف على الدكاكير[5]، كما يدل طرد ملك ملل لهم بعد إسلامه[6] بأنهم يعتبرون القائمين على شؤون العبادات والطقوس، ولا شك بأنهم كانوا يستفيدون من ذلك وجاهة وسلطة على من دونهم من الناس، خاصة وأنهم كانوا يمدون العامة بما يزعمون أنه ينفعهم أو يضرهم من التمائم والطلاسم الوثنية[7].

---

[1]- المسعودي، أخبار الزمان، ص:87-88.

[2]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص:366-367. الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670هـ/ 1271م)، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، قسنطينة، مطبعة البعث، 1974، ج2، ص:517-518.

[3]- البكري، المسالك والممالك، ج2، ص:364.

[4]- المصدر نفسه، ج2، ص:361.

[5]- المصدر نفسه، ج2، ص:363.

[6]- المصدر نفسه، ج2، ص:366-367.

[7]- حسن إبراهيم حسن، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص:53.

كل ما سبق يعطي صورة على مدى حضور الدين في المجتمع السوداني، وهذه الطقوس والمعبودات رغم بدائيتها تعتبر معيارا صالحا لمدى التقدم الفكري لبعض المدن السودانية، مقارنة بغيرها التي وصف أهلها في المصادر العربية بكونهم"متوحشون لا يدينون بدين ولا يكادون يفقهون قولا، وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس"[1]، وهذه الأوصاف غالبا ما تطلق على الأماكن الجنوبية، ولكنها مقارنة بتطور الفكر الديني الوثني تعد جد بدائية، فكيف انتقل السودانيون من هذه التصورات البدائية إلى رحاب الإسلام وعقيدته التوحيدية؟

2- الإسلام في بلاد السودان: رصد الطرق والفاعلين:

أ- حاجة النص التاريخي إلى التحليل السوسيولوجي:

لم تكن المسالك الصحراوية التي تربط المغرب الإسلامي بالسودان الغربي مجرد معبر للتجار وممر ناقل للسلع، بل كان لهذا النشاط دور أكبر من ذلك، يتمثل بالإسهام المباشر في مختلف التحولات الثقافية في المجال السوداني، حيث تعتبر القوافل التجارية مدخل الإسلام إلى هذه المناطق، والتعامل بين تجار الشمال والجنوب هو الطريق الذي تم من خلاله تدريجيا دمج منطقة واسعة في فلك الحضارة الإسلامية، وضمها إلى "دار الإسلام"، ولكن عملية البذر التي قامت بها القوافل كانت في حاجة إلى بيئة حاضنة ومستعدة للتحول من دور المستقبل إلى دور المرسل، وهو ما سمح للدعوة الإسلامية بالانتشار والتمدد تدريجيا في المنطقة، وهذا ما يكشف التفاعل بين تجار بلاد المغرب وبين السودانيين السباقين للإسلام في تحويل الإنسان السوداني من التصورات الفكرية التقليدية إلى المنظومة الفكرية الإسلامية.

---

[1]- الدمشقي شمس الدين محمد بن أبي طالب (ت727هـ/ 1326م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر: M.A.F.Mehern، ليبزج، 1923، ص: 241.

إن هذا المدخل يبدو من المسلمات اليوم في ظل تكراره من مختلف الدراسات التي عملت على مقاربة مسألة الأسلمة ببلاد السودان الغربي من خلال النصوص المصدرية العربية[1]، لكنه محتاج دائما إلى تخريجات تعمل على تجديد دراسته من خلال أدوات جديدة، وهو ما يبدو قضية ملحة لأن الاقتصار على نفس القراءات أصبح لا يقدم إجابة كافية على مختلف المشكلات البحثية العالقة، التي تتعلق بما أغفلته المصادر رغم أهميته الكبيرة في إبراز مسار التحولات الثقافية في إفريقيا جنوب الصحراء.

إن الإلحاح على ضرورة الانفتاح على أدوات أخرى لمقاربة المسألة محل البحث، يجب أن لا يلغي أهمية النصوص المصدرية العربية، بل يهدف إلى ملء الفراغات التي تتركها، ومن أهم هذه الأدوات استثمار الدراسات الأنثروبولوجية

---

[1]- من أهم الدراسات التي قاربت المسألة من هذه الناحية ، والتي تعد رائدة وحاضرة في أغلب الذين كتبوا بعده، كتاب جوزيف كيوك/ J. Cuoq:

تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية من الأصول إلى نهاية ق:16.

Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origins á la Fin du XVIe Siécle, Paris, Librairie orientaliste paul Genthner,1984 .

وانظر عن أهمية أعمال كيوك: أحمد الشكري، "**انخراط الكنيسة الكاثوليكية في حقل الدراسات الإفريقية – التجربة التاريخية للأب جوزيف كيوك-**"، دورية كان التاريخية 26(ديسمبر 2014)، ص: 123-130.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن الحديث عن النصوص إنما يتعلق بالإشارات الواردة فيها حول دور التجار والدعاة في هذه التحولات، أما الروايات التي تتحدث عن وصول الفتوحات الإسلامية عهد عقبة بن نافع وعبيد الله بن الحبحاب إلى ما وراء الصحراء، فإنها لا تصمد أمام النقد التاريخي، خاصة أنها إما أن تكون قاصدة بالسودان مجالات صنهاجة الصحراء، أو أنها لا تعدو أن تكون روايات شفوية متأخرة ذات صبغة أسطورية، لا يمكن التسليم بها والبناء عليها، مع التسليم بأهميتها في الدراسات ذات البعد الأنثروبولوجي.

الإجتماعية التي تعمل على دراسة طبيعة العلاقات والبنى الاجتماعية، سواء داخل الأسر أو بين العائلات والقبائل المختلفة، والأدوار التي تختص بها مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، كما أن التحليل السوسيولوجي المنطلق من وعي كبير بالبنى العميقة لمجتمع محدد يمكنه أن يرشدنا إلى الطريقة التي يحدث بها التقبل أو الرفض للأفكار المختلفة، ويبرز لنا مستوى التأثير الذي تمارسه بعض الفئات على الفئات الأخرى، وملاحظة طبيعة العلاقة بين المجتمع و"الآخر" المخالف في الانتماء السلالاتي أو المعتقد الديني، والدواعي التي تحدث الفروق في الانفتاح على هذا "الآخر"، إضافة إلى تدخل خلفيات الصراع الداخلي والحرص على التفوق السياسي والاقتصادي على خيارات مختلف التشكيلات الاجتماعية، دون نسيان الأهمية الكبيرة للجوار في المثاقفة، وتأثير الغلبة الحضارية والعسكرية في ترويج المعتقد الديني والتمهيد بدمج المجتمعات الضعيفة والعاجزة عن المقاومة الثقافية في فلك المنظومة الغالبة والقادرة على الإقناع، أو إعادة التشكيل حسب مدى قابلية المجموعات المختلفة للإنصهار أو الحفاظ على مستويات متعددة من الخصوصية.

إن هذا النوع من الأبحاث المتعلقة بالقارة الإفريقية لم يتخذ موقفا واحدا في التعاطي مع الحضور الإسلامي بالسودان الغربي[1]، ولكنها أحيانا لا تقارب المسألة بصورة تركيبية مع قضية التغيرات الثقافية الوسيطة، بل تعمل أساسا على الكشف عن

---

[1]- من أهم الدراسات المتعلقة بنظام العشيرة وأشكال العصبية في بعض القبائل الإفريقية يمكن الإشارة إلى :

James Boyd Christensen, **Double Descent among the Fanti**,New Haven: Human Relations Area Files, 1954.

ومن أهم الدراسات المتعلقة بمعالجة التحولات الثقافية في إفريقيا من خلال ملاحظة الفوارق بين القبائل والمجالات نجد دراسة : وليام باسكو وملفيل هيرسكوفتز، **الثقافات الإفريقية دراسات في عوامل الاستقرار والتغير**، تر: عبد الملك الناشف، بيروت، المكتبة العصرية، 1965.

البنى العميقة للمجتمع الإفريقي، والبحث عن طرق حدوث التغيرات وسبب بقاء بعض الثوابت راسخة فيه، مركزة على تحليل حالات الوفاء للتقاليد القديمة باعتبارها إصرارا على التميز ورفضا للذوبان في العادات والقيم الوافدة، وبعضها يتجاهل الأثر الذي خلفه الإسلام، بل إن بعض الدراسات حملته مسؤولية التفكك الاجتماعي من خلال ما دعته بمحاولة هدم البنى القبلية للمجتمعات الافريقية القديمة، وإحلال تراتبية جديدة في المناطق التي سكنتها الجاليات المسلمة، وتحميل المسلمين مسؤولية الصد عن مواصلة التشكل السياسي للممالك التقليدية مثل مملكة غانة، سواء عبر القضاء على القاعدة الاقتصادية الأصلية المتمثلة في النشاط الزراعي بإقحام مختلف فئات المجتمع في تجارة الذهب والرقيق[1]، أو بسبب دعوى الغزو المرابطي التي صارت من القضايا التي تحتاج إلى إعادة بحثها خاصة بعد الأبحاث الرصينة التي شككت فيه[2]، ولكن أبحاثا أخرى أشارت إلى الدور الكبير الذي قامت به المؤسسات

---

[1]- مادهو بانيكار، الوثنية والإسلام، ص: 416-417.

[2]-في سنة 1982 أصدر كل من دافيد كونراد/ David Conrad وأومفري فيشر/ Humphrey Fisher دراسة تنفي وقوع الغزو المرابطي لغانة من خلال استنطاق مختلف النصوص العربية المتعلقة بالموضوع، وبيان أنها لا تحتوي على أي دلالة تدعم وقوع هذا الحدث الذي تكرره مختلف الدراسات، بينما تتوفر فيها إشارات صريحة تنفي ذلك لم يتم اعتمادها، وأتبعا هذا العمل سنة 1983 بتتمة تؤكد هذا التوجه استنادا إلى الروايات الشفوية المحلية، لينتهي البحث في ملخصه إلى أن عملية التحول في الإسلام داخل مملكة غانة إنما كانت بطريقة سلمية عن طريق الفعالية الحضارية للتجار المسلمين، وإن كان هناك دور عسكري في التحول الذي طرأ على السلالة الحاكمة فهو سوداني وليس بربري، وفي سنة 1996 واصل فيشر/ H.Fisher الدفاع عن موقفه بعد أن انخرط باحثون آخرون في هذا النقاش التاريخي، وقدم دراسة تبرز الطريق الذي سلكته "أسطورة الغزو المرابطي لغانة" وكيف ترسخت في الكتابات الغربية. أنظر في الموضوع الدراسات التالية:

الإجتماعية والهياكل السياسية الجديدة التي أوجدها الإسلام بالسودان الغربي في فرض التفوق الثقافي، خاصة وأن التنظيم السائد في المجتمع الفلاحي الزنجي لم يتجاوز حينها مرحلة البنيات العصبية المفتقدة للتميز – حسب وجهة النظر هذه–[1]، وما ينبغي تأكيده أن استحضار الأبعاد السوسيولوجيه عند توظيف النصوص المصدرية، بالغ الأهمية في تجديد الدراسات الإفريقية، وهو لا يقل أهمية عن ملاحظة أثر العامل الاقتصادي.

إن استحضار هذه الرؤى يمكّننا من إعادة قراءة النصوص بصورة مغايرة، والخروج من حالات التعميم المستند إلى إشارات جزئية، إلى حالة التحليل المقنع القادر على تفكيك مختلف العناصر المؤثرة في مسارات التحولات الثقافية بالسودان الغربي، وإعادة تقديمها في صورة جديدة تميز بين فاعلية المؤثرات المختلفة، بحسب السياقات الزمنية والمجالات المكانية، كما يمكننا من تقديم مقاربات أخرى توحي بها

1- David Conrad and Humphrey Fisher, « **The Conquest That Never Was: Ghana and the Almoravids 1076 I: The External Arabic Sources** », History in Africa, 9 (1982), p: 21-59.

2- David Conrad and Humphrey Fisher, « **The Conquest That Never Was: Ghana and the Almoravids 1076 II. The Local Oral Sources**», History in Africa, 10 (1983), p: 53-78.

3- Pekka Masonen and Humphrey J. Fisher, « **Not Quite Venus from the Waves: The Almoravid Conquest of Ghana in the Modern Historiography of Western Africa** » , History in Africa, 23 (1996), p: 197-232.

[1]– كزافييه دو بلانهول، تاريخ أرض الإسلام الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام، تر: معاوية سعيدوني، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2008، ص: 350.

النصوص دون أن تصرح بها[1]، كقضية الدور الثقافي الكبير لقبائل صنهاجة الصحراء – خاصة مسوفة– وحواضرها، وهجرة هذه القبائل جنوبا لأسباب مختلفة، بالإضافة إلى توسع مجال بعض الممالك السودانية إلى صحارى الملثمين.

ب– تفكيك معطيات المصادر حول التواجد الاسلامي بالمدن السودانية:

يعد البكري أحسن من قدم لنا معلومات عن الإسلام ببلاد السودان في النصف الأول من القرن 5هـ/ 11م، وجاءت هذه المعلومات متنوعة في مضامينها، فبعضها يتعلق بحواضر الملوك، وأخرى بالمدن القريبة من المجال الصحراوي، وأخرى عن مدن داخلية، ولا شك في أن هذه الصورة لا تتعلق بتغيرات جذرية حدثت في القرن 5هـ/ 11م، ولكنها كانت نتيجة التفاعلات التي حدثت طيلة القرون السابقة، ويمكن أن نستشف منها أن الإسلام أصبح ظاهرة واضحة ببلاد السودان، ونضرب لذلك أمثلة من بينها ما هو سابق للبكري :

1 – **مدينة غانة حاضرة المملكة**: قال عنها البكري: "مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، وها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم (...)، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك"[2].

---

[1]– تبه جيوفاني فيكو باتيستا إلى الأوهام التي يقع فيها المؤرخون؛ ومنها ما أسماه : **وهم الاقتراب**، وهو الاعتقاد بأن الأقدمين أكثر علما منا بالنسبة للعصور القريبة العهد من عصرهم ، واعتبر منشأ هذا الوهم عائدا إلى تصور التاريخ كذاكرة الإنسان، كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا كان أكثر في الذاكرة ثباتا ووضوحا. أنظر: أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1975،ص:157.

[2]– البكري ، المسالك والممالك، ج2، ص:363.

2- **مدينة غياروا**:- التي تبعد عن مدينة غانة بعشرين يوما إلى الجنوب -، قال عنها البكري: " وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما [إلى الجنوب] وفيها من المسلمين كثير"[1].

3- **مدينة كوكو**: قال عنها المهلبي منتصف القرن 4هـ/ 10م :"ملكهم يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به (...) له مدينة على غربي النيل سكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه، ومسجد الجماعة بين المدينتين"[2]، وهي المعلومات التي أكدها البكري في قوله عن المدينة نفسها: "إذا ولي منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم مسلم ولا يولون إلا المسلمين"[3].

تبرز لنا هذه المعطيات حضور المسلمين في المدن الساحلية والداخلية، وفي حواضر الملوك والمدن الأخرى، وانتشار الإسلام لدى الملوك والعامة على حد سواء ، وكذا حجم التواجد الإسلامي الكبير في مدينة غانة، فالنص الأول يشير إلى أن المدينة كانت تضم اثنا عشر مسجدا من بينها المسجد الجامع، ولكن هذا النص لا يكشف عن طبيعة هذا التواجد، وإن كانت أغلب الدراسات قد تعاملت معه باعتباره تواجدا تجاريا، فإن هذا لا يعفينا من طرح الأسئلة التالية: هل هذا التواجد يمثل فقط مجموعات تجارية مؤقتة تتعاقب على المنطقة، أم أنها جاليات مستقرة، ثم هل هي جاليات عربية أم بربرية؟ لأن احتمال كونهم من السودانيين وارد أيضا، خاصة وأن الدراسة الأثرية التي أنجزت على المدينة كشفت أن أقدم مساجدها يعود إلى نهاية القرن 3هـ/ 9م[4].

---

[1]- المصدر نفسه ،ج2، ص:364.

[2]- المهلبي ، **الكتاب العزيزي**، ص:55.

[3]- البكري، **المسالك والممالك**،ج2، ص272-273.

[4]- Joseph Cuoq, **Histoire de L'Islamisation**, p:43.note.108.

إن القضية الواجب الانتباه إليها تتمثل في الطريقة التي تعاملت بها قبائل السوننك الغانية مع المسلمين، خاصة وأنها كانت تمثل القبيلة القوية في السودان الغربي منذ وصول المسلمين إلى المنطقة وإلى غاية هجمات قبائل الصوصو الجنوبيين، ولأن مواطن السوننك على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى فقد اختلطوا مع البيضان من صنهاجة الصحراء، ما أدى بالتدريج إلى تحول في ألوانهم نحو الحمرة، وهو ما جعل مجموعة الولوف[1] تطلق عليهم لفظ : "سيراكول" التي تعني في لغتهم الرجال الحمر[2]، وهو ما يحيل إلى أن علاقاتهم مع سكان الصحراء من الملثمين قديمة[3]، وتجاوزت التعامل إلى التزاوج، ومن خلال صنهاجة الصحراء فقد كان من اليسير عليهم فتح مدنهم أمام تجار بلاد المغرب، خاصة وأن هذه التجارة كانت توفر لهم سلعا لا يمكنهم الحصول عليها بطريقة أخرى.

إن التركيبة الإجتماعية للسوننك تفسر الدور الكبير الذي قاموا به في نشر الإسلام بين السودانيين ، فكما مثّلت صنهاجة الصحراء واسطة بربرية للسودانيين مع المسلمين في الشمال، فقد مثل السوننك واسطة سودانية للمسلمين مع مختلف المجموعات السودانية، والنص الثاني الذي يشير إلى تواجد المسلمين بمدينة غياروا على مسافة عشرين يوما جنوب مدينة غانة، لا يختلف في دلالاته عن سابقه، فنص

---

[1]- الولوف من المجموعات التي عاشت على ضفتي نهر السنغال، وينتشرون بالأخص في المنطقة الساحلية، وهم من أشد السودان سوادا. أنظر: نبيلة حسن محمد، **في تاريخ إفريقيا الإسلامية**، السويس، دار المعرفة الجامعية،2007،ص:108

[2]- حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، القاهرة ، دار الفكر العربي ،1986، ص:204.

[3]- حول مسار انفتاح قبائل صنهاجة الصحراء على الإسلام انظر: تاديوش لفيتسكي، "**أصول الإسلام في القبائل البربرية غرب الصحراء، موسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب**"، ترجمة وتعليق: حسين بوبيدي، عصور الجديدة، 24-25(2016)، ص: 26-38.

البكري قد يفهم منه أنها تتبع مملكة غانة وبالتالي-ربما- تمثل امتدادا لمجالات السوننك[1]، أو أنها خاضعة لهم لكونهم انتشروا في النطاقات السودانية المحاذية لعاصمتهم، بعدما أخضعوا الكثير من المجموعات الأخرى، ومن ثم نقل من أسلم منهم الإسلام إلى المناطق الداخلية، وسمحت علاقاتهم المميزة مع صنهاجة الصحراء - وعبر هؤلاء مع غيرهم من سكان الشمال- بوصولهم إلى هذه المناطق البعيدة.

ومن الطبيعي أن تكون المجموعات السودانية الأكثر صلة بالتجار والصحراويين المسلمين، أكثر انفعالا بتأثير الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي الأكثر تأهيلا لدخول الإسلام، وكان التجار السوننكيون هم أول وأكثر السودانيين اتصالا بجاليات التجار العرب والبربر في المدن التجارية الكبرى،كما كانوا يرافقون القوافل كأدلاء ومترجمين في مختلف المناطق السودانية، وفضلا عن ذلك كانوا يعملون لحساب كبار التجار الشماليين في المناطق التي لا يمكنهم وصولها لأسباب أمنية أو مناخية[2]، ومع أننا لا نملك أدلة مصدرية على ما نشير إليه من أدوار الوساطة والترجمة، فإن إدراكنا بعجز تجار الشمال عن إقامة علاقات مباشرة مع السودانيين باختلاف لهجاتهم بسبب مشكلة اللغة، دليل على أن المجموعات السكانية التي كانت أكثر احتكاكا بالمسلمين قد مارست هذا الدور، وفي الإشارات المتأخرة حول لسان آزير التجاري ما يؤكد هذا الرأي[3].

---

[1]- قدر الفزاري مجال مملكة غانة بـ: 1000فرسخ في 80 فرسخا. انظر: المسعودي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح:محيي الدين عبد الحميد، ط5، بيروت، دار الفكر،1973 ، ج2، ص:234. أما صاحب الاستبصار فذكر أن مساحتها شهران في مثلها، ولا شك أن هذه التقديرات مجرد تخمين. انظر: مجهول (ق: 6هـ/ 12م)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تح: سعد زغلول عبدالحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة،1986، ص: 221.

[2]- الناني ولد الحسين، **صحراء الملثمين**، ص:478.

[3]- حول لسان آزير الذي يعتبر لسانا سوننكيا بتأثير صنهاجي انظر:

وما سبق ذكره عن السوننك يقال أيضا عن السنغي، الذين كانوا في العصر الوسيط يعيشون على طول ثنية نهر النيجر خلال منطقة البحيرات ومنطقة تنبكت إلى مدينة جاو (كاو)، وقد شكلوا مملكة كوكو، وهي من أقدم الممالك السودانية، قبل أن يتغلبوا على الماندينغ ويؤسسوا مملكة صنغاي، وقد اتسعت مجالات مملكة كوكو في القرن 3هـ/ 9م ، فقد كتب اليعقوبي عنها :" مملكة الكوكو هي أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمهم أمرا، وكل الممالك يعطي لملكها الطاعة (...) ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلادهم "[1]. ويستدل على اتساع مجالها في عهد اليعقوبي الممالك التي ذكر أنها تتبع لها ، غير أن أهم شيء بالنسبة لنا هو عده مملكة صنهاجة ذاتها من الممالك التي تتبعها[2].

وإن صحت هذه المعلومة فهو يقصد القبائل الصنهاجية المستقرة قرب كوكو، وبالتحديد قبيلتي مداسة ولمطة، فمداسة التي كانت عند اليعقوبي تشغل مجالات السوس الأقصى[3]، صارت منذ القرن 5هـ/ 11م لها تواجد ملحوظ في السودان الغربي، ربما اضطرها إليه حروب القرن4هـ/ 10م بين صنهاجة وزناتة، إذ يتفق كل من البكري و الإدريسي و الحموي على أن مجال مداسة يقع بين مملكة غانة ومملكة كوكو

Charles Monteil, «**La Langue Azer D'après Les Documents Recueillis Par Th. Monod Et D. Brosset** », Contributions à l'étude du Sahara occidental, Fascicule II, n:3, éd: Théodore Monod : E. Jérémine. Ch. Monteil, Paris : Librairie Larose , 1939, p: 212-343. H. T. Norris, « **Future Prospects in Azayr Studies** », African Language Review, 9 (1970/71), p: 1-99. Claude Meillassoux, « **A propos de deux groupes azer : les Giriganke et les Maxanbinnu** », Tegdaoust III, Dakar, 525-531.

أحمد المولود ولد أيده اغلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة ووادان وتيشيت وشنقيط، الرباط، مركز الدراسات الصحراوية، 2014، ص:73-80.

[1]- اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي،ليدن، مطبعة بريل ،1883، ج1،ص:220.

[2]- المصدر نفسه ، ج2،ص:220.

[3]- البلدان، ص:150.

من بلاد السودان الغربي[1]، ولهم عدة مدن منها رأس الماء وتيرقي، وورتنيس وبوغرات ومدينة تحمل اسمهم، أما لمطة فقد أشارت بعض الدراسات إلى هجرة لهم إلى مجال مملكة أو مدينة كوكو منذ القرن 2هـ/ 8م[2]، وهذا التداخل في المجال بين مداسة ولمطة من جهة وبين بعض مناطق السودان الغربي عند الثنية الكبرى لنهر النيجر، جعلهم من الصنهاجيين الذين يمثلون معبرا هاما للمؤثرات الثقافية من المغرب الإسلامي إلى الصحراء إلى السودان الغربي، وما يفسر انتشار الاسلام بين الرعية واعتناق الملك ذاته له، وهو الاعتناق الذي أرخ له السعدي بسنة 400هـ/ 1009م[3]، بل إن البكري أشار في نص غامض إلى أن مملكة كوكو تتبع أمير المؤمنين[4]، ومع أنه لم يحدد الأمير المقصود ، هل هو العباسي أم الفاطمي، إلا أن الأرجح أن المقصود به خليفة بغداد لاستبعاد أن يطلق البكري على اللفظ على خليفة مصر الاسماعيلي لأن فيه اعترافا بشرعية دعواه الخلافة، وهو ما يرفضه السنة.

إن ما سبق ذكره يدل على أسبقية السودانيين المرتبطين بعلاقات قوية مع قبائل صنهاجة الصحراء في اعتناق الإسلام، وهو ما يدل على أن اعتبار التواجد الإسلامي الوارد في النصوص السابقة يتعلق بالجاليات التجارية فقط مما ينبغي إعادة النظر فيه، والأولى أن يقال أنها تمثل الجاليات والسودانيين المسلمين ومختلف بطون صنهاجة الصحراء الذين كانوا على علاقات مستمرة مع السودانيين، إلى الحد الذي يمكن

---

[1]- البكري ، **المسالك والممالك**، ج2، ص: 368،370. **الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تح: ر.روبيناتشي وآخرون ، بيروت مكتبة الثقافة الدينية ، دت ، ج1، ص:24 -25 . ياقوت الحموي أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/ 1228م)، **معجم البلدان**، بيروت ، دار صادر،1977، ج5، ص:370.

[2]- النائي ولد الحسين، **صحراء الملثمين**، ص:482.

[3]- السعدي، **تاريخ السودان**، ص:2-3.

[4]- البكري، **المسالك والممالك**، ج2، ص: 372-373.

اعتبار الصراعات التي كانت بين مملكتي غانة والحلف الصنهاجي ليست مجرد صراعات بين مجموعتين مختلفتين عرقيا تماما، بل الأولى اعتبارها صراعا على زعامة المجال بين مجموعتين مختلطتي الدماء بعضها ببعض، وهذا ما يسمح للصحراويين بالطمع في المجالات الجنوبية، وللسودانيين بالسعي للتوسع إلى ما هو أعلى من أودغشت شمالا.

ويمكن تأكيد هذا بإضافة التكرور إلى النقاش السابق، لأنهم كانوا من السباقين للإسلام، فقد اعتنق ملكهم وارجابي بن رابيس الاسلام منذ سنة : 431هـ/ 1039م[1]، ومما يدل على علاقاته المميزة بالملثمين تحالفه مع المرابطين عندما انشقت عنهم قبيلة جدالة[2]، التي كانت تنافسه على مجالات مملكته ، وكان ينافسها على ملحة أوليل.

وكان موطن التكرور على عهد البكري حوالي نهر السنغال (النيل عنده)، وقد اعتبرهم من السودان[3]، بينما ذهب الدمشقي إلى رأي آخر يجعلهم من البربر[4]، ولأن هذا الأخير قد كتب متأخرا عن المنطقة في وقت أصبحت فيه جزءا من مملكة مالي ، فإنه يعتقد أن في كلامه صدى للامتزاج الذي تم بين التكرور وقبيلة جدالة الصنهاجية، التي كان لا يفصلهما عهد البكري سوى مدينة صنغانة، ولكن دولافوس/M. Delafosse الذي استند إلى الكثير من المرويات الشفوية

---

[1]- ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري الأندلسي (ت456هـ/ 1063م)، **رسالة في جمل فتوح الإسلام (ضمن رسائل إبن حزم الأندلسي)**، تح : إحسان عباس، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دت، ج2، ص: 133.

[2]- البكري، المسالك والممالك،ج2:ص:355.

[3]- المصدر نفسه، ج2،ص:359-360

[4]- الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، .ص:267-268.

والدراسات الميدانية يذهب إلى أن التكرور من أصل سوداني مخلط بالدم الأبيض[1]، ولاشك أنها دماء جدالة من قبائل صنهاجة الصحراء ، بالإضافة إلى الدماء المسوفية بعد توسعات هذه القبيلة عقب قيام حركة المرابطين، وهو ما يجعل التعاطي مع السودانيين بصرف النظر عن طبيعة الصلات بينهم وبين قبائل صنهاجة الصحراء لا يساهم في فهم مسار الأسلمة بالمنطقة المدروسة.

إن مجموعات السوننك والصنغي والتكرور كانت مجموعات مفتوحة، بسبب وجود دماء البيضان من قبائل الملثمين البربرية فيها، ولذلك كانت حواضرها تضم عدة مكونات قبلية، وهو ما سمح لها باستقبال المسلمين العرب والبربر، ومن ثم ازدهار المعاملة التجارية معهم، ويمكننا أن ننتهي هنا إلى أن الحضور الإسلامي في المدن السودانية الذي أوردته المصادر كان يحيل إلى هذا المركب بين أهل المنطقة وقبائل الملثمين والجاليات العربية والأمازيغية، وهو ما سيتضح بجلاء من خلال النصوص المصدرية التي تعود إلى القرن : 8هـ/ 14م الواردة في رحلة بن بطوطة، والتي تكشف بجلاء هذا الامتزاج بين السودانيين وقبائل مسوفة، وتدعمها نصوص القرن 10هـ/ 16م التي تطلعنا عليها مؤلفات أحمد بابا التنبكتي، حيث تبين أن الكثير من الفقهاء والقضاة بالمدن والحواضر السودانية، كانوا من البيضان، وتعود أصولهم بالأخص إلى قبيلتي لمتونة ومسوفة.

ج- التاجر الداعية : بين شح النصوص وإجماع الدراسات:

لا يمكننا بأي حال من الأحوال التشكيك بالدور الكبير الذي قام به التجار المسلمون من العرب والبربر في التحولات الثقافية التي شهدها السودان الغربي في العصر الوسيط، ولكن هذا الحكم ينطلق من عدم القدرة على إعطاء تبريرات أخرى لهذه التحولات أكثر من كونه يستند إلى نصوص مصدرية مباشرة تكفينا للتدليل على

4-Maurice Delafosse, **Les noire De LAfrique**, paris, payot 1941 p,39.

ذلك، فهو بذلك اعتماد على أشكال التفاعل الاجتماعي بين مختلف الشعوب والثقافات الرائدة والمتراجعة، والأمم القوية والضعيفة.

إن الغرض الأساسي للنشاط التجاري كان تحقيق الربح من خلال جلب أهم سلع السودان وبيعها ببلاد المغرب والمشرق، أو تصديرها للأندلس وأوروبا، ولكن الاحتكاك بين التجار والسودانيين يمكنه أن يحدث عملية مثاقفة بالغة الأهمية، خاصة عندما تكون العملية التجارية مربحة للطرفين، وتوفر أجواء الأمان والتعايش مساحة من الثقة المتبادلة التي تسمح للسودانيين بتأمل شخصية المسلم ، والنظام السائد بين هؤلاء الوافدين من مناطق بعيدة، وأشكال إدارة الحياة اليومية، وشبكة العلاقات الاجتماعية التي تضبط التعاملات بينهم، وتسير مختلف شؤونهم الدينية والدنيوية.

إن الكثير من الدراسات حول موضوع انتشار الإسلام والثقافة الاسلامية بالسودان الغربي ترسم نفس الصورة تقريبا للتاجر الداعية، حيث تنطلق من أن المعاملة التجارية كانت وسيلة لبناء الثقة بين التاجر المسلم وبين السكان الوثنيين الذين يرغب في تحويلهم إلى الإسلام، وأن أخلاقه الفاضلة كانت تنفي عنه كل ما يمكن أن يتهم به من دوافع استغلالية، فإذا ما دخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بالتزامه بأداء صلاته وشعائره، وسيتمكن بفضل ما يتميز به من سمو عقلي وروحي من فرض احترامه على السكان المحليين، الذين يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في تزويدهم بما يمتلكه من المعارف والمزايا السامية، وهو ما يجعل تعرف السودانيين على الإسلام واعتناقه يتم بطريقة سلمية وسلسة[1].

وفي هذا السياق يمكن الاستدلال بالوصف بالغ الأهمية الذي قدمه ابن حوقل لتجار سجلماسة حيث قال أنهم أصحاب: "سيادة في الأفعال وحسن كمال في

---

[1]- توماس أرنولد ، **الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية** ، تر: حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة ، دار النهضة المصرية، 1971، ص:391.

الأخلاق والأعمال (...) وتقدّم في أفعال الخير شهير، وحنوّ بعض على بعض من جهة المروءة والفتوّة، وإن كانت بينهم الحنات والترات القديمة تواضعوها عند الحاجة، واطّرحوها رياسة وسماحة، وكرم سجيّة تختصّهم، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم وطول تغرّبهم عن ديارهم وتعزّبهم من أوطانهم"[1].

إن تعليل ابن حوقل لهذه الفضائل بطول التغرّب نتيجة الأسفار يؤكد الصورة الحسنة التي تمكّن المغاربة من تقديمها عن الحضارة التي ينتمون إليها، وهو محفز للسودانيين على الاقتداء بهم والثقة فيهم، وخاصة إذا شهدوا أمثال التاجر العالم تملي الوسياني الذي يرسل زكاته وصدقاته كل عام باعتبار المال مال الله، بعد أن أصبح من أثرياء التجار الإباضية بتادمكة[2]، وغيره من التجار الذين مثلوا رسل المجتمع المغربي إلى السودانيين، فتمكنوا من صبغ المجتمع السوداني بالكثير من صفات المغاربة، وقد بين سجل التنقيب الأثري في السودان الغربي ارتباط مسار انتشار الإسلام بشبكة الطرق التجارية، حيث يلاحظ توزيع القبور الإسلامية ضمن هذه المحاور وعلى طول نهر النيجر، خاصة في الفرع الأيسر منه، وعلى ضفاف رافده تيلمسي/ Tilemsi إلى الشمال من غاو[3].

لقد كان التزام التاجر المسلم بالأخلاق الفاضلة كالصدق في الحديث، والأمانة والنزاهة في المعاملة التجارية، والتواضع والسمت الحسن، ممهدا لدخول

---

[1]- صورة الأرض، ص: 96.

[2]- الشماخي أبو العباس أحمد بن أبي عثمان (ت: 928هـ- 1522م)، كتاب السير، الجزائر، دار الأبحاث، 2001، ص: 392-393.

[3] -Timothy Insoll, « **Syncretism, Time, and Identity: Islamic Archaeology in West Africa** », in: Changing Social Identity with the Spread of Islam: Archaeological Perspectives, edited by: Donald Whitcomb, Chicago: Oriental Institute, 2004, p:98.

السودانيين في الإسلام[1]، ذلك أن هذه الاستقامة الخلقية كانت تعتبر بمثابة ممارسة دعوية عملية، أقنعت السكان الأصليين بالحاجة إلى التعرف عن العقيدة التي تقف وراء بناء الفرد المسلم، وهو ما يقود في الأخير إلى التزام هذه العقيدة والتخلي عن الوثنية.

ومع ما يبدو من عقلانية هذا التصور، فإنه يقدم التجار الشماليين العابرين للصحراء باعتبارهم جميعا من أهل الفضل والخلق الحسن، ومن المهتمين بنشر رسالة الإسلام، بل ومن القادرين على تقديم نموذج للاحتذاء بالنسبة للسكان السودانيين، وهذا مما لا يمكن التسليم به دائما[2]، لكن هذا لا ينفي تأثير الصورة التي كان يظهر بها هؤلاء، ذلك أن التاجر في بلاد غريبة عنه يلتزم غالبا بالمعاملة الحسنة، والملاطفة، والسمت الحسن، ثم إن تأثير صورة المجتمع المسلم بعلاقاته الداخلية وتنظيمه الأسري واجتماعه للعبادة قد رسم في ذهنية السوداني نموذجا يسعى لتمثله ويتشرف بالانتساب به.

في هذا السياق لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي قام به التجار المنتسبون للقبائل الصحراوية المحاذية للمجالات السودانية، وذلك انطلاقا من قدرتهم على تعلم لسان السودانيين، أو التعامل معهم بلسان مختلط هجين أشارت له الدراسات

---

[1]- الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، ص:479.

[2]- يذكر البكري في المسالك والممالك، ج2، ص: 367. نصا هاما يؤكد الفكرة الواردة أعلاه، وهي قصة تدل على أن التجار العرب لم يكونوا قادرين على تحمل بعض التقاليد السودانية البعيدة كل البعد عن القيم الإسلامية، كما أنهم كانوا عاجزين عن فهم لغة السودانيين، وأنهم احتاجوا إلى مترجمين للتعامل معهم، مع ما قدمه سابقا من كثرة الحضور الإسلامي، فهو يروي عن أبي عبد الله المكي " أنه رأى منهنّ امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلّمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنّت أن يكون شعر لحيته في عانتها، فامتلأ العربي غضبا وأوسعها سبّا".

باسم: لسان أزير، ذلك أن اللغة تعتبر أهم أداة في التواصل الثقافي بين الشعوب، لأنها الوعاء الحامل لمختلف القيم والأفكار والمبادئ، ولا يمكن ممارسة نشاط تثقيفي دعوي في أي مجتمع من المجتمعات إلا من خلال التواصل اللغوي معه، ولذلك اعتبر بعض الباحثين إشكالية اللغة أحد أهم معوقات انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية، لأن هذه المناطق لم تتبنى اللغة العربية، إلا ما تعلق بكونها لغة الشعائر والفقه والإدارة ، أو باعتبارها لغة النخب العلمية عموما، بل حافظت على لغاتها ولهجاتها المتعددة[1]، وهو ما يجعل تجار قبائل صنهاجة الصحراء وسيطا هاما لتبليغ الإسلام.

ولذلك يمكننا القول بأن ما ذكره البكري عن غانة، من أن تراجمة الملك وأغلب وزرائه وصاحب بيت ماله من المسلمين[2]، قد يحيل إلى كونهم من صنهاجة الصحراء، وقد استطاع الملثمون الحفاظ على دور المترجمين في الممالك السودانية اللاحقة، بل مثلوا هذا الدور حتى في الوفود الملكية عالية المستوى مثل وفد ملك مالي منسى موسى (712-737هـ/ 1312-1337م) إلى السلطان أبي الحسن المريني

---

[1]- يوجد في غرب إفريقيا العديد من اللغات تنتمي إلى مجموعات متعددة، أهمها: مجموعة كوا: وتشمل أكثر من 300 لغة ، المجموعة الفولطية: وتحتوي على أكثر من 70لغة ، المجموعة الأطلسية الغربية: وتشتمل على ما يربو عن 40لغة، المجموعة المانديّة: وتضم ما يزيد عن 20لغة، ولا شك بأن الكثير من التفاعلات السابقة في هذا المجال قد أسهمت في تبلور هذه اللغات التي تعود جذورها إلى فترات سابقة. أنظر: أحمد مومن، **اللسانيات النشأة والتطور**،ط4، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 2008،ص:109.

[2]- البكري، **المسالك والممالك**،ج2، ص:363. وقد رأى بعض الباحثين أن صاحب بيت مال ملك غانة هذا هو الذي أدخل للمملكة نظام الضرائب العينية على البضائع المصدرة والمستوردة، نظرا لعدم وجود النقد المسكوك ، أنظر: محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، بيروت، دار الكتب العلمية ،2007،ص:72.

(731-749هـ/ 1331-1348)[1]، وهو ما يمكننا من القول إنهم قاموا بهذا الدور منذ البدايات الأولى للوجود الإسلامي بالحواضر السودانية.

وتبدو قضية اللغة من القضايا التي أغفلتها المصادر عندما أرخت للعلاقات بين ضفتي الصحراء، ولا شك أن الانتباه إلى أهميتها يدفع إلى الاعتقاد بالدور الكبير الذي قام به الملثمون في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد السودان، قبل أن تنتشر اللغة العربية كلغة دينية وتعليمية وإدارية بالمنطقة، ذلك أن التجار المسافرين إلى هذه المنطقة دون أن يستوطنوها لا يمكنهم تعلم لغتهم وتبليغ رسالة الإسلام من خلالها، مع ما يعرف عن التاجر عادة من الانصراف في معظم الوقت إلى أعماله التجارية، كما أن الجاليات المستقرة يعتقد أنها كانت تسعى إلى تعليم اللغة العربية أكثر من سعيها إلى تعلم اللغات المحلية، ويمكننا أن نستدل على ذلك بحالة بلاد المغرب الإسلامي.

كما أن التأثير الأخلاقي الذي تصر عليه كل المراجع، يمكنه أن يكون أكثر إقناعا إذا تعلق بتجار الملثمين، فلا شك أن السودانيين قد عرفوا هؤلاء قبل إسلامهم وبعده، فصورة التاجر الصنهاجي قبل اعتناق الإسلام وصورته بعدها في مخيال السودانيين قد تمثل دافعا لهم للبحث عن أسباب التحولات، فالتاجر الذي عرفوه منذ الأزمنة القديمة كان أساس معاملته الكبرياء والغطرسة والتعالي، وعدم الاهتمام بمصدر المال بسبب الجشع، إضافة إلى عدم تحرجه من بعض الممارسات غير الأخلاقية، لم يبق بنفس المواصفات بعد اعتناق الإسلام، وخاصة بعد قيام دعوة المرابطين وجهود عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر اللمتوني والإمام الحضرمي الدعوية، فقد لاحظ السودانيون هذا التحول التدريجي في السلوك والطباع

---

[1]- ابن خلدون أبوزيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ/ 1405م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح:خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، 2001، ج7، ص:352.

والمعتقدات، وهو ما دفع بهم إلى البحث عن سبب هذا التحول ومن ثم الإعجاب بالإسلام واعتناقه[1]، وهذا ما يتيح لنا القول إن تأثير التجار بأخلاقهم كسبب من أسباب انتشار الإسلام بالسودان الغربي، يبرز بجلاء بالنسبة لصنهاجة الصحراء أكثر من غيرهم.

وما سبقت الإشارة إليه عند البكري من اختصاص المسلمين بسكنى مدينة غير مدينة ملك غانة، لا يعني أن كل التجار المسلمين قد اختاروا السكن في مدن خاصة بهم من أجل الحفاظ على النمط الإسلامي لمعيشتهم، فإن ذلك لا يمكنه أن يمثل حالة شاملة في جميع المدن، بل يختص بالحواضر التي توجد فيها جالية إسلامية كبيرة، وقد سمح تعايش المسلمين مع الوثنيين في مدينة واحدة بالتأثير فيهم، كما أدى إلى عقد زيجات مختلطة سمحت للتاجر المسلم بالتحول من غريب إلى عضو في الأسرة السودانية، بإمكانه ممارسة نشاط دعوي فيها ،كما أن المولدين من هذه الزيجات يعتبرون من أهم عوامل التحول التدريجي إلى الإسلام في السودان الغربي[2]، وقد أفادنا ابن بطوطة بحالة مصاهرة بالغة الأهمية، إذ أن من أسماء الفقيه المقرئ عبد الواحد – وهو من البيضان- كان متزوجا ببنت عم السلطان[3]، وهي دلالة على مستوى الإمتزاج بين صنهاجة الصحراء – وخاصة مسوفة- وبين السودانيين.

---

[1]– عطية مخزوم الفيتوري، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء**، ص:101.

[2]– مصطفى بن شقرون ،"**دور التجار المسلمين في نشر الإسلام بغرب إفريقيا في العصر الوسيط**"، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة)، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،1999، ص:61.

[3]– ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار**، تح: طلال حرب، ط4، بيروت،دار الكتب العلمية، 2007، ص: 691.

بالإضافة إلى الجانب الأخلاقي والمعاملاتي، يمكننا تفسير التأثير الذي كان للتجار المسلمين على السودانيين بانتمائهم إلى طبقة تعتبر راقية في المنطقة، وذلك بسبب الفوائد التي تذرها عليهم التجارة العابرة للصحراء، ومن ثم رأى بعض الباحثين أن بعض السودانيين كانوا يقبلون على اعتناق الإسلام لما يلاحظونه من الهيبة التي تلحق بمعتنق هذا الدين[1]، بل إن السودانيين الذين يدخلون في الإسلام كان يمكنهم الشعور بالانتماء إلى هذه الفئة الراقية الموسرة المميزة[2]، والتي تنتسب إلى بلاد تعيش حضارة مزهرة، لا ريب في أن التجار كانوا يتحدثون إلى السودانيين عنها، باعتبارها أثرا من آثار التمسك بالإسلام، وهو ما يغري الناس بالرغبة في الانتساب إلى هذه الأمة عن طريق التزام دينها[3].

ويفترض بعض الباحثين أن كبار التجار العرب والبربر كانوا يشترطون على المتعاملين معهم من التجار السودانيين الدخول في الإسلام للحصول على ثقتهم، وبالتالي تسليمهم أموالهم ليسافروا بها بعيدا في دواخل غرب إفريقيا انتظار عودتهم ليدفعوا أثمانها، وقد يستمر غيابهم لمدة أشهر[4]، ولكن هذه الدعوى لا دليل عليها، خاصة إذا علمنا بأن الإسلام لا يعد من شروط عقد القراض، وإن كان الفقهاء كرهوا مقارضة الكافر ومن لا يعرف الحلال من الحرام[5]، لأن الأصل في القراض أنه عقد يتعلق بالأمانة، ومن ثم لا يبق لهذا الرأي حظ من المصداقية، خاصة إذا علمنا بأن استمرار النشاط التجاري وتطوره دليل على حالة الثقة بين الطرفين.

---

[1] - Maurice Delafosse, **Les noire De L'Afrique**, p :48.

[2] - Joseph Cuoq, **Histoire de L'Islamisation**, p :49.

[3] – مادهو بانيكار، **الوثنية والاسلام**، ص:495.

[4] – **الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين**، ص:478.

[5] – **سحنون بن سعيد التنوخي ، المدونة الكبرى**، تح : زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، دت، ج3، ص: 645.

من ناحية أخرى يمكننا ملاحظة الدور الهام الذي لعبه التجار السودان من "الونغارة" في الدفع بالإسلام خارج المجالات الحضرية، باعتبارهم كانوا أساسا من تجار الذهب الذين تعاملوا مع المسلمين في دواخل بلاد السودان، فكما قادتهم المعاملة التجارية إلى الإسلام، فقد مكنت مجالاتهم من انفتاح المناطق البعيدة على الحضور الإسلامي، ليمارسوا دور الوسيط الذي مارسته قبائل الملثمين، خاصة وأن مناطقهم كانت من أنشط المناطق اقتصاديا لمدة زمنية طويلة، ولا شك أن العديد من القبائل والمجموعات السكانية السودانية كانت تشارك في البحث عن تبر الذهب في منطقتهم، ما يدعونا إلى التخمين بانسياب المفاهيم الإسلامية من خلال هذه العلاقات والمصالح المشتركة.

د- الدعاة في السودان الغربي: قلة العدد وفاعلية المساهمة:

يحيل شح المادة المصدرية المتعلقة بالموضوع إلى أن عدد الدعاة الذين كانوا يشاركون في النشاط التجاري كان قليلا[1]، وقد ندلل على ذلك من أحداث قيام دعوة المرابطين بعجز الفقيه المالكي أبي عمران الفاسي (ت: 430هـ/ 1039م) في سنة 427هـ/ 1036م عن إيجاد من يرافق زعيم قبائل الملثمين يحيى بن إبراهيم الجدالي (ت: 440هـ/ 1048م) إلى الصحراء من طلبته بالقيروان، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى[2]، فطابع حياة الفقهاء وطلبة العلم لم يكن يساعد على القيام بمثل هذه المغامرات، وقد وصف الجدالي المستوى العلمي لبعض من يصل الصحراء من طلبة العلم، أنهم معلمون لا ورع ولا علم بالسنة عندهم[3]، ولكن هذا لا يعدو أن

---

[1]- أنظر نفس المقاربة تقريبا عند: أحمد الشكري، **"الصيرورة التاريخية للأسلمة وتبعاتها الثقافية والسياسية"**، مدخل إلى تاريخ الصحراء الأطلنتية، تنسيق رحال بوبريك، الرباط، دار أبي رقراق، 2010، ص: 47-49.

[2]- البكري، **المسالك والممالك**، ج2، ص: 352.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص: 352.

يكون الحالة الغالبة وليست الدائمة، إذ أن المصادر تؤكد لنا مشاركة بعض هؤلاء في التجارة العابرة للصحراء، وإسهامهم الكبير في تحقيق التحولات الثقافية بالسودان الغربي.

ومن الدلائل عند البكري عن وجود بعض الفقهاء ببلاد السودان، أن أحدهم كان من مصادر رواياته التاريخية عن المنطقة، وهو الفقيه الأندلسي أبو محمد عبد الملك الذي سافر إلى مدينة بوغرات[1]، ويبدو أنه قد دخل مدنا غيرها، لأنها لا تعدو أن تكون مدينة صغيرة في الطريق بين غانة وتادمكة تسكنها قبيلة مداسة الصنهاجية، كما أن الوصف الذي قدمه هذا الجغرافي لمدينة المسلمين بغانة يشير إلى وجود العديد منهم، إذ قال عنها: "لها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم"[2]، وهو ما يبرز حضورا دعويا ملحوظا، إذ أن هؤلاء قد يكونون قادمين بغرض التجارة، كما أن بعضهم قد يكون دافعه الأساسي العمل على نشر الإسلام في المنطقة، دون أن نتجاوز احتمال كونهم من الملثمين أو السودانيين الذين اعتنقوا الاسلام وتفقهوا في أحكامه، كما أن وصف" الفقيه والمؤذن وحامل العلم" قد لا يحيل إلى نفس دلالاته في الحواضر الإسلامية العالمة والغنية ثقافيا ومعرفيا، بل هو بحسب مجتمعات مفتقدة لهذه العناصر الدينية، ما يجعلها تصور بعض المطلعين على الأحكام والقادرين على إمامة الناس والإفتاء لهم في بعض القضايا باعتباره من حملة العلم وربما من الفقهاء العلماء.

من جهة أخرى نجد في المصادر الإباضية بعض الإشارات عن دعاة المذهب وفقهائه، بعضهم استقر في بلاد السودان لمجرد الدعوة، وبعضهم زاوج بين النشاطين التجاري والدعوي، والبعض الآخر تشير النصوص إلى أن قصدهم كان التجارة،

---

[1]- المصدر نفسه، ج2، ص:370.

[2]- المصدر نفسه، ج2، ص: 363.

لكن ذلك لا ينفي مشاركتهم في الدعوة إلى الاسلام[1]، لكن الأسماء الواردة لا يمكنها أن تكون كافية للإجابة عن مختلف الأسئلة المتعلقة بطبيعة الدور الذي قام به هؤلاء الفقهاء والدعاة، وهو ما يفتح المجال واسعا أمام المقاربات والتحليلات التي تستحضر الواقع الإجتماعي وطريقة ممارسة التأثير داخل المجتمعات الإفريقية.

لقد رأى بعض الدارسين أن الدعاة ببلاد السودان كانوا يتوجهون بالدرجة الأولى إلى الملوك ورؤساء العشائر الذين كانوا يستقرون بالقرب منهم، ويربطون بهم علاقات صداقة، ويبذلون جهودا كبيرة من أجل إقناعهم باعتناق الإسلام، كما كان

---

[1] – توجد العديد من الدراسات التي اشتغلت على دور الإباضية في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء نذكر منها:

Tadeusz Lewicki, **"Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord-africains au pays du soudan occidental au moyen âge"**, Folia Orientalia, 2 (1960), p:1-27.

Tadeusz Lewicki, **"Traits d'histoire du commerce transsaharien, marchands et missionnaires ibadites au soudans occidental et central au cours du 8e au 12e siècles"** , Ethnographia Polska, 8(1964), p:291-311.

أحمد الياس حسين، "دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي"، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1985، ص: 91-105. محمد صالح ناصر، دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا، مسقط، الدار العمانية ، دت. وأنجز الباحث عبد القادر مباركية دراسة هامة جدا في هذا المجال تتبع فيها كل الإشارات الواردة في المصادر الإباضية عن التجارة العابرة للصحراء، وقد تضمنت نصوصا عن عدد من هؤلاء الفقهاء والدعاة الذين زاروا أو سكنوا السودان الأوسط والغربي، أنظر: عبد القادر مباركية، **التجار والتجارة المغربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء من خلال المصادر الاباضية الوهبية من القرن 3هـ/ 9م إلى القرن 10هـ/ 16م**، مذكرة ماجستير، إشراف علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2012-2013.

أولئك الدعاة يحرصون كلما سنحت لهم الفرصة، على تربية أبناء أولئك الملوك والرؤساء وفقا لتعاليم الإسلام وينشئونهم عليها[1].

ومن أبرز النماذج التي تبين دور الدعاة في نشر الإسلام في السودان الغربي قصة إسلام ملك ملل التي ذكرها البكري في مسالكه والتي ورد فيها :

" ملل، ملكهم يعرف بالمسلماني، وإنما سمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له: أيها الملك، لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوئك، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسعه جهله، (...) فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به فصليا من الليل ماشاء الله، والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انفجر الصباح إلا والله قد عمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكوهم منذ ذاك بالمسلماني"[2].

---

[1]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي(628-1000هـ/ 1230-1591م)**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2011، ص:46.

[2]- البكري، **المسالك والممالك**،ج2، ص:366- 367. والقصة ذاتها واردة عند الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج2، ص: 517-518. لكنه ينسبها لداعية إباضي هو علي بن يخلف جد والده سعيد، ويؤرخ لها بسنة: 575هـ/ 1179م. ويبدو أن القصة منقولة من كتاب البكري، لأن

وهذا النص فضلا عن دلالته الواضحة في تمكن هذا الفقيه من إدخال ملك ملل في الإسلام، في تاريخ غير محدد في النصف الأول من القرن 5هـ/ 11م[1]، فإنه يشير إلى وجود نشاط دعوي في مدن مشركة في دواخل بلاد السودان، إذ أن مدينة ملل تبعد عن مدينة غانة بـ12 مرحلة إلى الجنوب حسب الإدريسي[2]، فهذا الفقيه قد وصف بكونه يقرأ القرآن ويعلم السنة، وهي إشارة إلى عدم ضيق ملوك السودان من النشاط الدعوي الإسلامي، وهو ما يسمح لهؤلاء بحرية العمل على تحويل الناس نحو الإسلام، بل إن رواية الدرجيني لهذه القصة تبرز المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها هذا الفقيه عند ملك ملل، الذي كان يتعجب من خلقه وخلقه وقلّما جلس مجلسا إلا أجلسه معه إكراما له[3].

ونقرأ عند البغطوري قصة أخرى حول دور الدعاة في إسلام ملوك السودان، إذ يذكر أن أبو يحيى الفرسطائي "سافر إلى بلاد السودان فوجد مليكهم ناحل الجسم ضعيف، فسأله لما صار حالك هكذا فقال : عندنا هاهنا شيء إذا نزل ببعضنا أزاله وذهب به، ويعني به الموت ، قال أبو يحي: فأخبرته عن الله عز وجل وصفة الجنة وثوابها لمن أطاع الله وأخبرته عن النار وعقابها لمن عصي الله ، فقال لي كذبت، لو كان

الحوادث يستحيل أن تتشابه لهذه الدرجة في سياقين زمنيين مختلفين. انظر قراءة للموضوع عند: عبد القادر مباركية، **التجار والتجارة المغربية**، ص: 84-85.

[1]- يرى دولافوس أن ذلك وقع سنة 442هـ/1050م،أنظر:

Maurice Delafosse, **Les noire De L'Afrique**, p :48 .

[2]- الإدريسي، نزهة المشتاق،ج1،ص:22-23.

[3]- الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج2،ص:517-518.

عندك يقين بما تصف لم تأت إلى هنا لطلب الدنيا، فما زلت أحاوله وأذكر له الله ونعمائه، وأرغبه في الإسلام حتى أسلم وحسن إسلامه"[1].

ومع أن هذه القصة لا تحدد لنا الملك السوداني الذي أسلم على يد هذا الداعية الإباضي، فهي تكشف عن نظرة بعض السودانيين إلى الوافدين إلى ديارهم باعتبارهم مجرد طامحين في الربح التجاري، كما تدل على توصّل أهل العلم إلى لقاء الحكام السودانيين، ما يحيل إلى نظرة هؤلاء إليهم باعتبارهم من علية القوم، وهو ما يدل على انكسار حواجز الفوارق الإثنية والدينية بين السودانيين والمسلمين الوافدين من الشمال.

كما أن النصّان يحيلان إلى أن الطبقة الأرستقراطية الحاكمة هي التي كانت سباقة إلى اعتناق الإسلام، ومع أنها لم تعمل دائما على فرضه بالقوة على رعيتها، ولكن مجرد تبنيها له وحمايتها لدعاته مثّل دعامة كبيرة لاستمرار الانتشار التدريجي له، ولاشك أن القصتين رغم إمكانية وجود حبكة مقصودة فيها، فإنها تتماشى مع التطور الذي عرفه الوجود الإسلامي في مدن السودان الغربي، ولذلك فلا داعي للتشكيك في وقوعها كما ألمح إلى ذلك كيوك/ J.Couq في تعليقه على قصة إسلام ملك ملل[2].

وربما من خلال الإشارات التي وفرتها المصادر عن وصول هؤلاء الدعاة إلى دواخل بلاد السودان، قدّر توماس أرنولد أنهم كانوا يجولون في مختلف الممالك والمدن دون أن يتعرض لهم أحد، حتى لو انتقلوا بين ممالك لا يعادي بعضها بعضا فقط، بل توجد بينها حالة حرب، ذلك أنهم كانوا محترمين جدا، خاصة وهم يمثلون العلم في

---

[1]- البغطوري، سيرة مشائخ جبل نفوسة، تح: توفيق عياد الشقروني، ليبيا، مؤسسة توالت الثقافية، 2009، ص: 65. وانظر عن صاحب القصة : الشماخي، كتاب السير، ص: 295-297.

[2] - Joseph Cuoq, **Recueil des sources arabes**, p:103.note.1.

بيئة أمية جاهلة، ولذلك كانت نظرة الإعجاب والإجلال والتوقير ترافقهم أينما حلوا، سواء في المناطق التي وجدت بها جالية إسلامية، أو في المناطق الوثنية الخالصة[1].

أما الدعاة المتفرغون للنشاط الدعوي، فقد رأى بعض الباحثين أن كبار التجار المستقرين في المدن السودانية هم الذين عملوا على استقدامهم من أجل القيام بالدور التعليمي، ووفروا لهم لأجل ذلك ما يحتاجونه، وصرفوا لهم رواتب من أجل التفرغ لما استقدموا إليه[2]، ومع أننا لا نجد في مصادر الفترة المدروسة ما يدعم ذلك، فإنه لا يبدو مستبعد الوقوع، خاصة وأن السعي لدمج بلاد السودان في فلك الحضارة الإسلامية هو طموح يجمع بين التاجر والداعية.

خـــــاتمة:

كل ما سبق ذكره يكشف عن الكثير من التفاعلات الاجتماعية والمؤثرات الفردية التي مثلت الرافد الأساسي في تقبل السودانيين للإسلام، ويبرز الدور الكبير الذي قامت به المجموعات السكانية السودانية في التمهيد لتقبل المنطقة للدين الجديد، خاصة من خلال صلاتها التقليدية مع صنهاجة الصحراء بمختلف فروعها، وهو ما يدفع نحو تبني وجهة نظر تعطي الدور الأكبر في حدوث التحولات للسودانيين

---

[1]- توماس أرنولد ، **الدعوة إلى الإسلام**، ص:392، وعن الجاليات الإسلامية ببلاد السودان الغربي ودورهم الثقافي فقد خصت ببحث تتبع كل الإشارات المصدرية الواردة حولها. انظر : مسعود خالدي، **الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء (السودان الأوسط والغربي) بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين / الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين**، أطروحة دكتوراه، إشراف مسعود مزهودي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،2009.

[2]- عطية مخزوم الفيتوري ، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء**، ص:105-106.

أنفسهم، بالإضافة إلى الملثمين، من خلال الجهود المبذولة، ليأتي دور التجار والدعاة المغاربة مكملا لهذه الجهود ومرسخا للدين الجديد من خلال تبيان أحكامه وآدابه، وتشكيل صورة مصغرة عن المجتمع المسلم في الحواضر التي سكنها المسلمون، وعندما تأسست الحواضر الإسلامية مثل تنبكت وغاو وجني وغيرها مثلت الشمس المشرقة على شعوب كانت لا تزال بعيدة كل البعد عن تاريخ الإنسانية وهو يعيش تحولات جذرية في المشرق والمغرب وأوروبا، فتمكنت من إدخالها في فلك التحولات العالمية، وحمل السودانيون أنفسهم مسؤولية توسيع مجال هذه الرسالة ومد رقعة سيادتها وسلطتها من خلال دول مالي والسنغاي ثم حركات الإصلاح الديني لاحقا.

الصلات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي و أثرها الثقافي على الحواضر:

أ. صادقي كمال
جامعة باجي المختار عنابة

أ-**الطرق والمسالك:** عن طريق المسالك (الطرقات) كان ذهب السودان الغربي يصل إلى المغرب، ومنه إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، وأوروبا.

وكان للتجار المسلمين المغاربة دور أساسي في تنشيط حركة التبادل التجاري بين المغرب والسودان الغربي، ومن أوائل الذين زاروا منطقة السودان الغربي الرحالة العربي الشهير الفزاري الذي زار المنطقة في القرن الثامن الميلادي/ القرن الثاني الهجري ودون في تاريخه ماشاهده في تلك المنطقة، لاسيما ذكره لوفرة معدن الذهب في غانة[1]

وما يهمنا في هذه الدراسة التعرض إلى مسار هذه السلع والمنتجات التي كانت تنقل من بلاد المغرب الأوسط إلى بلاد السودان الغربي، وفي هذا الصدد يمكن أن نتساءل عن كيفية هذا التبادل؟ وما هي الوسائل المتبعة في النقل ونوع المواصلات عبر هذه الطرق ؟وماهي المحطات المشهورة التي تختص بتوفير لوازم الراحة من مبيت وأكل وشرب؟ ويؤدي بنا التساؤل لمحاولة معرفة أهمية الطرق الرئيسية من المغرب الأوسط إلى السودان الغربي. ولنتساءل مرة أخرى: هل أن هذه الطرق تغيرت عبر القرون وتغير الدول، أم أنها بقيت على حالها، ومن ثمة محاولة معرفة العوامل والظروف التي أدت إلى التحول أوعدمه.

---

[1]- هوارد، س، أشهر الرحلات في غرب إفريقيا، ترجمة، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب،1996)، 1/9

من المعلوم أن المؤرخين استنادا إلى كتب الجغرافية العربية والرحلات ذكروا أربعة طرق رئيسية للتبادل التجاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وما يهمنا في هذا الموضوع هوالطرق الرابطة بين المدن وحواضر المغرب الأوسط، وبلاد السودان الغربي.

أولا: طريق تاهرت، غرداية، ورقلة، غدامس، زندر، كانوا، النجيمي.

ثانيا: طريق توات، تنبكتو، جاو، سكتو، كانو، النجيمي، وداي، دارفور.

ثالثا: طريق تلمسان، غرداية، توات، غات مرزق، بلما، النجمي[1].

ويبدو أن العرب الفاتحين لشمال إفريقيا قد أسسوا هذه الطرق ابتداء من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث أصبحت هذه الطرق التجارية مألوفة حتى لتجار السودان الغربي / مملكة غانا في ساحل الصحراء الكبرى[2]

إذن ماهي الأسباب التي جعلت التجارة الصحراوية تأخذ هذا المسار دون غيره من الطرق؟

للإجابة عن هذا السؤال،لابد أن نرجع للسياق التاريخي التي نشأت فيه ..

يبدو أن ملامح هذا المسار التاريخي بدأ يظهر منذ النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، هنا، وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادياستولى الفاطميون على سجلماسة، وبذلك تمكنوا من السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد السودان الغربي والأوسط، ومعنى ذلك السيطرة على عصب الموارد الاقتصادية المتمثلة في تجميع مادة الذهب، وملأ خزائنهم من الأموال، وبعدد كبير من

---

[1]- عبد الرحمن عمر الماحي،**أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الافريقية على جانبي الصحراء**، ايام15-17 محرم من ميلاد الرسول، 12-14، ماي، (المغرب: تطوان/ كلية الآداب، الجماهيرية: طرابلس/ كلية الدعوة الإسلامية، 1998)،66

[2]- فيج،جي،دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق، يوسف نصر،بهجت رياض صليب، (ط1،القاهرة: دارالمعارف، 1982)، 18

العبيد،وهذين الموردين استعملهما الفاطميون في إنشاء جيش ضخم تمكنوا بواسطته من فتح بلاد مصر والشام والحجاز[1].ويبدو أن الكيفيةالتي تم بواسطتها تبادل السلع بين المغاربة والسودان لم تكن عن طريق النقود رغم توفرها حسب ما نعلم في بلاد المغرب، إنما عن طريق المقايضة،و سنلاحظ أن هذا الخط التجاري سيتمدد ويتسع في اتجاهين متعاكسين، أحدهما في الاتجاه الغربي، ينتهي في قرطبة عاصمة الأمويين،والآخر في اتجاه القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة،وهذا التحول في الحركة التجارية الصحراوية كان نتيجة للصراع المرير الذي حدث بين كتلتين كبيرتين هما الكتلة الفاطمية- مجال تحركها الأساسي المغرب الأدنى والأوسط والطرف الأخر الأموي- الزناتي وكان مجاله الحيوي المغرب الأقصى[2].إذن هل استفاد المغرب الأوسط من تدفق الذهب والعبيد من خلال هذه الحركة التجارية في المنتصف الثاني من القرن الحادي عشر؟.فمن الملاحظ أن تاهرت كانت مركزا تجاريا هاما منذ زمن الرستميين، ويبدو أنها حافظت إلى الآن على هذا الدور التجاري الهام، بل إنها أصبحت مركزا تجاريا هاما يربط بين المراكز البحرية والموانئ الساحلية،يعني بين السلع الواردة من أروبا خاصة من الاندلس وصقلية ليتم جلبها إلى المركز الرئيسي بتاهرت، وتقوم هذه المحطة التجارية بدورالموزع في اتجاه القيروان وطريق في اتجاه المغرب الأقصى، وطريق تجاري عمودي في اتجاه القصور والمقصود هنا هي قصور توات ثم تخترق الصحراء الكبرى، ثم تلمكة لتنتهي في مركز جو[3]

ب- التجار البربر في السودان الغربي: يذكر محمود إسماعيل أنه كانت للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قوافل تسافر إلى بلاد السودان، كما أن ابنه أفلح

---

[1]-لومبار موريس، **الإسلام في مجده الأول من القرن2 إلى القرن 5هـ/ 8-10م**، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي،(ط3،المغرب: منشورات دار الأفاق الجديدة،2003)، 92

[2]- نفسه،93

[3]- نفسه، 106

أراد أن يقود قافلة متجهة إلى السودان للإتجار هناك إلا أنأباه منعه من ذلك وأشفق عليه من مخاطر الطريق، ولأنه كان يهيئه للخلافة من بعده[1]. وكان التجار الذين ينتقلون إلى هذه البلاد يقومون بنشر الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي، وأسسوا لهم مراكز تجارية إسلامية أصبحت فيما بعد حواضر إسلامية، ومن أشهر العائلات الجزائرية التي استقرت هناك للتجارة، وقامت بنشر الثقافة الإسلامية وسط الزنوج في بلاد السودان عائلة آل المقري الذين كونوا شركة تجارية، تنشط في عدة حواضر بين المغرب الأوسط وبلادالسودان الغربي منها توات، وسجلماسة في جهة المغرب، وتمبكتو ومالي في جهة السودان الغربي[2]، وذكر البكري أن من بين سكان غانة تجار من البيض يعني من المغاربة البربر المسلمين يسكنون المدينة،ولهم حي خاص بهم لا يمتزجون مع السود واحصى لهم 12عشر مسجدا.

ويبدو أن ظاهرة استقرار البربر في السودان الغربي استمرت منذ منتصف القرن الحادي عشر على ماذكره موريس لومبارد، لاسيما أن إباضية بني ميزاب أخذوا يختصون وينشطون في تجارة التجزئة، ويغزون أسواق حواضر السودان الغربي وفي كثير من الحلات فإن هذا النوع من النشاط التجاري، يتطلب المكوث الطويل في البلاد المتاجر فيها، وهذا ما يفسر استقرار كثير من زناتة البربر الإباضية في حواضر السودان الغربي[3]

ج-السلع المغربية: أهم السلع المنقولة من بلاد المغرب عموما، وبلاد المغرب الأوسط خصوصا، الحبوب والتمور، والأقمشة، والمصنوعات المعدنية والجلدية، وكذلك أنواع من الزجاج والأصداف، والخواتم والقطران، والأخشاب والعطور،

---

[1]- الخوارج في بلادالمغرب،(ط2،المغرب/ الدارالبيضاء: دارالثقافة، 1985)،282

[2]- بوفيل، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، 129

[3]- الإسلام في مجده الأول، مرجع سابق، 95

وتمر هذه السلع في المغرب الأوسط عن طريق محور تاهرت- تفازة-تادمكة-غاو عند ضفاف نهر النيجر[1]. ويبقى أهم منتوج من سلع بلاد المغرب مادة الملح التي كانت مطلوبة بقوة في بلاد السودان الغربي نظرا لندرة هذه المادة الضرورية في بلادهم، وكانت مساوية في السعر لمادة الذهب وهذا ما سهل التبادل بواسطة المقايضة[2]

د- المراكز التجارية الصحراوية في المغرب الأوسط:

1- **توات:** يبدو أن موقع توات ملائما جدا أن يكون مركزا ومحطة عبورللسلع من المغرب الأوسط إلى أسواق السودانالغربي، وميزة توات أنها تقع تقريبا في منتصف المسافة بين مدن المغربالأوسط ومدن السودان الغربي ، كما يعتبر الممر الطبيعي لتجارة السودان الغربي ولبضائع بلاد المغرب، حيث أصبح حلقة وصل بين الجنوب الغربي لبلاد المغرب والسودان الغربي بواسطة القوافل، وميزة محطة توات أنها تقدم الخدمات الضرورية للتجار والمسافرين القادمين من الشمال والعكس أي التجارالقادمين من غرب إفريقيا في اتجاه الشمال من راحة وطعام وشراب، كما تقدم توات للمسافرين الأدلاء والحرس الذين لهم الخبرة الكافية بتضاريس وجغرافية المنطقة[3]. كما أن منطقة توات غنية بالمياه الجوفية مما سهل من إنشاء آبار أمنت الماء لحياة التجار والحيوانات من خيل وبعير، يستريح فيها التجار

---

[1]-الطيبي، توفيق أمين، أعمال ندوة التواصل، المرجع السابق،117

[2]- هوارد، س، المرجع السابق، 24

[3]- كريمي، ماجدة، العلاقات التجارية بالمغرب والسودان في العصر المريني،(668-759هـ/ 1269- 1358م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،(الرباط: جامعة محمد الخامس، 1987-1988)،75-79

ويسقون إبلهم ويراقبون حمولتهم ويتطلعون لأحوال أخبار الطريق، ويتناقلون فيما بينهم تغير أسعار السلع في الأسواق[1]

2- مراكز أقليم توات:

2-1 – مركز تمنطيط: هذه المدينة تنتمي للمدن الصحراوية الواقعة في الجزائر اليوم وصفها ابن خلدون،أنها متبحرة في العمران[2]، وهي محطة تجارية واقعة على طريق القوافل المارة إلى السودان الغربي وتعتبر منطقة للتبادل التجاري والثقافي بين بلاد المغرب الأوسط والسودان الغربي[3].

2-2مركز تنجورارين أو قورارة:ورد هذا الإسم في جل كتب الرحالة والجغرافيين العربلأهميتها الاقتصادية والتجارية باعتبارها تقع في منطقة من واحات النخيل كانت مقرا للراحة من تعب الطريق للمسافرين التجار سواء القادمين من السودان الغربي في اتجاه الشمال أوالعكس. وتشكل هذه المنطقة مركز التقاء وتجمع للقوافل التجارية الآتية من الشمال أوالجنوب[4]. وقد قدر كرباخال عدد سكانها بحوالي خمسين قصرا متفرعة وبأكثر من 150 من المداشر.

---

[1]- حوتية، محمد، **توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/ الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي)، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية**،(الجزائر: دار الكتاب العربي،)،1/ 142

[2]- ابن خلدون عبد الرحمن، **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط خليل شحاتة، (ط2،بيروت: دارالفكر، 20001)، 77/7

[3]- بن موسى جميلة، **تجارة الذهب بين المغرب الاسلامي والسودان الغربي من القرن 9م إلى القرن 11م**، (ط1، الجزائر: منشورات بلوتو، 2011)، 269

[4]- كريخال مرمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر،محمد الأخضر،أحمد التوفيق،أحمد بن جلون،(الرباط: مكتبةالمعارفللنشروالتوزيع، 1408-1409هـ/ 1988- 1999م)، 1/163

3 – مركز تيمي: تبرز أهمية هذه المنطقة كقاعدةتجارية هامة في جنوب المغرب الأوسط بعد أفول نجم تمنطيط في القرن الحادي عشر هجري/ السادس عشر ميلادي حيث تحولت عاصمة الإقليم من تمنطيط إلى تيمي[1].

4 – مركز بودة: تنعقد في هذه المنطقة أسواق موسمية في فترة وصول القوافل التجاريةالقادمة من تونس أوالمغرب الأقصى محملة بمختلف السلع من أجل بيعها في السودان الغربي، زيادة على تزود هذه القوافل بالتمور العالية الجودة وبيعها سواء في السودان الغربي، أو في أسواق بلاد المغرب.

5– مركز تسابيت: [2]اختلف المؤرخون في تسميتها، منهم من يطلق عليها لفظ تسابيت، ومنهم من يلفظها تسبيت، وهي مجموعة من القرى، أهم تجارتها أنواع كثيرة من الثمور الجيدة، رخيصة الأسعار كانت تبادلها بسلع شمال المغرب الأوسط[3]. ويصفها الوزان أنها أقليم مأهول في صحراء نوميديا، يضم أربعة قصور وقرى عديدة على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة أكدز في بلاد السودان[4]

---

[1]– حمادي،عبدالله،الإدريسي، **الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات**، (الجزائر: دارالكتاب الملكي، 2013)، 14

[2]– الوزان، الحسن، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، (ط2، لبنان:دار الغرب الإسلامي، 1983)،2/ 133

[3]– كروم عبد الله،**الرحلات بإقليم توات،دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة لخزائن توات**، (الجزائر: دحلب للنشر والتوزيع، د.ت)، 29

[4]– المصدرالسابق، 133 / 2

ووصفها العياشي لما زارها أنها مدينة ذات أسواق وتجارة، حيث قام ببيع خيله وما ضعف من إبله، واقتنى منها كثير من الثمور التي قال عنها أنها كثيرة ومتنوعة، وسعرها منخفض، أما أهلها فجلهم يمارسون مهنة التجارة[1]. وكانت القوافل تقدم إليها من الشمال، خاصة بلاد المغرب الأقصى والعائدة من الجنوب الغربي وبالخصوص مملكة أكذز ببلاد السودان[2]

ه- **المراكز التجارية وحواضر السودان الغربي:** كانت عاصمة غانا في القرن الحادي عشر ميلادي/ الخامس هجري تدعى كومبى صالح كما ذكرها البكري، وبجاورها مدينة للمسلمين البربر التي كان يسكنها عدد كبير من تجار البربر الذين دخلوا بلاد السودان واستقروا بها، وقد بنيت هذه المدينة على طراز مدن البربر في بلاد المغرب،ولها نفس الخصائص العمرانية، ونفس النمط الحياتي من بناء الدور والمساجد والأسواق التي تحيط بها[3]. ويبدو أن الزنوج تعلموا واخذوا الحضارة من المسلمين، لا سيما ما تعلق بفن ممارسة التجارة، وأنظمة الضرائب المعقدة التي وجدت في حواضر السودان منها جني وتمبكتو وغاو، ولا ريب أنهم اقتبسوها من التجار المسلمين الذين خالطوهم وأخذوا الخبرة منهم[4]

1- **ولاتة:** تأسست هذه المدينة مبكرا في القرن الأول للهجرة/ السابع ميلادي، وهي من مدن شنقيط المهمة في أقصى الجنوب المقابل لشمال تمبكتو على حافة

---

[1]- العياشي، أبوسالم، عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية (**1661-1663م**)، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، (ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006)، 79

[2]- الوزان،الحسن بن محمدالفاسي: المصدرالسابق، 1/ 133

[3]- هوارد، س، المرجع السابق، 23

[4]- المرجع السابق، 27

صنهاجة الصحراء[1].وقد أصبحت هذه المدينة حاضرة ومركزا تجاريا على طريق الصحراء الجنوبي بعد سقوط إمبراطورية غانا سنة 1076م، وقيام مكانها مملكة مالي التي ضمتها إلى حدودها، والجدير بالذكر أن معظم سكانها من التجار والعلماء الذين استوطنوا فيها، جعلوا منها في القرن 8هـ/ 14م مركزا تجاريا مهما[2]. فكانت عبارة عن البوابة الغربية لعبور التجار من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي، وكان لها طريق تجاري مباشر يربط تمبكتو بأقليم توات[3]، واعتبرها مرمول كرباخال من أكبر المدن في السودان الغربي ومستودعا لمادة الذهب نتيجة للتبادل التجاري بينها وبين مدينة جني، حيث تقوم لواتة لاشتهارها بالتمر الجيد، وكذلك المصنوعات النسيجية والمنتوجات المصنوعة من القطن وكثرة الأنعام وزراعة الذرى بتصديرها إلى مدينة جني بالمقابل تستورد منها الذهب[4]. ويلاحظ أن وضع هذه المدينة تغير نحو الأسوء خاصة بعد استيلاء مملكة " السنغاي" عليها في عهد (سني علي)، مما أدى إلى خرابها وهجرة السكان والعلماء إلى تمبكتو، وفي منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي استرجعت هذه المدينة دورها التجاري والعلمي وأصبحت مجددا قبلة للتجار والعلماء الوافدين إليها من فاس، وتلمسان، وتوات، ولعبت القبيلة الكنتية

---

[1]- السعدي،عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، **تاريخ السودان**،(LI BRIRIE D' AMERIQUE ET D'ORIENT ADRIEN MAISONNEUVE , SULL,11.rue, SuLpice, PARIS,1981، 21؛ 198)، (القاهرة: الدارالمصدريةاللبنانية، 1999) ،101

[2]- المبروك الدالي الهادي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن (15م إلى بداية القرن 18م)**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1999) ص،101

[3]- بن موسى جميلة،المرجع السابق،270

[4]- المصدر السابق، 3/ 983 ؛

بزعامة شيخها " أحمد البكاي" ت(909هـ/ 1504م)، دورا مهما في نسج علاقات وصلات تجارية مع توات ومدينة تلمسان[1].

2- تمبكتو: هذه المدينة تأسست سنة 610هـ/ 1200م،من طرف جماعة من الطوارق البربر ينتمون إلى قبيلة مقشرن كما صرح سعدي في كتابه تاريخ السودان[2]، والتي تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى على منحنى نهر النيجر، وتعتبر ملتقى القوافل التجارية الداخلة إلى بلاد السودان أوالخارجة منه، مما جعلها أحدالمراكز التجارية المهمة في الربط بين حواضر المغرب الاوسط ومدن السودان الغربي،لاسيما القوافل التجارية التي تأتي عبر توات.

قام بتأسيس هذه الحاضرة فصيل من صنهاجة الصحراء (التوارق حاليا)، في أواخر القرن، الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي، وكان دافع إنشاؤها أول مرة جعلها سوقا تجاريا لربط صلات تجارية مع زنوج السودان الغربي ومن بعد ذلك تطورت شيئا فشيئا لتصبح من أكبر المدن التجارية والعلمية في شمال السودان الغربي، حيث قصدها كثير من التجار والعلماء واستقروا فيها، ويبدو أنه استكمل بناؤها في عهد الملك اسكيا داوود بن الأمير اسكيا الحاج[3]. وقد أعجبحسن الوزان بوفرة خيراتهامن حوانيت تبيع المنتوجات القطنية والأقمشة المجلوبة من الشمال الإفريقي وأوروبا التي يأتي بها تجار البربر[4].

ويفيدنا السعدي أن تنبكتو أصبحت ملتقى للتجار أصحاب رؤوس الأموال الضخمة من كل البلاد، وخاصة من توات وغدامس، فصارت بذلك سوقا

---

[1]- السعدي،المصدر السابق، 132

[2]- نفسه،20

[3]- نفسه،13

[4]- وصف إفريقيا،1/ 165،166

كبيرة للتجارة[1]. مما أهلها أن تصبح محطة تجارية هامة تحمل إليها السلع من مختلف الأقطار من ملح وتمور وحبوب، وجوز الكولا، التبر، والرقيق[2].

ووصفها كاربخال بأنها تزخر بكثير من الدكاكين للتجارة والصناعة، وكانت أهم تجاراتهم الثياب القطنية التي يستبدلونها بثياب مصنوعة في أوروبا يأتي بها تجار من البربر وكلهم أغنياء مستقرون في المدينة[3]

3-مدينة جني: تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو،يمتد اقليمها من مدينة ساي إلى بحيرة ديبو[4]. هذه المدينة اختصت ببيع ملح تغازة الصنهاجية والواقعة حاليا في موريطانيا قرب أودغشت المدينة التاريخية المشهورة، وفي هذا المركز التجاري كان غالبا ما يتم مبادلة الملح بالذهب مقايضة[5].

تأسست هذه المدينة في القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي،

وأصبحت متطورة ومزدهرة في عهد مملكة مالي وسنغي، ولهذه المدينة موقع استراتيجي غاية في الأهمية نظرا لتوفرها على مقومات طبيعية وموارد مائية هامةمما مكن التجار من اقتناء حاجاتهم من المواد الغذائيةوالتزود بالمياه العذبة الصالحة للشرب، وغنى المنطقة بالكلأ والأعشاب لعلف دوابهم باعتبار هذه الحاضرة يحيط بها غابات كثيفة وانهار روافد لنهر النيجر، واختصت هذه المدينة بسوق مشهور يدعى أروان بلغة البربر له أهمية اقتصادية وتجارية كبيرة يتم فيه عقد

---

[1]- السعدي، المصدرالسابق، 21

[2]- بوفيل، **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، الهادي أبولقمة ومحمدعزيز، (ط2، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس1988)، 308

[3]- المصدر السابق،3/ 202

[4]- حوتية، محمد، المرجع السابق،1/ 306

[5]- نفسه، الصفحة نفسها

الصفقات التجارية الضخمة عن طريق تبادل منتوجات السودان وبضائع المغرب، بين القوافل التي تحمل الذهب من الجنوب وتوات وتندوف، وتوات والأزواد[1].

4- **جاو (أو غاو)**: اشرفت هذه المدينة على حركة الملاحة والتجارة على امتداد نهر النيجر باتجاه الغرب والجنوب، وهي تبعد عن مدينة تنمبكتو بحوالي 400 ميل في اتجاه الجنوب الشرقي[2] منها على ساحل نهر النيجر[3]

أهم ماكانت تنتجه هذه المدينة من النحاس والودع ، يعقد فيها سوق اسبوعي يباع فيها العبيد بسعر رخيص[4]، وتطورت هذه المدينة بشكل كبير في عهد الملك (سني علي) (869-899هـ/ 1464- 1493م)، حيث تحولت إلى أكبر مركز تجاري حول حوض نهر النيجر التي تجمعت فيها بضائع المنطقة كلها وارتادتها القوافل التجارية[5]. وكثير من تجار هذه المدينة يأتون من المناطق الداخلية محملين بالذهب ويستبدلونه في أسواقها بمنتوجات أوروبية ومن الشمال، لكنهم لا يجدون وفرة في السلع لانفاق كل أموالهم[6]. ويبدو أن التجارة كانت حرة في غاو، لاسيما تجارة الخيول الخيول المستقدمة من بلاد المغرب الاوسط، وكذلك تجارة المنسوجات أهمها الثياب الحريرية الحمراء والزرقاء، كما أن التجار الأجانب يحققون أرباحا كبيرة في بيع التوابل والملح[7]

---

[1]- حوتية، محمد، المرجع السابق، 168

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، 1/ 169

[3]- المبروك الدالي، المرجع السابق،302

[4]- الوزان، المصدر السابق، 1/ 170

[5]- المبروك الدالي، المرجع السابق، 310

[6]- كربخال،المصدرالسابق،3/ 204

[7]-نفسه، 205

و- الأثر الثقافي للعلاقات التجارية على الحواضر: كانت الطرق التجارية التي انتشر الاسلام بواسطتها في افريقيا جنوب الصحراء هي حلقة الاتصال التي ربطت المسلمين في مناطق افرقيا الغربية بالمراكز الثقافية والسياسية في العالم الاسلامي[1]

ففي مدينة تمبكتو على سبيل المثال أنشئ فيها مسجدان كبيران كان لهما الدور الأبرز في نشر الثقافة الإسلامية والتعاليم الدينية في السودان الغربي ابتداء من القرن الرابع عشر ميلادي، وهما الجامع الذي بناه الملك منسا موسى، وجامع ساتكوري الذي أصبح فيما بعد أول جامعةتعليمية في إفريقيا جنوب الصحراء،واستوطن أفراد الأسى التي اشتهرت بالتبحر في العلوم الإسلامية بمدينة تمبكتو، وظهر منها علماء ينتمون إلى عقيق أو أقيت أندق محمد[2].

1- حواضر المغرب الأوسط (جنوبيالجزائر اليوم): عرفت قصور توات انتعاشا علميا وحضاريا، حيث كانت تمنطيط مركزا للدراسات الشرعية واللغوية والفقهية، مما جعل كثير من طلاب العلم والعلماء يتوافدون عليها لاسيما من المناطق الصحراوية القريبة منها، والبعيدة كانتقال أبويحي المنياري إليها من المغرب الأقصى (840هـ/ 1437م)،، وسالمبن محمد العصنوني (968ه/ 1561م)، حيث تولى القضاء فيها قبل أن يرحل بعد ذلك إلى السودان الغربي[3]

2- حواضر السودان الغربي: كان للتاجر المسلم دور محوري في نشر الدعوة الإسلامية في السودان الغربي، عن طريق الاحتكاك المباشر بالسكان المحليين وإبراز أمانته الأخلاقية وسموه الروحي المستمد من تعاليم الإسلام مما أثر كثيرا في نفوس الكثير من الناس الزنوج، جعلهم يبحثون عن سر هذا السمو الروحي والرقي

---

[1]- باري فيرايما عثمان، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي،(القاهرة: دار الأمين، 1421هـ/ 2000)، 22

[2]- نفسه، 24

[3]- سالمي زينب، 37

الأخلاقي جعلهم يكتشفون أن السر في ذلك هو دين هؤلاء الإسلام الذي علمهم كل هذه الصفات لينتهي بهم المطاف إلى الدخول في هذا الدين أفرادا وجماعات[1] وكأمثلة على ذلك الشيخ محمد الأميني التواتي (1008هـ- 1654م) الذي كان تاجرا في تمبكتو، وكان عالما ومدرسا وتاجرا، وكذلك الشيخ علي بن حنيني الأنصاري (1115هـ- 1703م) صاحب الزاوية المعروفة بزاجلو، حيث ملك قافلة بلغ تعدادها تسعمائة جمل، كلها تتاجر مع السودان الغربي، ومن أرباحها ينفق على مريدي زاويته وطلبته[2].ومن أبرز هؤلاء العلماء التجار الشيخ أبي الأنوار عبد الكريم التنلالي (1068هـ- 1755م)، الذي كان يتاجر في التمر بين توات والسودان الغربي[3].وتعد خيازة الكتب بصفة عامة كنزا قيما وعظيما في مجتمع السودان الغربي، حيث كان الأثرياء والمقتدرون يقومون بشراء كميات كبيرة من الكتب الدينية والفقهية[4].

وكان من عادة ملوك تمبكتو الحفاوة بالقضاة والعلماء يكرمونهم وينزلونهم منزلة التقدير والتبجيل، وبالمقابل يقوم هؤلاء باهداء مخطوطات مستوردة من بلاد البربر فتحظى بعناية الملوك واقبالهم على دراستها والانتفاع بها، لا سيما ما تعلق بالأحكام الشرعية وسياسة الملوك وفتاوى النوازل المتصلة بالحياة العامة للناس[5]

---

[1]- الهرامة، عبد الحميد عبد الله، أعمال ندوة: **التواصل الثقافي والاجتماعيين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء**، (ط1، الجماهيرية العظمى،طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1499 من ميلاد الرسول(ص)، 1999 إفرنجي)، 297

[2]- مولاي، محمد، **العلاقات العلمية بين تواتو بلاد الساحل الافريقي خلال القرنين(11-12هـ-17- 18م)**: رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2013/ 2014)، 83

[3]- نفسه، الصفحة نفسها

[4]- باري برايا عثمان، **المرجع السابق**، 28

[5]- كارباخال، **المصدر السابق**،3/ 203

دور المصادر الإباضية الوهبية في التأريخ للعلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 6هـ/12م.

أ/ عبد القادر مباركية.
جامعة 8 ماي 1945 قالمة.

شكّلت الجماعات الاباضية محور دراسات أكاديمية كثيرة نظرا للأدوار التي لعبتها في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط –خاصة في المجالين السياسي والاقتصادي– وفي علاقات هذه المنطقة الواسعة بجيرانها الجنوبيين–بلاد السودان–، فالمصادر الاباضية الوهبية، على وجه الخصوص، مصادر ذات أهمية بالغة بالنسبة لموضوع العلاقات الاقتصادية بين ضفتي الصحراء، فما دور هذه المصادر في التأريخ للتجارة الصحراوية وهل قدمت صورة واضحة وشاملة عن سير وتطور التجارة الصحراوية شمال–جنوب وجنوب–شمال؟

ظهر في الفترة الأخيرة باحثون مهتمون بالدراسات الإباضية فأنجزوا دراسات وبحوث وكتب في هذا الإطار، وما تم إنجازه يعد مفتاحا ومرجعية للمهتمين بهذا النوع من الدراسات، إذ لا يمكن إغفالها بأي حال لمن يريد خوض غمار البحث في مثل هذه المواضيع التاريخية، ومن الدراسات المتخصصة المهتمة بتاريخ الاباضية أذكر على سبيل المثال لا الحصر: أعمال الباحث المستعرب البولوني لوفيتسكي (Tadeusz Lewicki) فقد قدم مساهمة كبيرة لا يمكن تجاوزها لكل من يرغب في البحث عن الجانب الاقتصادي لاباضية العصر الوسيط في بلاد المغرب وعلاقاتها التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء[1].

([1])/ من بين دراساته أذكر:

وإلى مساهماته أضيفت دراسات لا بأس بها مثل: دراسة صالح باجية حول إباضية الجريد التونسي[1]، و[2]دراسات عمرو خليفة النامي[3] ودراسات مسعود مزهودي[4]، ودراسة إبراهيم بحّاز حول الدولة الرستمية[5]، ودراسة البلجيكية

-Études maghrébines et soudanaises, Varsovie, Éditions scientifiques de Pologne, 1976-1983, 2vol.

- «Les historiens, biographes et traditionistes ibadites wahbites de l'Afrique du nord», Folia orientalia, 3 (1961), p.1-134.

- «Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord-africains au pays du soudan occidental au moyen âge», Folia Orientalia, 2 (1960), p.1-27.

- «De quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite anonyme», Revue d'études islamiques, 3 (1934), p.275-296.

- «La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du nord au moyen âge», Rocznik Orientalistyczny, 21 (1957), p.301-343.

- « l'État nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8e et 9e siècle », Cahiers d'études africaines, vol.2, 8 (1962), p.513-535.

- «Traits d'histoire du commerce transsaharien, marchands et missionnaires ibadites au soudans occidental et central au cours du 8e au 12e siècles» , Ethnographia Polska, 8 (1964) , p.291-311.

- «Les subdivisions de l'Ibāḍiyya», Studia Islamica, 9 (1958), p.71-82.

(1)/ الإباضية في الجريد التونسي في العصور الإسلامية الأولى، تونس، دار بوسلامة، 1976.

2

(3)/ من بين دراساته أذكر:

-Studies in Ibadism, Thesis-Ph.d, Cambridge University, 1971.

- « A Description of new Ibadi Manuscripts from North Africa », Journal of Semitic Studies, 15 (1970), p.63-87.

(4)/ منها :- جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال، ليبيا، منشورات مؤسسة توالت الثقافية، 2005.

- الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال، غرداية، المطبعة العربية، 1996.

(5)/ الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط3، الجزائر، منشورات ألفا، 2010.

فرجيني بريفو حول إباضية الجنوب التونسي[1] ودراسات علاوة عمارة ضمن ملتقيات علمية ونتاج فرق بحثية[2] وكذا في إطار بحوث ومقالات عديدة[3].

عرفت بلاد المغرب علاقات تجارية ربطتها عبر الصحراء بالأقاليم الجنوبية الواسعة المعروفة ببلاد السودان خاصة الغربي والأوسط وقد دأبت الدراسات الحديثة على ربط عملية أسلمة بلاد السودان بنشاط القوافل التجارية ونسبت هذه العملية المزدوجة إلى الجماعات الإباضية باعتبارها الجماعات التي غامرت باختراق الصحاري الحارة ووصلت إلى المناطق المتاخمة للغابات الاستوائية في إطار التبادل التجاري مع سكان تلك المناطق وكذا ممارسة العمل الدعوي في المجالات التي وصلوا إليها بقوافلهم التجارية.

1- القرن 3هـ/ 9م والقرن 4ه/ 10م غياب تام للتجارة من النصوص الإباضية:

تغيب الإشارات خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين للتجارة الصحراوية بصفة عامة، فقد شهد القرن الثالث ميلاد مصدرين إباضيين الأول ذو طابع تاريخي بينما المصدر الثاني ذو طابع فقهي، يتمثل المصدر الأول

([1])/ L'aventure ibadite dans le sud tunisien .Effervescence d'une region méconnue, Helsinki, Academia scientiarum Fennica, 2008.

([2])/ مؤخرا تم إنشاء فرق بحث متخصصة تشتغل على تاريخ الجماعات الإباضية المغربية خلال العصر الوسيط مثل فرقة (Le Maghribadite ANR), بفرنسا تحت إشراف (Cyrille Aillet).

([3])/ Amara Allaoua, « la structuration des ibadites-wahbites au Maghreb 11e au 15esiècle », Annales Islamologiques , 42 (2008), p.259-273.

- «Remarque sur le receuil Ibāḍite-wahbite siyar al mašā'ih : retour sur son attribution», AAM , 15 (2008) , p.31-40.
- « l'évolution de la théologie ibadite Maghrébine d'après une épitre hérésiographique de la fin de 5e/11e siècle », Ibadi Theology. Rereading sources and scholarly works, George olms Verlag, New York, 2015, pp.93-101.
- « Entre le massif de l'Aurès et les oasis : apparitions, évolutions, et disparition des communautés ibāḍites du zāb (VIII-XIVe), REMMM132, pp. 115-135.

في كتاب بدء الإسلام وشرائع الدين لابن سلام اللواتي (ت 273هـ/ 886م)[1] الذي يعتبر أول مؤلّف محلي في بلاد المغرب يحمل بصمات خطاب تاريخي، ورغم أهميته[2] فهو يفتقر كلية إلى ذكر التجارة والاهتمام بها لأسباب قد تتعلق أساسا بمصادر المؤلف في كتابه هذا، ورغم تنّوع مصادره فالمؤلف لم يجهد نفسه للبحث عن روابط وأصول علاقات بلاد المغرب بالسودانين الغربي والأوسط أو أن المصادر التي اعتمد عليها أهملت هذا الجانب المشرق من تاريخ المذهب وأخبار رجاله، فكتابه خالي من أي إشارة سواء ما تعلق بعملية الأسلمة أو ما بعد الأسلمة خاصة العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء ودور الإباضية في الربط بين المنطقتين اقتصاديا وثقافيا. رغم أن المؤلف عاش في فترة ازدهار في تاريخ علاقات الشمال بالجنوب وهي فترة الرستميين، ولكن قراءات عديدة في محتوى الكتاب تجعلني أرجّح أن الأحداث والتطورات السياسية التي عرفتها بلاد المغرب في الفترة التي عاش فيها المؤلف أثرت على تأليفه وغطّت على علاقات هذه البلاد بما وراء

([1])/ المعلومات عن هذا المؤلف قليلة لا تكاد تتعدى ما ذكره ابن سلّام نفسه في كتابه من أخبار تتعلق به، وهي في أغلبها مقيدة بتأطير زمني محدد تبيّن أهم تحركاته والشخصيات التي التقى بها واستقى منها أهم الروايات الشفوية التي من خلالها باشر بناء هيكل كتابه. ينتمي هذا المؤلف إلى عائلة اهتمت بالتأريخ لإباضية المغرب في الفترة الإسلامية الأولى، اشترك أغلب أفراد عائلته إلى جانب أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في معركة مغمداس سنة 142ه/ 759م. ينظر: ابن سلام، بدء الإسلام وشرائع الدين، تح: فيرنر شفارتز وسالم بن يعقوب، فرانز شتايز، فيسبادن، 1986، ص: 118.

([2])/ يعتبر الجزء الثالث والذي خصصه المؤلف لأخبار المذهب الإباضي الجزء الأهم في الكتاب كله، فهو دون شك من إنتاج ابن سلّام وتأليفه لما يتوفر عليه من إشارات واضحة تتعلق بالمؤلف وعائلته (جده وأباه). ينظر: ابن سلام، نفسه، ص: 14.

الصحراء لذلك تغيب المعلومات عن علاقات الشمال بالجنوب ويتعذّر الحصول على معلومات تتعلق بالتجارة بين ضفتي الصحراء إذ لا وجود لذكر ما وراء الصحراء تاهيك عن التجارة وطرقها[1].

أما المصدر الثاني[2] فيتمثل في أجوبة علماء فزان[3]، فرغم اشتمال هذا المصدر على ألفاظ ومصطلحات توحي بقوة العلاقات مع الضفة الجنوبية وتعبر عن وجود

([1])/ رغم افتقاره للمعلومات حول الجوانب الاقتصادية يبقى هذا الكتاب قاعدة وركيزة للكتابة التاريخية ببلاد المغرب خلال القرون الموالية خاصة عند المؤلفين الإباضيين. لمعلومات أكثر ينظر:

- Ennami, A. K., « A Description ...», op.cit, p.63-87.

*وكذلك: الوارجلاني، الدليل والبرهان، تح: الشيخ سالم بن حمد الحارثي، ط2، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، 2006، ج2، ص:97-98. وكذلك: الشماخي كتاب السيّر، تح : محمد حسن، ليبيا، دار المدار الإسلامي، 2009، ج2، ص: 244-245 .وكذلك: تاديوش لوفيتسكي، المؤرخون الإباضيون في شمال إفريقيا، ترجمة: ماهر جرار وربها جرار، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2007، ص: 72.

([2])/ جنّاو بن فتن المديوني وعبد القهار بن خلف، أجوبة علماء فزان، تح: عمرو خليفة النامي، إكمال إبراهيم محمد طلاي، قسنطينة، دار البعث، 1991.

([3])/ أصل هذا الكتاب عثر عليه المحقق ضمن مجموع يضم إلى جانب أجوبة جنّاو بن فتن المديوني وعبد القهار بن خلف، أجوبة أخرى تتمثل في أجوبة الشيخ محمد بن بكّار الفزّاني، غير أنه فصل الأولى عن الثانية كونها (الأولى) حققت من مخطوطة أصلية وتتميز بأنها أجوبة في شكل رسائل إخوانية وعظية إضافة إلى صبغتها الفقهية، بينما أجوبة الأخير أي بكّار بن محمد الفزّاني تبين استنادا لما جاء عند الشماخي أنها نقلت من كتاب ضاع على الأرجح حيث يقول: "ومنهم بكّار بن محمد الفزّاني واطّلعت له على مسائل نقلت من كتابه"، ما يعني أن الناسخ الذي نسخ الأجوبة نقل أجوبة محمد بن بكّار من كتاب هذا الأخير وضمّها إلى جانب أجوبة جنّاو وعبد القهار، وتم الاحتفاظ بمجموعة مسائل هي التي جاءت ضمن المخطوطة في شكل رسائل تبادلتها أربع شخصيات هي: جنّاو بن فتن المديوني، عبد القهار بن خلف، أبو يوسف وريون بن الحسن، وشخص آخر مجهول

حراك تجاري نشيط لما يتوفر عليه المصدر من إشارات تتعلق بذكر العبيد والإماء والمعادن الثمينة[1]، غير أن ذلك جاء بصفة عامة غالبا ما يتكرر في كتب الفقه الإسلامي دون أن يتضمن ذلك أي إشارة من شأنها أن تدل على مصدر هذه السلع ولا الطرق التجارية التي من خلالها تم جلب العبيد مثلا ولا أهميتهم كسلعة في التجارة ودورهم في المجتمع المغربي في هذه المرحلة، كما أن التعامل مع هذه الأجوبة لا يعطينا أي معلومة تتعلق بالتجارة المغربية نحو إفريقيا جنوب الصحراء، ولا شبكة الطرق المستغلة في هذا الشأن فالغرض منها كان فقهيا بحتا، ويبدو كذلك أن هؤلاء الفقهاء بعيدين كل البعد عن الطرق التجارية المعروفة، وليس لهم علاقة بالتجار حتى يستقوا منهم معلومات تجارية أو لتلقّي استفسارات تتعلق بالبيوع وأحكامها مثلا.

لقد أثمرت جهود الدعوة الشيعية قيام خلافة قوية ببلاد المغرب، فكانت بذلك نهاية القرن 3ه/ 9م إيذانا بسقوط ثلاث دول كان لها أثر كبير في سيرورة الأحداث التاريخية ببلاد المغرب، وهي : دولة الأغالبة، دولة الرستميين ودولة بني مدرار. وخاصة الدولتين الأخيرتين باعتبارهما يشرفان على طريقين تجاريين باتجاه السودانين الغربي والأوسط[2]، فهل كان لذلك أثر ملموس على مستقبل التجارة العابرة للصحراء؟

الهوية من المرجح أن يكون من علماء فزّان عاش في القرن 3ه/ 9م، وضم الكتاب بين دفتيه ست رسائل. ينظر: الشماخي، المصدر سابق، ج2، ص: 324.

(1)/ بعد الإطلاع على المصدر سجلت 8 إشارات تتعلق بالعبيد و4 تتعلق بالرقيق وإشارتين للإماء و3 إشارات للذهب والفضة ينظر: أجوبة، المصدر السابق، الصفحات: 56-57-61-62-71-76-86-100.

(2)/ ينظر: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص: 332-383. وكذلك ينظر: محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، نصر، دار الفكر العربي، دت، ص: 27-29.

لم تقتصر عملية إسقاط الإمامة الرستمية على الجانب السياسي فقط، بل تعدّت ذلك إلى إعدام الإنتاج الفكري الإباضي بإقدام أبي عبد الله الدّاعي على حرق مكتبة المعصومة[1]، ربما هذا الفعل من شأنه أن يعلّل غياب الإنتاج التاريخي والتراجمي الإباضي في ق 4ه/ 10م، فتفكّك الدولة بسقوط العاصمة تاهرت[2]، وفقدان الإرث الثقافي دعّمه غياب الاستقرار السياسي، حال دون الاهتمام بالكتابة في شتى المجالات، ولم يكن للإباضية بعد سقوط دولتهم من هدف سوى خلق وحدة ثقافية اجتماعية تعوضهم خسارة إمامة الظهور، ولذلك يتعذّر الخوض في موضوع العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء بدقة ووضوح من خلال الإنتاج الفكري للجماعات الإباضية، فتراجع دور تيهرت الاقتصادي وفقدانها لمكانتها وعلاقاتها مع الضفّة الجنوبية سمح لحواضر أخرى النهوض كعواصم إقليمية، فقد فرّ من نجا من الإباضية خاصة أفراد السلطة الحاكمة إلى واحات وارجلان وسدراتة[3]، واتخذوها عاصمة لهم وانتشروا في واحات الصحراء ليؤسسوا بذلك شبكة اتّصال صحراوية

([1])/ حول هذه المكتبة ينظر: موسى لقبال، "من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى مكتبة المعصومة بتاهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار بني وارجلان"، مجلة الأصالة، 41 (1977)، ص: 51-59.

([2])/ حول أسباب سقوط الدولة الرستمية ينظر: إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية، مرجع سابق، ص: 141-169.

([3])/ ينظر: مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص: 39-47. وكذلك: حول مناطق التي توزع عليها الإباضية ينظر:

- Tadeusz Lewicki, « La répartition géographique... », op.cit, p.301-343.

- Virginie Prévost, « La renaissance des ibadites wahbites à Djerba au 10e siècle », Folia Orientalia, 40 (2004), p. 171-191.

وأصبحت وارجلان وجبل نفوسة معقلين هامين للإباضية صمدا في وجه ضربات الدولة الفاطمية التي لم تستطع -رغم جهودها العسكرية- القضاء عليهما[1].

2- التجارة الصحراوية في مصادر القرن 5هـ/ 11م:

رغم الصعوبات التي عرفتها الجماعات الإباضية والحروب التي خاضتها منذ نهاية القرن 3هـ/ 9م إلى النصف الثاني من القرن 4هـ/ 11م[2] فقد استطاعت

([1])/ ينظر: محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف ق4هـ ط2، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985، ص: 234.

([2])/ نجح الإباضية في الإبقاء على تواجدهم في بلاد المغرب كجماعة مذهبية رغم الصعاب التي اعترضت سبيلهم خاصة من قبل الفاطميّين المناوئين للفكر الإباضي، فاستقرارهم بالواحات والجبال الوعرة أعطاهم فرصة الاستمرارية رغم الثورات والانتفاضات الكبرى التي شاركوا فيها في ق 4هـ/ 10م- والتي استهلكت منهم الكثير- في محاولاتهم للقضاء على النظام الفاطمي المتعصّب، مثل ثورة أبي يزيد النكّاري المعروف بصاحب الحمار المتحالف مع عدة جماعات مذهبية لمحاربة الشيعة، ينظر: حول تحالف أبو يزيد النكاري مع جماعات في خلاف مذهبي معه مثل السنة: موسى لقبال، "الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/ 10م وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية والزاب والحضنة والأوراس "، مجلة الأصالة، 50-61 (1978)، ص: 55-64. ينظر كذلك: إحسان عباس، "مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد"، مجلة الأصالة، 41 (1977)، ص: 25-42. وقد ساهم هذا الفشل العسكري الذّريع للجماعات الإباضية في تصفية معظم جماعاتها وتبديد شملها باستثناء جماعة واحدة استمر تواجدها، وهي جماعة الإباضية الوهبية، التي أخذت على عاتقها مهمة إحياء الموروث الفكري والثقافي للمذهب بعد تأسيسها لمرجعية دينية اجتماعية وثقافية ممثلة في نظام العزابة منذ بداية القرن 5هـ/ 11م، على يد العالم أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي، هذا النظام الجديد لعب دور كبير في إعادة إحياء الوحدة الثقافية والإجتماعية لجماعة الوهبية، وترميم ذاكرتها الجماعية عن طريق الحلقات التي شكلت نمطا تعليميّا ناجحا أتى أكله منذ النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م بظهور أدب السّير (البيوغرافيا) كشكل من أشكال تدوين الذاكرة الجماعية بهدف إحياء شمائل شيوخ المذهب وأخبارهم، حيث نجد في هذه الفترة بالضبط

الاستمرار والتواجد ببلاد المغرب بفضل تأسيسها لمرجعية دينية اجتماعية وثقافية ممثلة في نظام العزابة منذ بداية القرن 5هـ/ 11م ومن ثمار هذا النظام المحكم الذي اتبعته جماعة الوهبية ميلاد عدة مصادر مثل سير المزاتي[1]، سيرة أبي زكرياء، سير الفرسطائي.

ثمرتين لنظام العزابة تتمثلان في: كتاب السيّر للمزاتي (ت 471هـ/ 1078م)، وكتاب السيّرة لأبي زكرياء الوارجلاني (ت بعد 474هـ/ 1081م).

([1])/ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي من علماء الإباضية وشيوخها، ينتمي إلى مزاتة كما هو واضح من نسبته، تاريخ ميلاده غير معروف بدقة، تتلمذ على يد أبي عبد الله محمد بن بكر في تين يسلي ثم انتقل إلى جربة ودرس على يد أبي محمد ويسلان، وبعد إتمامه التحصيل عاد إلى تمولست وباشر التدريس في حلقة حيث تتلمذ عليه الكثير من التلاميذ الذين أصبحوا شيوخا فيما بعد، منهم أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني، من مؤلفاته كتاب السيّر وهو كتاب وضعه المؤلف في طلب العلم وآداب المتعلم، توفي هذا العالم سنة 471هـ/ 1078م، ينظر: الوسياني، مجموعة السير، تح: عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، عمان، وزارة التراث والثقافة، 2009، ج1، ص: 383. وكذلك: الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، قسنطينة، دار البعث، 1974، ج2، ص: 425-429. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 603. وكذلك: إبراهيم بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية، غرداية، المطبعة العربية، 1999، مج3، ص: 444-448. وكذلك: لوفيتسكي، المؤرخون، مرجع سابق، ص: 65-68. إنّ المتأمل في سيّر المزاتي يدرك جيدا أن السيّر كفنّ عند هذا الشيخ لم يوظّف في معناه الدقيق، وهو تناول حياة الشيوخ اللامعين ومآثرهم، بقدر ما كان نقلا لتجربة التعليم بنظام الحلقة، فهذا الكتاب عبارة عن تأصيل ووضع لأسس العملية التعليمية المتّبعة لدى جماعة الوهبية. لقد بادر المزاتي بوضع كتاب مرجعي لنظام الحلقة متأثرا بنظام شيخه محمد بن بكر الفرسطائي ولذلك قال عنه لوفيتسكي: "نظام الحلقات حفظه أبو الربيع في كتابه"، إذن لماذا سمي الكتاب بالسيّر رغم أنه يتناول طلب العلم وآداب المتعلم؟ لأن هذا الكتاب في الحقيقة ما هو إلا مجموعة من أقوال مشائخ المؤلف خاصة أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور تتعلق بطلب العلم وشروطه وآداب المتعلم وفساد آخر الزمان، من هذا المنطلق جاء كتاب المزاتي ليصور لنا أهمية طلب العلم وآداب ذلك، فهو لم يبتعد محيط الحلقة وآدابها وتابع من حِكم شيوخها المشاهير

- **أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت بعد 474هـ/ 1081م)[1]، السيّرة وأخبار الأئمة[2].**

سأعرض ثم أناقش ما أتى به أبو زكرياء من نصوص وإشارات حول التجارة بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء وما يرتبط بها من ذكر للشخصيات الفاعلة في النشاط التجاري والمواقع والطرق والسلع.

- **النص الأول[3]:**

الذين ساهموا في بناء هذا النظام التعليمي الاجتماعي ولذلك نجد الكتاب في منأى عن اقتصاديات الجماعة وأنشطتها التجارية.

([1])/ أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الوارجلاني من علماء الطبقة العاشرة، عاش بين 450-500ه/ 1058-1107م في وارجلان كما يتضح من نسبته، يعتبر من التلاميذ الأوائل الذين استفادوا من نظام العزابة وتخرّجوا من حلقاته، من شيوخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي المتقدم ذكره درس عليه في وادي أريغ، توفي الوارجلاني بعد سنة 474ه/ 1081م آخر تاريخ ذكره في كتابه السيّرة وأخبار الأئمة، تكمن أهمية هذا الكتاب وقيمته كونه يتناول تاريخ المذهب الإباضي وانتشاره ببلاد المغرب إلى سقوط الرستميين وعلاقة الإباضية الوهبية بالفرق الأخرى إلى غاية سنة 474ه/ 1081م. ينظر: مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 229. وكذلك: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 448-451. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 621. كذلك: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج4، ص: 948-950.

([2])/ الكتاب يتكون من قسمين وحقق مرتين. التحقيق الأول على يد إسماعيل العربي سنة 1979 حيث حقق القسم الأول بعنوانه وفي سنة 1985 حقق القسم الثاني لكن عنونه بسير المشائخ ونسبه للوسياني على أساس أنه الجزء الثاني من المجموع. التحقيق الثاني قام به عبد الرحمان أيوب سنة 1985 ونسب كلا القسمين لأبي زكرياء لكن الحقيقة أن القسم الثاني للوارجلاني نسبةً هو نفسه الكتاب الثالث من مجموع السير للوسياني نسبةً إذ ليس من تأليفهما فهو من تأليف الفرسطائي وهذا ما سنعرفه فيما بعد.

([3])/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 208.

"فلما وصل[1] إلى أبي تميم[2] وجده في قبة حمراء على سرير قوائمه عظم الفيل".

من خلال النص يتضح وجود حالة من الرفاه والغنى بلغتها الدولة الفاطمية، فالمعز لما استقبل أبي نوح في قصره كان جالسا في قبة حمراء على سرير قوائمه مصنوعة من عظم الفيل (أنياب الفيل؟) وهي دون شك من السلع المجلوبة من بلاد السودان، ولا يمكننا استنطاق النص بأكثر مما يحمله من معلومات، لكن يبدو أن عظام الفيل سلعة مجلوبة عبر الطريق الغربي الذي سيطرت عليه الدولة الفاطمية بسيطرتها على مدينة سجلماسة[3].

([1])/ يقصد به أبي نوح سعيد بن زنغيل وهو من علماء الوهبية بالجريد التونسي، تعلم على يد أبي القاسم يزيد بن مخلد وأبي خزر يغلى بن زلتاف، شارك في معركة باغاي مع أبي خزر انتقاما لمقتل أبي القاسم سنة 358ه/ 969م، وبعد الهزيمة اختفى مدة وقبض عليه وسجن ثم أمّنه المعزّ وعفا عنه، وفرّ مرة أخرى إلى وارجلان لما أراد المعزّ الرحيل إلى القاهرة وبها أكمل بقية عمره من المرجح أنه توفي أواخر القرن 4ه/ 10م ينظر: نفسه، ج1، ص: 201-221. وكذلك : مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 335. وكذلك: الدرجيني، مصدر سابق، ج1، ص: 126-139. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 536. معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج3، ص: 364-367.

([2])/ أبو تميم هو المعزّ لدين الله الفاطمي ولد سنة 319ه/ 931م، تولّى زمام السلطة في البلاط الفاطمي سنة 342هـ/ 953م، يعتبر المسؤول عن تصفية أبي القاسم، توفي سنة 365ه/ 976م بالقاهرة ودفن فيها ينظر: تامر عارف، المعز لدين الله الفاطمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982، ص: 67.

([3])/ ينظر: موسى لقبال، مرجع سابق، ص: 367-374.

- النص الثاني[1]: " فسألني[2] عن أبي خزر رضي الله عنه[3] فقال لي: أين صاحبك يغلى؟ فقلت له لا أدري فقال لي: لو كان صاحبك بغانة[4] لجابته دراهمنا".

([1])/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 210.

([2])/ المتكلم هنا هو أبي نوح يتحدث عن حواره مع أبي تميم.

([3])/ أبو خزر هو يغلى بن أيوب المعروف بابن زلتاف نسبة إلى أمه من علماء الإباضية من الحامة بالجريد التونسي، كان من العلماء البارزين إلى جانب صديقه العالم أبي القاسم يزيد بن مخلد، وبعد تصفية هذا الأخير من قبل النظام الفاطمي، نظّم انتفاضة ضد هذا النظام بعد أن بويع بإمامة الدفاع، وحشد أنصاره في باغاي بالأوراس لكن ضعف العدة سبب لهم الهزيمة سنة 358ه/ 969م، وفرّ يغلى إلى جبل تشارّت غير بعيد عن مكان المعركة ومنه إلى جبل نفوسة، وبعد مدة أمّنه المعز واستدعاه سنة 359ه/ 970م، وأخذه معه إلى مصر وبها توفي سنة 380ه/ 990م ألّف كتاب بعنوان "الردّ على جميع المخالفين"، ينظر: الوارجلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 196-221. وكذلك: الوسياني، مصدر سابق، ج1، ص: 339. وكذلك: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 339. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 523. وكذلك: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج4، ص: 1001-1004.

([4])/ غانة مملكة شكّلت أوّل تنظيم سياسي متطور في السودان الغربي الوسيط، لم تظهر في الكتابات العربية بصورة واضحة إلا في القرن 5هـ/ 11م على يد الجغرافي الأندلسي البكري، أما عن حدود هذه المملكة فهي تمتد من نهر السينغال غربا إلى نهر النيجر شرقا، ومن الشمال بلغت مجالات القبائل البربرية الصحراوية، ومن الجنوب في أقصى اتساعها كادت أن تصل الغابات الإستوائية، ويبدو أن الإسلام لم يبلغها حقيقة إلا بعد القرن 5هـ/ 11م وهذا لا ينفي دخوله أراضي المملكة منذ القرن 3هـ/ 9م ليجد أتباع ويبتنى له مساجد ويجتمع المسلمون في مدينة واحدة كما جاء وصفها لدى البكري وهذا كله دليل على وجود جالية مسلمة نشطة تجاريا ودعويا ولها نفوذ في البلاط الغاني ولا يستبعد أن يكون أحد المساجد التي ذكرها البكري للإباضية وأهل الدعوة منهم. ينظر: البكري، المسالك والممالك، تح: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، مج2، ص: 363. ينظر كذلك : مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر: سعد عبد الحميد زغلول، بغداد، دار

يؤكد المعز في هذا النص لأبي نوح بعدم جدوى الاختفاء والهروب نظرا للقوة الاقتصادية التي تتمتع بها الدولة الفاطمية، وقد ذكر له مملكة غانة كأبعد نقطة يمكن لأبي خزر الهروب إليها، ومع ذلك فبإمكان الدولة جلبه بأموالها وعلاقاتها الخاصة، وهذا يدل على وجود علاقات اقتصادية وربما سياسية وثيقة تربط دولة الفاطميين بهذه المملكة، وأن الفاطميين يستعملون الدراهم (العملة) في التعامل التجاري، ومن المرجح أن تواصل الفاطميين بغانة كان يتم عبر سجلماسة نظرا لحيوية الطريق الغربي[1] وقصر المسافة وإشرافه على مناجم الملح والذهب ولربما المعز هذا الكلام على مسامع أبي نوح ليستدل على قوة الدولة الاقتصادية وعلاقاتها التجارية مع مملكة غانة فحسب، بل كذلك ليرهبه بقوة استخبارات الدولة الفاطمية وقدرتها على تتبع أثر مناوئيها، وفعلا فقد تمكنت عيون الدولة من إلقاء القبض على أبي نوح وهو متنكر في زي راعي إبل[2] وكذا تتبع أبي خزر ورصد مكانه بجبل نفوسة[3].

الشؤون الثقافية العامة، ص: 219-220. كذلك: أحمد الشكري، مملكة مالي الإسلامية، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1999، ص: 109. وكذلك هناك دراسات كثيرة عن تاريخ غانة وأسلمتها مثل: أحمد الشكري، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997، إبراهيم طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، الهيئة الإسلامية العامة للتأليف والنشر، 1970.

([1])/ ينظر حول الطريق الغربي: الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2007، ص: 277-280.

([2])/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 206.

([3])/ نفسه، ج1، ص: 213.

- **النص الثالث**[1]:

"ثم إن علي بن يعقوب لما وصل إلى جبل نفوسة[2] وأخذ على تلك الناحية بات بقرية خالية الذكر في الجبل، فيها عجوز ذات فضل يجتمع عليها أهل تلك القرية فيستفتونها، وكان حيال بيت العجوز مصلّى، قال علي بن يعقوب: فصليت فيه صلاة الصبح مع أهل المنزل. فتفرق الناس وبقيت وحدي، وقعدت في موضع أقرأ فيه من القرآن ما تيسّر، إذ غلبني النوم فنبهتني قراءة لا أرى شخص قارئها، وذلك قبل طلوع الشمس فأحسست بحس تحريك ثياب جديدة ففزعت. فتكلم إلي فقال: « لا تفزع إني رجل من الجن » فسألته عن الأخبار.... فسمعت العجوز، فتعجبت، فقالت: "سبحان الله". ثم إني اشتكيت إليه أمر الخوف والطريق، فقال لي «تعلم هذه الآية: قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل...الآية » فأخذ يعلمني فيقرأ فأتبعه ويكررها حتى حفظتها منه، فقال أعد علي فأعدت عليه، فقال لي قد حفظت، ....ثم أنه مضى عني.....فتنحيت إلى خربة فنمت فيها فلما انتبهت أتيت العجوز....فقالت لي: أين تغيبت وقد جاءني الجني فدخل علي وسألني عنك فقلت لا أدري فرمى علي بحصيات...قال علي بن يعقوب فأخذتها فوجدت عليها خطّا رقيقا لا أكاد أتبينه

([1])/ نفسه، ج1، ص: 262-264.

([2])/ بعد أن أتمّ علي بن يعقوب مهمّته خرج من طرابلس إلى جبل نفوسة وهو عبارة عن سلسة جبلية تحيط بطرابلس طولها 200كم، مساحته 4000كم²، ويتكون الجبل من مدن وقرى كثيرة، استوطن الجبل قبيلة نفوسة ومنها أخذ تسميته. ينظر: مسعود مزهودي، جبل نفوسة، مرجع سابق، ص: 21-24. وينظر كذلك: جون ديبوا، جغرافيا جبل نفوسة، تر: عبد الله زارو، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2005، ج1، ص: 35-39. وكذلك ينظر: مفتاح صالح بن معيوف، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2006، ص: 21-25.

قمضيت[1] واشتريت من تلك البلاد كسوة أنطاكية، فأخذت على ناحية نفزاوة[2] ومعي صاحب. فأخذني على طريق بشري حين صدرنا من نفزاوة إلى تقيوس[3]. فلما توسطنا السيخة فإذا بخيل بمقابلتنا لا نستطيع الهروب ولا

([1])/ صاحب الرواية أسهب في تفاصيل الحوار الذي دار بين علي بن يعقوب والجني بالمسجد، دون شك هذه الرواية تهدف إلى إضفاء طابع قداسي على شيوخ المذهب وهي ميزة تميزت بها الكتابة التاريخية الإباضية بعد ق 3ه/ 9م كونها أصبحت كتابة تمجيدية لا تتورّع عن توظيف الأسطورة والخرافة وإن كانت تمس بقيمة العالم ومكانته العلمية. لقد أشار عبد الرحمان أيوب إلى وجود أحداث أسطورية في سيرة الوارجلاني حيث يقول: " ولقد راودتني نفسي مرارا بأن أسقط من النص الأحداث الأسطورية والمسندة لشيخ من الشيوخ والتي تبدوا نشازا "، أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، مقدمة التحقيق، ص: 16. ينظر كذلك حول الكتابة التاريخية الإباضية: علاوة عمارة، "الكتابة التاريخية في المغرب الإسلامي الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، 32 (2004) ،ص: 330-370.

([2])/ ناحية نفزاوة وهي منطقة ببلاد الجريد جنوب تونس الحالية، يبدو أنها أخذت التسمية من اسم قبيلة نفزاوة وتعتبر مدينة جادو من أقرب مدن جبل نفوسة إليها، لذا أرجح أن يكون علي بن يعقوب قد بات في إحدى قرى جادو ثم اتجه نحو نفزاوة، وتعتبر مجالات نفزاوة المنطقة الفاصلة بين جبل نفوسة وبلاد الجريد ويستغرق السيّر عبرها ستة أيام. ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تح: مجموعة محققين، مكتبة الثقافة الدينية، دت، ص: 283. وينظر: صالح معيوف مفتاح، مرجع سابق، ص: 62. وكذلك: محمد حسن: الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004، ص: 38.

([3])/ تقيوس وهي إحدى مدن بلاد الجريد جنوب تونس قديما "Theges" وتسمى حاليا "ودقاش"، وتقع على الخط الرابط بين نفزاوة وجادو وبالتالي يكون علي بن يعقوب قد مر بجادو في طريقه نحو تقيوس عبر بشري مرورا بسيخة تاكمرت وكلها مناطق ببلاد الجريد التونسي. وقد وصفها الإدريسي بقوله: " تقيوس مدينة حسنة تقع بين الحامة وقفصة وهي مدينة عامرة لها غلات وبها نخل ومنها إلى قفصة مرحلة". ينظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص: 277. ينظر كذلك: الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص: 156.

نجد ما يسترنا عنهم فأخذنا إليهم الطريق فأخذوه إلينا فلما وصلناهم حلّقوا علينا وكنت أقرأ الآية التي علّمني إياها الجني وكان على تلك الخيل أمير فتكلم إلينا فتطلع وتصعد فينا بصره من فوق إلى أسفل حتى غشيني لعاب فرسه والكساة الأنطاكية على عاتقي فسألنا من أنتم؟ فقلنا تلامذة فقال: امضوا على طريقكم راشدين قال علي: "فمضيت وكنت أتوقع أن يقول لي دع الكساة فخلّصنا الله منهم فكانت معنا تلك الحصيات حتى وصلت بها إلى بلاد تادمكت[1]..."

من خلال تحليل النص يمكننا استخلاص مراحل الطريق الذي سلكه علي بن يعقوب نحو تادمكت بالسودان الأوسط انطلاقا من جبل نفوسة على النحو التالي:

من جبل نفوسة (جادو) إلى نفزاوة ومنها إلى تقيوس مرورا ببشري وسبيخة تاكمرت (6 أيام) ثم إلى وارجلان عبر أسوف وأريغ (14 يوم) ومنها إلى تادمكت بالسودان الأوسط عبر الهقار (50 يوم) وبالتالي يكون علي بن يعقوب استغرق في رحلته إلى تادمكت من جبل نفوسة 70 يوما[2]، لكن

([1])/ بلاد تادمكت=تادمكة=السوق حاليا، وهي مدينة وسوق تجاري مشهور في السودان الأوسط في سفح أدرار إيفوغاس موغلة في الصحراء تبعد عن وارجلان بمسيرة 50 يوما ترتبط بعدة طرق تجارية نشطة منها طريق القيروان عبر وارجلان ومنها 14 يوم إلى قسطيلية ومنها 7 أيام إلى القيروان وبالتالي تستغرق الرحلة 71 يوما، وطريق طرابلس 40 يوما في الصحاري إلى غدامس ومنها إلى جبل نفوسة 7 أيام ومن نفوسة إلى طرابلس 3 أيام وبالتالي تستغرق رحلة تادمكت طرابلس عبر غدامس حوالي 50 يوم. ينظر: البكري، مصدر سابق، مج2، ص: 371.

([2])/ البكري، مصدر سابق، مج2، ص: 372. ينظر الخريطة من وضع المحقق: الشماخي، مصدر سابق، ج1، ص: 92. ينظر كذلك: صالح مصطفى مفتاح، ليبيا من الفتح العربي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، 1978، ص: 216-217.

لماذا لم يسلك طريق غدامس فمن طرابلس إلى تادمكت عبر غدامس تستغرق الرحلة كما رأينا 50 يوم فقط؟ ربما الطريق لم يكن آمنا فحواره المزعوم مع الجني يثبت أنه كان خائفا من انعدام الأمن، ومن المستبعد أن يكون ابن يعقوب قد سلك الطريق الغدامسي[1] باعتباره ينطلق مباشرة من شروس إلى غدامس ولا يستدعي الذهاب إلى غاية تقيوس، وهذا يوصلنا إلى نتيجة مفادها أن صاحب الرحلة عاد أدراجه إلى المكان الذي انطلق منه من نفوسة عبر بلاد الجريد بحيث مرّ بأسوف ثم أربغ ثم وارجلان ومنها اتجه إلى تادمكت، لكن ما هي أسباب هذه الرحلة؟ في الحقيقة تتكتّم الرواية عن دوافع ابن يعقوب من رحلته فالرّجل على الأرجح لم يسافر نحو تادمكت من أجل التجارة، لكننا نرجّح أنه كان في رحلة دعوية باعتباره فقيه وهبي، أو على الأقل كان بصدد زيارة أهل الدعوة في تادمكت ومهما كانت دوافع الرحلة فالأكيد أنه يوجد طريق تجاري يربط جبل نفوسة بتادمكت عبر بلاد الجريد التونسي خلال القرن 5هـ/ 11م[2].

إذن النصوص السابقة من الأول إلى الثالث عثرت عليها ضمن الجزء الأول من سيرة أبي زكرياء الوارجلاني بتحقيق عبد الرحمان أيوب، أما عن الجزء الثاني الذي حُقّق ضمن سيرة أبي زكرياء فقد ظهرت دراسة حديثة سنة 2008[3] نفت أن يكون من تأليفه ولا من تأليف القنطراري كما يرى محقق

([1])/ سمي بالغدامسي لأنه ينطلق من شروس ويمر عبر غدامس ويسمى كذلك بالطريق السوداني، ينظر: إبراهيم بحاز، مرجع سابق، ص: 264.

([2])/ ينظر: الناني، مرجع سابق، ص: 280-283. ينظر كذلك: إبراهيم فخار، " تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى"، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984، ص: 47-68.

([3])/ Amara Allaoua, « Remarque sur le receuil ibâdite… », op.cit.p.31-40.

مجموع السير وخلصت الدراسة بعد جهد من البحث والتدقيق إلى أنه من تأليف أبي العباس أحمد بسن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي (ت 504ه/ 1110م)، ويأتي من الناحية الكرنولوجية في المرتبة الأولى ضمن مجموع السير فقد تم تأليفه في النصف الثاني من القرن 5ه/ 11م وسأشير إلى ذلك في الوقت المناسب.

- **أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي (ت 504هـ/ 1110م)، السيّر[1].**

من علماء وارجلان أصله من جبل نفوسة، ابن مؤسس نظام العزابة محمد بن بكر، من شيوخه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471ه/ 1078م)، ألّف الكثير من الكتب أشهرها القسمة وأصول الأرضين توفي سنة 504ه/ 1110م[2]. من تأليفه كذلك السيّر المنسوب لأبي زكرياء ألّفه في النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م، وعليه سأعرض نصوص هذا الكتاب بشكل وترقيم مستقلين عن نصوص أبي زكرياء الوارجلاني.

- **النص الأول[3]:**

"...وقيل إن عبد الله بن الأمير[4] طلع ذات مرة من جربة فشيّعه أهل جربة وفيهم أبو القاسم يونس بن أبي زكرياء فلما قربوا من البحر رفع أبو

---

(1)/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 763-917.

(2)/ ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج2، ص: 95-98.

(3)/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج2، ص: 291.

(4)/ أبو محمد عبد الله بن الأمير اللمائي ترجم له الدرجيني ضمن علماء الطبقة التاسعة 400-450ه/ 1010-1058م. ينظر: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 414.

القاسم عبد الله...حتى أدخله القارب، فنظر إليه قوم من العامة...فقالوا: انظروا إلى يونس بن أبي زكرياء قد حمل الأسود على ظهره".

من خلال الرواية نلاحظ أن عبد الله بن الأمير كان أسود اللون لأن أمه آمة جلبت من بلاد السودان، وهو الأمر الذي جعله عرضة للسخرية من قبل سكان جزيرة جربة، وما يستفاد به من هذه الرواية أن تجارة العبيد في بلاد المغرب أثّرت مع مرور الوقت على التركيبة الاجتماعية لمجتمعات بلاد المغرب خاصة لدى الجماعات الإباضية، لأنها مهتمة بتجارة العبيد مع الضفة الجنوبية.

- **النص الثاني**[1]: في حديثه عن الغاية[2] امرأة أبي القاسم[3]

أحد شيوخ الوهبية يقول: "ورُويّ أن هذه المرأة نُعي ولد لها مات في

([1])/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج2، ص: 299.

([2])/ المعلومات عن الغاية زوجة أبي القاسم قليلة فهي غير معروفة خارج تلك الروايات التي تتحدث عن مدى ورع هذه المرأة وتميزها بالعلم والمعلومات ذاتها تكررت عند الدرجيني، توفيت بعد 358هـ/ 969م. ينظر: الوارجلاني، المصدر السابق، ج2، ص: 298. وكذلك: الدرجيني، مصدر سابق، ج1، ص: 120-121. وكذلك: مجموع السير، مصدر سابق،ج1، ص: 340-341.

([3])/ أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني الحامّي من شيوخ الإباضية الوهبية المعروفين بالحامة ببلاد الجريد التونسي، وقد كان لهذا العالم علاقة طيبة مع المعز ومكانة عظيمة عنده نظرا لوزنه الكبير لدى الإباضية، إذ يقول عنه أبو زكرياء :"وبلغنا عنه أنه إذا دخل مدينة القيروان اضطربت المدينة كلها من أجله بفنون العلم والسؤالات المعضلة التي يدخرونها"، قتل على يد أعوان عامل المعز بالحامة وقد اعتمد الوارجلاني في روايته لحادثة قتل أبي القاسم على ما رواه أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي من أن حوارا دار بين أبي القاسم ورجل يهودي انتهى الكلام إلى قول أبي القاسم: "ليس بيننا وبينه إلا يسيرا فنظهر عليه ونخرجه من تلك المدينة إن شاء الله"، فأبلغ اليهودي مقالته إلى المعز، وهذا الرواية تؤكد دور اليهود في البلاط الفاطمي ودعّم ذلك طعن وزراء المعزّ في أبي القاسم خوفا من تأثيره على العامة وثورته على نظام سيّدهم، فتخوف المعز منه وأنفذ الأمر بقتله، ولم ينفذ عامله الأمر إلا بعد

السفر فقامت تصلي، فقالت: أخبرني ما فعل لون وجهي حين سمعت الخبر".

يبدو أن أبا العبّاس الفرسطائي نقل هذه الرواية عمَّن يثق فيه من الرواة الوهبيين، فصيغة رُويَّ تدل على أن الرّاوي مجهول، وليس مستبعدا أن يكون شيخه أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، فكتابه في أغلبه عبارة عن نقل لروايات شيخه وروايات والده محمد بن بكر، وهذا النص سيتكرر في مجموع السيّر مع تحديد وجهة سفر الشخص المتوفى بالضبط وسنفصّل فيه في الوقت المناسب.

- **النص الثالث**[1]:

" وذكر أيضا أبو الربيع سليمان بن موسى بن عمران[2]: أن أبا صالح[3] ساق جمالا له من القبلة[1] ليبيعها في وارجلان فاشترى منها رجل

تهديد المعزّ له بالتصفية، لكن المتأمل في أطوار الرواية لا يجد أية إشارة تدل على أن أبا القاسم يقوم بتحضيرات فعلية لثورة ضد الفاطميين، وبذلك يكون قد قتل سنة 358هـ/ 969م. ينظر: الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص: 196. وكذلك: مجموع السير، المصدر السابق، ج1، ص: 341. ينظر كذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 523. وكذلك: أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص :198.

(1)/ أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج2، ص: 313.

(2)/ تكاد تغيب المعلومات في المصادر الإباضية عن الراوي أبي الربيع سليمان بن موسى بن عمران لولا أن ذكره الفرسطائي، وخصّه برواية الأخبار عن أبي صالح الياجراني، عاش على الأرجح في النصف الأول من ق 5ه/ 11م. ينظر الوارجلاني، مصدر سابق، ج2، ص: 313. وينظر كذلك: لوفيتسكي، المؤرخون، مرجع سابق، ص: 64.

(3)/ أبو صالح الياجراني ينتمي إلى بني غسريت فرع من زناتة، يكنى باسم "تيركت" من شيوخ الوهبية، يذكر الدرجيني أنه عاش بوارجلان في الفترة الممتدة بين 350-400ه/ 961م-1010م إذ صنّفه ضمن علماء الطّبقة الثمنة، هجر أبو صالح من وارجلان إلى أدرج بسبب فتنة وقعت بالبلد

جملا فسأل الرجل عن الثمن فقال له: "ثمن جملك في تادمكت". فجهز أبو صالح للسير معه إلى تادمكت فأخذ جملا يركبه فقال له رجل آخر: "احمل لي على جملك ثيابا" فأجابه إلى ذلك. فقال له أبو صالح: "بكم نبيع جملك؟ فقال بكذا وكذا فوصل الشيخ تادمكت فساوم الجمل فبقي مما رصده صاحبه له شيء يسير نحو ثلاث أرباع القيراط[2] فلم يبعه فقفل به راجعا إلى وارجلان وما سمعنا بجمل رجع من تادمكت قط إلى وارجلان غيره والحمد لله رب العالمين".

وأقام بها سبع سنين ثم عاد إلى وارجلان، من الشيوخ المعاصرين له أبي عبد الله محمد بن بكر، توفي على الأرجح في النصف الثاني من ق 4ه/ 10م. ينظر: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 372-376.

([1])/ القبلة منطقة بعيدة من وارجلان، يرى لوفيتسكي أن القبلة تعني الجنوب أي الصحراء، كما يتوقع أن تكون تصحيف لكلمة "قبيلي" منطقة في ناحية نفزاوة، لكنه نسي أن القبلة تعني في اللغة العربية الناحية الشرقية (قبلة=اتجاه الكعبة في الشرق) وهذا هو الصواب، فالدرجيني في ترجمته لأبي صالح قال :" فخرج مهاجرا إلى ناحية أدرَج وكان له بها إبل..." وأدرج تقع شرق وارجلان وهذا يعني أن الإبل التي أحضرها ليبيعها في وارجلان إنما جاء بها من أدرَج وبذلك تكون القبلة المقصودة في النص.

([2])/ هذا المقطع من الرواية يثبت أن التعامل التجاري كان على الأقل في ق 4ه/ 10م يتم بعملة ذهبية وقد ذكر البكري العملة في تادمكت: "... ودنانيرهم تسمى الصُّلع لأنها ذهب محض غير مختومة ..."، وربما هذه العملة كانت تضرب في وارجلان فقد قال الإدريسي عن هذه الأخيرة في ق 6ه/ 12م: " ...قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان...فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبيّة إباضيّة...."ينظر: البكري، مصدر سابق، مج2، ص: 370. وكذلك: الإدريسي، مصدر سابق، ص: 296.

هذه الرواية تصف لنا مدى صدق أبي صالح العالم والتاجر وتنفيذه للوصية على أتم وجه حتى استغرب الراوي هذه القصة حين قال:" وما سمعنا بحمل رجع من تادمكت قط إلى وارجلان غيره...".

3- التجارة الصحراوية في مصادر القرن 6هـ/ 12م:

لقد مثّل القرن 5ه/ 11م بداية عودة جماعة الإباضية الوهبية إلى حقل الكتابة التاريخية والإنتاج الفكري والإسهام في التأريخ لبلاد المغرب من خلال التأريخ للجماعة، وذلك بعد أن انتعشت فكريًا وأصبحت أكثر تنظيما من الناحية الاجتماعية، وتنظيرا من الناحية السياسية والعقدية كنتيجة حتمية لنظام إصلاحي ظهر في بداية هذا القرن، وخرّج الكثير من العلماء والمؤرّخين ورواة الأخبار كان على رأسهم أبو زكرياء الوارجلاني، وسيعرف تاريخ الجماعة الوهبية نقلة نوعية خلال ق 6ه/ 12م خاصة في علاقاتها مع الضفة الجنوبية وهذا ما يظهر جليًا في عدة مصادر بيوغرافية في هذا القرن مثل "مجموع السيّر".

لقد ظهرت في الفترة الممتدة بين 1934 و2002 دراسات كثيرة اهتمت بمجموع السيّر وعملت على الاستفادة من نصوصه في دراسات كثيرة عن الإباضية وتاريخها وعلاقاتها المختلفة[1]، لكن هذه الدراسات رغم كثرتها إلا أنها لم تفصل نهائيا

)[1] من بين تلك الدرسات أذكر:(

- Tadeusz Lewicki, « Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », Histoire générale de l'Afrique, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol.3, p. 304-339.
- Ibid, « Les subdivisions de l'Ibāḍiyya », op.cit. , p. 71-82.
- Ibid, « De quelques textes inédits... », op.cit. , p. 275-296.

- سعد زغلول عبد الحميد، "هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير" ، أعمال المؤتمر الأول لتاريخ وحضارة المغرب، تونس، 1979، ص: 275-296.

- Ulrich Rebstock, Die Ibāḍiten im Maġrib (2/8–4/10.Jh.). Die Geschichte einer Berberbewegung im Gewand des Islam, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1983.

- الوسياني، سير المشائخ، تح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

في قضية هذا المجموع ولم تجتهد في تحديد ونسبة كل جزء لمؤلفه الحقيقي، وبقي المجموع في كل مرة ينسب للوسياني، رغم وجود إشارات واضحة تدل على أن الوسياني لا يملك منه سوى جزء واحد، وانتهت مرحلة استغلال مخطوط مجموع السيّر بإقدام عمر لقمان حمو سليمان بوعصبانة بتحقيقه في إطار أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر بتاريخ 03 جوان 2006، وعلى الرغم من وصوله لنتائج حول مؤلّفي المجموع بغضّ النظر عن مدى دقتها فإنه طبع الأجزاء (الكتب) الثلاثة بعنوان سير الوسياني محتفظا بنسبتها للوسياني ولم يخرج عن التقليد المعروف إزاء المجموع، ونظرا لذلك فقد انتقد الباحث علاوة عمارة هذه النتائج وأعاد قراءة المجموع ليصل إلى النتائج التالية[1]:

1/ الكتاب الثالث ضمن المجموع المحقق من طرف بوعصبانة من تأليف أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي (ت 504هـ/ 1110م) ويأتي من الناحية الكرنولوجية في المرتبة الأولى فقد تم تأليفه في النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م[2].

2/ الكتاب الأول ضمن المجموع من تأليف الوسياني مع احتوائه للمسات لبعض تلامذته ويأتي في المرتبة الثانية فقد تم تأليفه في النصف الأول من القرن 6ه/ 12م[3].

3/ الكتاب الثاني ضمن المجموع من تأليف تلميذ مجهول المعلومات عنه لا تتعدى كونه تتلمذ عند الشيوخ الثلاثة :"أبو عمرو السوفي، أبو نوح صالح بن

- K.S.vikor, «al-Wissyānī», Encyclopaedia of Islam, Leiden, E. J. Brill, 2002, vol.11, p.212.

([1])/ Amara Allaoua, «Remarque sur le…» ,op.cit , p.31-40.

([2])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 763-917.

([3])/ نفسه، ج1، ص: 227-517.

إبراهيم الزمريني، أبو الربيع الوسياني" ويأتي في المرتبة الثالثة فقد تم تأليفه في النصف الثاني من القرن 6ه/ 12م[1].

بالنسبة للكتاب الأول الذي ألّفه أبو العباس الفرسطائي ناقشت نصوصه ضمن مصادر القرن 5ه/ 11م لأنه أُلّف في النصف الثاني من هذا القرن ولن أضيف هنا سوى ملاحظة واحدة وهي أن الكتاب الخاص بالفرسطائي والمحقق من طرف بوعصبانة والمطبوع باسم الكتاب الثالث ضمن الجزء الثاني من مجموع السير لا يتضمن سوى نص واحد وهو النصّ الثالث مثلما وضعته ضمن نصوص الفرسطائي في القرن 5ه/ 11م والمنسوبة لأبي زكرياء الوارجلاني أما عن النصين الأول والثاني فهما موجودان ضمن الجزء الذي ألّفه أبو الربيع الوسياني، وعليه فسأقتصر هنا على نصوص هذا الأخير ونصوص المؤلّف المجهول.

- **أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني[2] (ت بعد 557هـ/ 1162م)، السيّر[3].**

النص الأول[4]: روايات أبي معروف ويدّرن بن جواد[1]: "قال فأصيب بعضهم في بصره فقال ابن ماطوس[2]: الحمد لله الذي جعله له في دنياه ولم يجعله له في

([1])/ نفسه، ج2، ص: 519-761.

([2])/ أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني ينحدر من بني واسين فرع من زناتة ترجم له الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية عشرة (550-600ه/ 1155-1203م)، توفي بعد 557ه/ 1162م، يعتبر أول مؤرخ وهبي تفطّن لقلّة التأريخ لأخبار الجماعة وهو السبب الذي حمله على تأليف كتاب السيّر، ينظر: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 513. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 656. وكذلك ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج3، ص: 421.

([3])/ نفسه، ج1، ص:227-517. ويبدأ بقول المؤلف :" قال أبو الربيع...".

([4])/ نفسه، ج1، ص: 242-243.

آخرته، والمصاب أبي معروف في عينه[3]. وبعث إلى الشيخ عبد الحميد الفرّاني[1]، وهو عالم كبير من علماء أهل الدعوة، وكان في بلاد السودان مسيرة شهر من جبل نفوسة،

([1])/ أبو معروف ويدّرن بن جواد من علماء الوهبية ترجم له الدرجيني ضمن علماء الطبقة السادسة (250-300هـ/ 854-913م)، عاش بمدينة ويغوا بجبل نفوسة وامتهن التجارة في دكان له، كان على علاقة بعلماء فزان، ومنهم عبد الحميد المذكور في النص والذي عاش ببلاد السودان، من تلامذته أبي مسور اليراسني، توفي على الأرجح أواخر النصف الثاني من ق 3هـ/ 9م. ينظر: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 325-329. ينظر كذلك: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج4، ص: 938. ينظر كذلك: محمود حسين كوردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على السودان الغربي (ق 2-8هـ/ ق 8-14م)، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2008، ص: 116.

([2])/ ضمن روايات أبي معروف ويدّرن بن جواد وفي حادثة إصابته في عينه اعتمد الوسياني على رواية شخصية باسم ابن ماطوس حيث قال: "فقال ابن ماطوس"، ما يعني أن هذا الراوي عاش بعد أبي معروف بزمن، ويتتبّع نصوص الدرجيني عثرت على شخصيتين تحملان اسم "ابن ماطوس" الأولى ذكرها في معرض ترجمته لأبي معروف ويدّرن بن جواد ضمن علماء الطبقة السادسة، بينما ترجم للشخصية الثانية ضمن علماء الطبقة السابعة (300-350هـ/ 913-961م)، ويحمل تسمية أبي الربيع سليمان بن ماطوس، عاش في شروس بجبل نفوسة من تلامذته أبي صالح اليراسني، وهو صاحب الرواية عن أبي معروف ومن المرجح أن يكون توفي خلال النصف الأول من ق 4هـ/ 10م أو بعده بقليل. ينظر: مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 242. وكذلك ينظر: الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص: 327-349.

([3])/ المصاب هو أبي معروف ويدّرن بن جواد ولم يذكر لنا الوسياني أسباب هذه الإصابة غير أن الدرجيني في ترجمته لأبي معروف يقول: " وروي أن المعزّ؟ أمير القيروان أهدى سيفا المشائخ الجبل يريد تثبيت أمرهم...فقال بعضهم ردوه، قيل وقال آخرون امسكوه فإن عطايا الملوك جائزة وأصيب من أهل هذا الرأي في بصره لما جاءهم من الفتيا بما لم يعهدوا العمل به، فقال ابن ماطوس الحمد لله الذي جازاه في أن جعل له عقوبة ذلك في بدنه ...فيز والمصاب ببصره هو أبو معروف...."، يفهم من هذا المقطع أن إصابة أبي معروف في بصره كانت بسبب تلك الفتوى التي أصدرها في شأن هدية المعز أمير القيروان، لكن من المقصود بالمعزّ هنا؟ يقول الوسياني: " وروي أن أمير القيروان المعزّ بن باديس أهدى سيفا لمشائخ الجبل وإنما طلب في ذلك اختلافهم، لكن المعزّ بن

فقال: أرسل لي دواء العين، فقال عبد الحميد حين بلغته المغلغلة (رسالة أبي معروف): عجبا لهذا الشيخ، أعطاه الله شفاء الذنوب ثم يسأل ما يزيله عنه فبلغ أبا معروف قوله، فقال ما جعلني الفزّاني إلا كالصبي أرضع الإبهام. وعبد الحميد يعني أجر المصيبة وما يكسبه من العين من الإثم خلص منه. وعنى أبو معروف ما يكسب من الخير بالبصر والقراءة للكتب والمشي إلى مواضع الذكر، كل ذهب لوجه مصيب فيه".

نجد في النص أن عبد الحميد الفزّاني كان يقطن في منطقة ببلاد السودان الأوسط تبعد عن جبل نفوسة بمسيرة شهر، لقد رجّح الباحث لوفيتسكي اعتمادا على معطيات اليعقوبي (ت ق 3ه/ 9م)[2] وكذا معطيات البكري ق 5ه/ 11م[3] أن تكون المنطقة المقصودة في النص هي كوّار التي تبعد عن زويلة بمسيرة 15 يوما وهي تبعد بدورها بمسيرة 13 يوما عن جادو، مدينة ومركز تجاري معروف بجبل نفوسة وبالتالي تكون المسافة 28 يوما وهي توافق معطيات الوسياني وهذا يؤكد أقدمية

باديس بن أبي الفتوح بن يوسف بن زيري تولى الحكم في الفترة الممتدة بين (406-453ه/ 1015-1061م)، فكيف يصدر إذن أبو معروف فتوى في هذه المدينة في نهاية القرن 3ه/ 9م والمعزّ بن باديس لم يصل إلى الحكم إلا في بداية ق 5ه/ 11م؟ ومهما يكن من أسباب هذه الإصابة فالمهم أنها كانت السبب الذي حمل أبي معروف على مراسلة صديقه عبد الحميد الفزاني فمن هو هذا الطبيب يا ترى؟ ينظر: الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص: 326-327. وينظر كذلك: مجموع السير، المصدر السابق، ج1، ص:241 -242. وينظر كذلك: رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص: 42.

([1])/ عبد الحميد الفزّاني، المعلومات عنه قليلة، يعتبر من علماء الوهبية، ويبدو من تسميته أنه من واحة فزان، ذكره الدرجيني ضمن تراجم الطبقة السادسة على أنه كان عالما كبيرا من أهل الدعوة وكان قاطنا ببلد السودان، يبدو أنه توفي نهاية القرن 3ه/ 9م. ينظر: مجموع السير،المصدر السابق، ج1، ص: 242. وكذلك: الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص: 327.

([2])/ اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1890، ص: 135.

([3])/ البكري، مصدر سابق، مج2، ص: 181-186.

الطريق واستخدام القوافل له، وفي القرن 3ه/ 9م نجد العالم أبي عبيدة عبد الحميد الجنّاوني يتقن لغة كانم [1] وهذا دليل على أنه سافر إلى المنطقة مرارا من أجل التجارة[2].

طلب أبو معروف في رسالته من عبد الحميد أن يبعث له دواء العين، وهذا يثبت أن الأخير كان يمارس مهنة الطب في كوّار أو على الأقل على علم بالأدوية واستعمالاتها، لكن ليس في النص ما يثبت أن الدواء قد جُلب للمريض، غير أن عبد الحميد فضّل له الصبر على المرض فقال ابن جواد :" ما جعلني الفزاني إلا كالصبي أرضع الإبهام..." ولابد أن الرد لم يصل إلا بعد شهرين فالرحلة بين المنطقتين تستغرق شهرا من السيّر.

النص الثاني[3]: "وعن أبي محمد[4]: إذا رأى المشتري الشيء ورضيه ورأى البائع الثمن ورضيّه، قال ذلك رضًا بالبيع، لأن حقيقة البيع التراضي، وهي مسألة السودان".

يربط الرّاوي هذا النمط من البيع ببلاد السودان وهذا دليل على أن تجار بلاد المغرب لا يتقنون اللغات المحلية المتداولة في بلاد السودان ولذلك كانت المعاملات التجارية مع السودانيين تتم بالطريقة المذكورة.

---

(1)/ ينظر حول كانم : ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح : حمزة أحمد عباس، أبوظبي، المجمع الثقافي، السفر الرابع، ص: 95-98.

(2)/ cf.Lewicki , « Quelques ... » , op.cit , p.1-27.

(3)/ مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص :319.

(4)/ أبو محمد عبد الله بن مانوج اللّمائي ترجم له الدرجيني في طبقاته ضمن علماء الطبقة التاسعة (400-450ه/ 1009-1058م)، نشأ في جربة وطلب العلم على أبي مسور وأبي صالح اليراسنيّين، شارك في تأليف ديوان الأشياخ توفي على الأرجح في النصف الأول من القرن 5ه/ 11م، ينظر: أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 241. وكذلك ينظر :الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 400.

النص الثالث[1]:" وذكر أن عزّون مصرّط قال للشيخ عبد الله بن الأمير اللمائي رحمه الله : لو كان العبد من ديباج لكان طرفه من تليس...".

هذا النص وجدت إشارة عنه عند الفرسطائي (النص الأول) أن سكان جربة سخروا من عبد الله بن الأمير كونه أسود اللون وهذا الأمر كذلك مع الشيخ عزون مصرّط الذي عاش خلال النصف الأول من القرن 5ه/ 11م بجربة[2] وسخر من عبد الله وهذا دليل على أن الجنس الأسود مستحدث في المجتمعات المغربية.

النص الرابع[3]:"وذكر[4] أن والده أفلح[5] لم يبلغ الحلم إلا وقد قعدت عليه ثلاث حلق: واحدة في الكلام، وأخرى في اللغة والثالثة في الفقه. ومكث في الولاية خمسين سنة أقل سنة. ولم يعد قط في ولايته ليوم جمعة ولا لخطبة جمعة. وأنه مع ذلك أراد السفر إلى جوجو[6] فلما برز رحله خرج إليه الإمام. فرمى عليه السؤال في مسائل

([1])/ مجموع السير، المصدر السابق، ج1، ص: 323.

([2])/ نفسه، ج1، ص: 323.

([3])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 327-328.

([4])/ هذا الفعل يعود على الراوي أبي محمد عبد الله بن مانوج اللمائي.

([5])/ أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، الإمام الثالث للدولة الرستمية بعد والده وجدّه، طلب عليهما العلم في صباه بتيهرت، كان عالما في عصره ألف الكثير في مجالات عدة، حكم مدة طويلة قاربت 50 سنة (208-258ه/823-871م)، توفي سنة 258ه/ 871م. ينظر: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص: 49-59.

([6])/ جوجو=كوكو=قاو، مدينة ومملكة بالسودان الأوسط جنوب تادمكت وتبعد عنها بتسع مراحل ترتبط بوارجلان عبر تادمكت وبسجلماسة عبر أودغشت خضعت في القرن 2ه/ 8م لسلطة مملكة غانة وأصبحت في القرن 3ه/ 9م مملكة مستقلة بل من أعظم ممالك السودان كما يقول اليعقوبي. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، 1960، ص: 193. وكذلك: الحسن بن أحمد المهلبي، المسالك والممالك، جمع وتعليق: تيسير خلف، دمشق، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع،

مسائل الربا، حتى وقف في مسألة واحدة قال له: ارجع لئلاّ تطعمنا الربا، فرجع. فهذا أفلح رضي الله عنه خاف له والده أن يرتطم في الربا مع تفحصه في فنون العلم وإدراكه الغوامض".

كما يبدو من النص فقد أراد أفلح في عهد والده عبد الوهاب السفر إلى ڤاو على رأس وفد تجاري ضمن القوافل التجارية المنطلقة من العاصمة تاهرت، ولنا أن نتساءل: هل كان هدفه تجاري فقط أم له أهداف سياسية يريد تحقيقها في زيارة رسمية قادته إلى ڤاو؟ بطبيعة الحال لم يكن ابن الإمام ليقدم على هذه المغامرة في الصحاري الحارّة من أجل عمل تجاري بحت من الممكن أن يجعل له وكلاء ينوبون عنه، بل كان يسعى لتعزيز علاقات الدولة مع هذه المملكة، لكن رسوبه في الامتحان الشفوي أمام والده في مسائل تتعلق بالربا حال دون إتمام الرحلة، وهذا من تمام حرص الإمام عبد الوهاب على الكسب الحلال ومثل هذه الأخلاق كانت السبب في دخول السودانيين الإسلام على يد تجار الإباضية. وقد حقق أفلح أمنيته بعد وصوله سدة الحكم بإرساله لمحمد بن عرفة على رأس بعثة دبلوماسية[1] إلى ملك ڤاو لتعزيز العلاقات التجارية بين الطرفين، ولضمان استمرارية نشاط الطريق التجاري الرابط بين تاهرت وڤاو نظرا لتنامي قوة مملكة غانة وتهديدها لمصالح الدولة بمحاولة السيطرة على ڤاو وبالتالي الطرق الرابطة بين تاهرت إلى ڤاو عبر سجلماسة وأودغست، وكذلك طريق تاهرت إلى ڤاو عبر وارجلان وجبال الهقار وتادمكت[2].

2006، ص: 55. وكذلك ينظر : ابن فضل الله العمري، مصدر سابق، ص: 105-130. وكذلك: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، نشر: كرم البستاني، بيروت، دار صادر، 1992، ص: 295.

(1)/ ينظر حول هذه السفارة: ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 62.

(2)/ ينظر: بنعزوز فريدة، "قراءة في أبحاث تاديوش لوفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب وبلاد السودان "، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على ضفتي

النص الخامس[1]:

" أبو الربيع عن أبي أفلح معبد بن أفلح رضي الله عنه[2] قال: إن خادما لأبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التناوتي[3]...قالت: يا سيدي لا تفزع قد ولدت عندك صبية، وكان الشيخ واقفا على الباب يريد الدخول، وقد رفع إحدى رجليه ليدخل، فلما قالت له الخادم ذلك أمسك رجله في الهواء ولم يضعها، فقال لها: إن لك في حق يا خادمي فقد أخذته، قالت يا سيدي لا بأس عليها صبية تبعت اثني عشر ذكرا، قال لها: ما فزعت مما تأكل ولكن فزعت من مآلها وما يصير أمرها إليه، والله ولي المتقين، فسماها زينب، فبلغت الصبية مبلغ النساء، تزوجت رجلا نفوسيا قنطاريا، قال: فسافر زوجها إلى غانة، ثم جاء من سفره فكتب إليها..."

هذا الرجل الذي تزوج بنت الشيخ أبي عبد الله يظهر من اسمه أنه ينتمي إلى نفوسة ويسكن قنطار = قنطرار وهي واحة تابعة لقصطالية، ربما يكون ممن هاجر من

الصحراء، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999، ص: 453-464. وكذلك ينظر: صباح إبراهيم الشيخلي،" النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس عشر "، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984، ص: 29-46.

([1])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 331-333.

([2])/ أبو أفلح معبد بن أفلح راوي ومؤرخ وهبي لم تجتهد المصادر الوهبية في ترجمته وتحديد هويته وتفاصيل حياته، عاش في القرن 6ه/ 12م، اعتمد عليه الوسياني كثيرا في رواية الأخبار. ينظر: مجموع السير، مصدر سابق،ج1، ص: 331.

([3])/ أبو عبد الله محمد بن أبي عمرو التناوتي النفزاوي، راوي وهبي ربطه لوفيتسكي بشخصية أبي عبد الله محمد بن بامر أو تامر النفزاوي، ويرى أن بامر إنما جاء من النطق الأمازيغي باعمر وهو تحريف لأبي عمرو، عاش هذا الراوي في القرن 5ه/ 11م. ينظر: أبو زكرياء الوارجلاني، مصدر سابق،ج2، ص: 307. وكذلك: مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 331. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 578-580.

جبل نفوسة إليها وقد سافر هذا الرجل إلى غانة بهدف التجارة، في الحقيقة مراحل الطريق إلى غانة من قصطالية غير واضحة في النص، لكن المنطقة ترتبط بغانة عبر محورين: من قسطيلية إلى غانة يمر عبر وارجلان (14 يوم) إلى تادمكت (50 يوم) إلى ڤاو (9 أيام) ومنها إلى غانة (13 يوم) مرورا بسغمارة وتيرقي القريبة من تومبوكتو الحالية ورأس الماء[1] وبذلك تستغرق هذه الرحلة مدة 73 يوما في الذهاب ومثلها في العودة أي تقريبا خمسة أشهر ذهابا وإيابا دون احتساب أيام المكوث بغانة، كما يوجد محور آخر من وارجلان باتجاه سجلماسة ومنها إلى غانة عبر أودغست وتستغرق مسيرة 30 يوما[2]، والملاحظ أن كلا المحورين يمران عبر وارجلان لماذا ؟ يتعمد التجار الإباضية من بلاد الجريد التوجه نحو وارجلان بسبب سيطرة قبائل بني هلال على المحاور الشمالية الرابطة بين الجنوب التونسي والمغرب الأقصى[3].

النص السادس[4]:"وذكر[5] عن الغاية امرأة أبي القاسم رضي الله عنهما كانت في مجلس معها نسوة ونعي: إليها ابنها مات في غانة، قال فقامت فاغتسلت وصلت

([1])/ البكري، مصدر سابق، مج2، ص : 368-370. وكذلك: الإدريسي، مصدر سابق ، ص: 295. وكذلك: بحاز إبراهيم، مرجع سابق، ص: 259.

([2])/ cf , Lewicki , Études , op.cit , p.41-44....

([3])/ ينظر: عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، دار الشروق، 1983، ص: 308.

([4])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 340-341.

([5])/ أبو محمد عبد الله بن زورزتن الوسياني راوي وفقيه اباضي ينحدر من بني وسيان تتلمذ على يد أبي نوح سعيد بن زنغيل وأبي صالح اليهراسني، ترجم له الدرجيني ضمن علماء الطبقة التاسعة، عاش في النصف الأول من القرن 5ه/ 11م، ينظر: أبو زكرياء الوارجلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 235. وكذلك: الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 395. وكذلك: الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص: 334.

ركعتين ثم قالت للنسوة: انظرن إلى وجهي هل امتقع من صدمة الرزية عما عهدتن ؟ فقلن لها لا فحمدت الله على ذلك".

هذا النص ورد ضمن نصوص الفرسطائي (النص الثاني) وقد تمت مناقشته ضمن نصوص القرن 5هـ/ 11م[1] غير أن مكان وفاة ابن الغاية زوجة أبي القاسم بقي مبهما في رواية الفرسطائي، فقد حددت رواية الوسياني مكان الوفاة بغانة، وبتتبع نصوص الفرسطائي نفهم أن هذا الرجل توفي بعد والده المقتول زمن المعز الفاطمي وهذا جلي في قول أبي عمران لأبي جعفر" امض بنا إلى الغاية امرأة أبي القاسم نزورها"[2]، ثم جاءت الرواية عن وفاة ابنها بعدها مباشرة فلو كان أبو القاسم حيّا لكان أولى بهذه الزيارة، وما يمكن استخلاصه من الرواية أن ابن الغاية توفي في رحلة تجارية نحو غانة في النصف الثاني من ق 4ه/ 10م ولابد أن منطلق رحلته هذه كانت من بلاد الجريد موطنه إلى وارجلان ومنها إلى تادمكت ثم ڤاو ومنها إلى غانة وهي نفس مراحل الطريق الذي سلكه التاجر النفوسي في النص السابق والأرجح أن يكون سافر إلى غانة عبر سجلماسة انطلاقا من وارجلان.

النص السابع[3]: "وعن أبي محمد عبد الله بن محمد السدراتي[4] خال أبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي[5] قال: سافر خالي إلى القبلة[1]، فجعل تجارته صامتا

([1])/ نفسه، ج2، ص: 299.

([2])/ أبو زكرياء الوارجلاني، المصدر السابق،ج2، ص: 298.

([3])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج1، ص: 446-447.

([4])/ أبو محمد عبد الله بن محمد السدراتي من علماء الوهبية، يبدو من تسميته أنه من سدراتة التابعة لوارجلان، كان يسافر إلى بلاد السودان للدعوة والتجارة عاش على الأرجح في النصف الأول من القرن 5ه/ 11م. ينظر: المجموع، ج1، ص: 446.

([5])/ أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي ولد في النصف الأول من القرن 5ه/ 11م في برقة ثم انتقل إلى أريغ، واستقر في آجلو، توفي سنة 528ه/ 1134م، ينظر: Tadeus Lewicki , « Quelque extrait... » , op.cit , p.1-27.

واشترى جملا لركوبه ومعه رجل حضري فجاء الحضري إلى خالي فقال له: أي شيء أجعل تجارتي؟ فقال له: لا أدري، فجعل الحضري تجارته رقيقا، فقفلوا إلى أهلهم، فكان أبو محمد لا تعب عليه ولا نصب، إذا ارتحل الناس ركب جمله، وإذا نزل ضرب خيمته ويستريح، وكان الحضري يتعب وينصب في الخدم والرقيق، هزلت هذه وجاعت هذه ومرضت هذه، وهربت هذه، وضرب العرق المدمر هذه فإذا نزلوا اشتغلوا في حوائجهم والحضري متعب مغتم وينظر في خلال ذلك إلى أبي محمد قاعدا في الظل وما له صرة في سره لا تعب معه، فيقول الحضري: سبحان الذي أراح عبد الله من هذا البلاء".

تتضمن الرواية مقارنة بين نوعين من التجارة الصحراوية تجارة الذهب وتجارة الرقيق، فالأولى ليس فيها مشاق كثيرة، بينما الثانية فيها من المخاطر والتعب الكثير، وما يمكن استنتاجه من الرواية أن تجار وارجلان في النصف الأول من القرن 5ه/ 11م كانوا يجلبون الذهب والرقيق من السودان الأوسط في قوافل تجارية كبيرة وهي سلع إستراتيجية لعبت دور كبير في تنمية اقتصاديات دول المغرب.

- **مؤلف مجهول (ق 6هـ/ 12م)، السيّر**[2].

المعلومات عن هذا المؤلف قليلة جدا لا تتعدى كونه تتلمذ عند الشيوخ الثلاثة: "أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي، أبو نوح صالح بن إبراهيم الزمريني، أبو الربيع الوسياني"، كتابه روايات نقلها عن شيوخه الثلاثة. أما عن نصوصه المتعلقة بالتجارة فهي:

([1])/ القبلة تعني هنا بلاد السودان لكنها لم تحدد على وجه الدقة وبما أن التاجر أبو محمد عبد الله بن محمد السدراتي عاش بسدراتة فمن المرجح أن يكون المقصود من القبلة في هذه الرواية هي تادمكت.

([2])/ مجموع السير، المصدر السابق،ج2، ص :519-761. ويبدأ بقول المؤلف :" قال أبوعمرو [عثمان بن خليفة السوفي] ...".

النص الأول[1]:

"ومنهم محمد بن رستم[2]، وذلك أن ولده عمران في غانة، فقال لهم: أخّروا عشائي آكله مع عمران فلبثوا حتى مضى هدوًا من الليل ولم يجيء عمران فخرج إلى صخرة السبع فرقى عليها، فجعل ينادي: يا عمران فلم يجبه أحد فعجب الناس منه فرجع فلما جلس إذا عمران يدق الباب، فأكل عشاءه معه والحمد لله رب العالمين".

الرواية تتضمن بين دفتيها نوع من الكرامة، وكأن محمد بن رستم أحس بقدوم ولده من غانة فبادر بارتقاء صخرة السبع والمناداة باسمه، وهذا شيء مألوف في الكتابة التاريخية الوهبية، وقد سجلت مثل هذه الملاحظة مع نصوص أبي زكرياء الوارجلاني، فمسألة الكرامة واتصالها بعالم معين في حد ذاتها شيء لا يمكن إثباته ولا نفيه، بينما الأسطورة المرافقة لها والموظفة لإضفاء الشرعية عليها يفنّدها كل عاقل لبعدها عن المنطق. والفائدة من هذه الرواية أن عمران كان في القرن 5ه/ 11م ممّن يمارس التجارة بين وارجلان وغانة وسبق أن تحدثنا على مراحل هذا الطريق فهي غير واضحة في الرواية لكنني أرجح أن تكون عبر سجلماسة.

النص الثاني[3]:

" وذكر شيوخي الثلاثة أبو عمرو وأبو نوح وأبو الربيع رحمهم الله[4] أن رجلا من بني ويسين وكان مقلاّ في أول عمره، وهو من أهل القصور فوقعت الشدة في

([1])/ نفسه، ج2، ص: 614.

([2])/ المعلومات عن محمد بن رستم قليلة جدا، يبدو أنه عاش قبل النصف الثاني من القرن 5ه/ 11م، ينظر: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 732-733.

([3])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 550-552.

([4])/ الشيوخ الثلاثة أبو عمرو عثمان بن خليفة السوقي عاش في النصف الأول من القرن 6ه/12م في واحة أسوف، ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج3، ص: 601-602. والثاني أبو نوح

باديتهم وسافر التجار بالتمر إلى البادية وسافر معهم تملي[1] بمزود تمر على عاتقه وبعض قال: علاوة، وأبو نوح قال: وسادة، فمضوا حتى لقي القافلة رجل فاستطعمهم، فلم يعبؤوا به، ومرّ الرجل العافي حتى أدرك تملي آخر الناس ينوء بوسادته فاستطعمه فوضع له وفتح له فقال له: كل بغيتك، فأكل الرجل حتى شبع فدعا له بالنماء والبركة وقال له: إن أمامك ظعينة، قد أضر بهم الجوع ...، فإذا وجدت القافلة نازلة فامض أنت ولا تعرج عليهم، فربط علاوته ومضى حتى وجد القافلة نازلة، فنادوه من كل مكان: انزل يا تملي، انزل يا تملي فقال لهم: إني حامل على عاتقي وظهري، أتروح أمامكم قليلا، فمضى حتى وصل نعت الرجل، فوجد قوما جيّاعا نيّاعا، فجعل يبيع لهم، فأنمى الله ما في علاوته، فباع صاعا من تمر بصاع من مال كيلا من صامت، وجعل يبيع ويأكل من أراد، يأخذ الكسور والصامت، حتى لم يجده المسافرون إلا أوقر حمل جمل، قال: فبورك له في كل شيء يحاوله، فجعل يسافر إلى تادمكت، فبلغ بها مالا كثيرا بدعوة الرجل العافي، وما من له الله الكافي، فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيسا، كل كيس فيه خمسمائة دينار وكانت من جلود بقر".

من خلال هذا النص يتبين أن تادمكت هي وجهة التّاجر تملي الذي كان يمارس التجارة في نهاية القرن 4ه/ 10م انطلاقا من القصور، وهذا يعني أن الطّريق التجاري الذي ينطلق من القصور ويمر عبر وارجلان إلى تادمكت طريق نشط يصدّر عبره تجار

صالح بن إبراهيم بن يوسف الزمريني عاش على الأرجح في النصف الثاني من ق 6ه/ 12م، ينظر: المعجم، مج3، ص: 470. والثالث أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان الوسياني.

([1])/ تملي الوسياني من شيوخ الوهبية بالقصور ببلاد الجريد التونسي كما يستفاد من الرواية، ينتمي إلى بني واسين، تتلمذ على يد أبي خزر يخلف بن زلتاف (ت 380ه/ 990م)، عاش في النصف الثاني من القرن 4ه/ 10م. ينظر: نفسه، ج2، ص: 550. وكذلك ينظر: الشماخي، مصدر سابق،ج2، ص: 502.

بلاد المغرب التمور مقابل الذهب[1]. لقد مثّلت تادمكت في هذه المرحلة مكان استقرار لتجّار المغرب وكان تملي ممن استقر بها وأصبح يبعث بأموال الزكاة لأهل الدعوة بالقصور، وفي الرواية كان يبعث في كل سنة 16 كيسا في كل واحد 500 دينار وبالتالي يكون مقدار زكاة أمواله 8000 دينار سنويا وبعملية حسابية نجد رأس ماله يقدر بـــ: 320000 دينار، وقد خصص تملي أموال زكاته لأهل الدعوة لمساعدتهم على متطلبات الحياة، لكن بعض ما تتضمنه النصوص الإباضية من إحصائيات يبدو أنها مبالغ فيها.

النص الثالث[2]:

" وذكر الشيوخ أن أبا نوح سعيد بن يخلف[3] وقال أبو نوح: إنما هو أبوه يخلف بن تمصكويت المدوني سافر إلى تادمكت حتى وصل تملي، فأدخله على بيوت ماله، فقال له: إن كنت تأخذ مال الله (يعني الزكاة) أغنيك وعقبك فقال له الشيخ: لا فقال له تملي: ما علمتني سخيّا، فأعطاه دينارا فرجع الشيخ من عنده وقال يحدث عن بيت ماله: رأيت فيه الكيوس موسومة ما شبهتها إلا بالجراء وتراكم بعضها بعضًا ممتلئة كلها بالذهب مكتوب على كل كيس منها: "هذا مال الله" والحمد لله رب العالمين".

يخلف بن تمصكويت المدوني والد أبو نوح عاش على الأرجح في النصف الثاني من ق 4هـ/ 10م، وسافر إلى تادمكت والتقى بتملي الوسياني ونقل لنا وصفًا لخزائن

([1])/ cf. Lewicki , Études maghrebines ..., op.cit , p.28-40.

([2])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 552.

([3])/ أبو نوح سعيد بن يخلف المدوني المزاتي من علماء الطبقة الثامنة (350-400هـ/ 961-1009م) عاش على الأرجح بأريغ وكان من العلماء والدعاة. ينظر: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 536. وكذلك: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج3، ص: 385-386.

أمواله، وفي هذا النص تكملة للحديث عن التاجر تملي الوسياني وما بلغه من الثراء بتادمكت بما يمارسه من أنشطة تجارية على المحور الرابط بين القصور وتادمكت.

النص الرابع[1]:

" وذكر الشيخ أبو عمرو عن الشيخ يخلفتن بن أيوب النفوسي المسناني[2] أن الشيخ أبا نوح الصغير به يعرف[3] عنده أربعون فرسا، وله فرس عتيق، وعليه حج وعليه سافر إلى تادمكت قيمته مائة وخمسون دينار".

يظهر في الرواية قيمة الفرس كوسيلة نقل تستعمل في الرحلات ولاشك أنها تجارية دعوية، فقد اعتمد أبو نوح على فرسه القوي في رحلة الحج والرحلة التي قادته وبلغت قيمة هذا الفرس 150 دينارا، غير أن المبالغة تتضح هنا في سعر الفرس وذلك من أساطير النصوص الإباضية.

النص الخامس[4]:

" وذكر الشيخ أبو نوح أن الشيخ أبا موسى هارون بن أبي عمران مرّ على الشيخ أبي صالح[5]، فطلب أهل وارجلان أن يقعدوا حلقة تلاميذ فقالوا له: عن أمر الحلقة شديد، وحقوقها كثيرة وقالوا: لا نقوم بأمرها، وأتوه بمائة دينار، فأبى لهم من أخذها، وهو يريد السفر إلى غانة، وكتب إليه أبو عبد الله أن يترك السفر ويدع

([1])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 553.

([2])/ الشيخ يخلفتن بن أيوب النفوسي الزنزفي المسناني أصله من أمسنان من جبل نفوسة يعتبر من علماء الطبقة العاشرة (450-500ه/ 1058-1106م) من الرواة الذين رووا عنه أبو عمرو السوفي. ينظر: معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، مج4، ص: 979-980.

([3])/ أبو نوح الصغير هو أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي المدوني.

([4])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 566-567.

([5])/ أبو صالح جنون بن يمريان اليهراسني الوارجلاني من علماء الوهبية، عاش في النصف الأول من القرن 4هـ/ 10م بوارجلان. ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج 2، ص: 232-233.

الغربة...قال له: دع السفر إلى تلك الجهة، فإذا عبت على فلحون بن إسحاق[1] حتى مات فيها، فمر بنفعه وعلمه...فتوجه إلى تلك البلاد حتى وصلها، ثم خرج إلى غيارة[2]، فوجدهم غزاة[3]، فلزم بيته حتى مات فيها رحمة الله عليه".

لما عزم أبو موسى هارون بن أبي عمران السفر إلى غانة مرّ بوارجلان على أبي صالح جنّون بن يمريان وهذا يعني أنه انطلق من الحامة إلى وارجلان ومنها إلى تادمكت ثم ڤاو ومن هذه المدينة إلى غانة واستقر به الأمر أخيرا بغياروا، لكن وبخلاف الروايات الأخرى يبدو أن أبا موسى خطّط من البداية على الاستقرار بغانة وهذا يجعلنا نرجّح أن يكون هدفه دعوي بغرض نشر الإسلام وترسيخه بين القبائل الوثنية بالمناطق الجنوبية من مملكة غانة ولم يكن يسعى لمباشرة أعمال تجارية بالمنطقة.

([1])/ فلحون بن إسحاق النفوسي فقيه وتاجر وهبي من بني واسين سافر إلى غانة قبل أبي موسى هارون بن أبي عمران بمدة وتوفي بها، عاش في النصف الأول من القرن 4ه/ 10م يبدو أنه كان في مهمة دعوية هناك. ينظر: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 688.

([2])/ غيارة=غياروا، وهي مدينة بالسودان الغربي تبعد عن غانة بمسيرة 18 يوما وتخضع لسلطة ملوكها. وصفها البكري بأنه يستخرج منها أفضل أنواع الذهب. ينظر: البكري، مصدر سابق، مج2، ص: 364. ينظر كذلك: الاستبصار، مصدر سابق، ص: 221-222.

([3])/ وردت في هذه الرواية لفظة "غزاة" وقد وضع محقق المجموع في الهامش لفظة "عراة" وجدها في إحدى نسخ المخطوط. ينظر: مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 567. وتبدوا أنها اللفظة الصحيحة فالبكري في القرن 5ه/ 11م يقول: " ومن أعمال غانة المنضافة إليها سامة يعرف أهلها بالبكم....وهم يمشون عراة". ينظر: البكري، المصدر السابق، مج2، ص: 367. وهذا يجعلنا نرجّح أن السبب الذي حمل الشيخ أبا موسى هارون بن أبي عمران على التزام البيت يتمثل في أن أهل غياروا كانوا يمشون عراة وبذلك بقي هناك إلى أن وافته المنية.

النص السادس[1]:

" وذكر عنها[2] أيضا أن عندها يتيمة تخدمها، ليس لها أحد، فلما كبرت جعلت تخطب لها فلم تجد أحدا، فتحيّرت من ذلك، فتكلم إليها فقال: ملكة في السماء السبع، شهدت الملائكة فنادوا بمومن بن وكيل، وكان رجلا هو في ذلك الوقت في تادمكت "تملك دج أجنون ايستين أجين وانجلوسن أغرندس مومن أووكيل"، فانتظرت إلى قوله فجاء مومن بن وكيل فخطب غيرها فملكها فتحيرت من ذلك فقال لها: لا يمحو الكتاب كما لا يمحو كواكب السماء، انظري تراها يا أصيل فنظرت فرأت الكواكب كالليل بادية، فلم تلبث امرأة مومن بن وكيل أن ماتت، فتزوج يتيمة أصيل والحمد لله رب العالمين".

تتعلق هذه الرواية بمومن بن وكيل والمعلومات عنه غائبة تماما خارج هذه الرواية، لكن يبدو أنه من تجار جبل نفوسة الذين يمارسون التجارة نحو تادمكت في القرن 5ه/ 11م، ومن المرجّح أن هذا وغيره من تجار الجبل يمرون عبر محور غدامس إلى تادمكت وهو أقرب طريق يربط الجبل بتادمكت وهو الطريق المعروف بالطريق السوداني[3].

النص السابع[4]:" وهذا الشيخ من تين بامر تناوتي، سافر إلى غانة فلم يصلّ صلاة قطّ بغير ماء حتى رجع، وسافر إلى الحج وجاور فيها، حتى حج الأيام السبعة، وكتب منها ديوانا كبيرا، وهو الذي وضع كتاب الحضرمي".

([1])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 640-641.

([2])/ الرواية هنا تتعلق بأصيل وهي عالمة وهبية أصلها من تمصمص موضع في الجزء الغربي من جبل نفوسة، عاشت على الأرجح في القرن 5ه/ 11م، وكلمة أصيل في اللسان البربري تعني النعام، الشماخي: مصدر سابق، ج2، ص: 485. وكذلك: ج3، ص: 891.

([3])/ صالح معيوف مفتاح، مرجع سابق، ص: 55.

([4])/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 689.

تتعلق هذه الرواية بإسماعيل بن علي التقزاوي التناوتي، من تين يامر، سافر إلى غانة داعيا للإسلام وتاجرا، ألّف عدة كتب مهمة منها ما هو مذكور في الرواية، توفي على الأرجح نهاية القرن 5ه/ 11م[1].

النص الثامن[2]: "وذكر أبو الربيع، أن الشيخ فلحون بن إسحاق من بني واسين جاءه سائل فقال له: كيف الردّ على من وصف الله بالجسم ؟ فقال له حين أراد أن يجعل رجله في القرز: يقال له لا يخلو هذا الجسم من أن يكون خفيفا سيّارا، أو كثيفا ستارا، فإن وصفه فليرد عليه من نفس قوله وذلك في سجلماسة يريد غانة".

تلقّى الشيخ فلحون استفسارا عقديا من سائل غير محدد الهوية، يبدو أنه من الوهبية الذين استقرّوا بسجلماسة، وكان الشيخ بصدد السفر إلى غانة، ولا أدري هل هي الرحلة الأخيرة التي قادته إلى غانة[3] وتوفي فيها، أم أنها إحدى رحلاته التجارية الأخرى، والمهم من الرواية أن تجار الوهبية كانوا يستعملون الطريق الغربي في رحلاتهم التجارية خلال القرن 4ه/ 10م والذي ينطلق من سجلماسة إلى غانة عبر أودغشت وهو الطريق الذي رجّحه لوفيتسكي بأنه طريق التجار الإباضيّين نحو غانة[4].

النص التاسع[5]: " وروى أبو نوح أن رجلا من زواغة يقال له محرز بن مدرات[6] يحرث بثلاثمائة جمل غير البقر كثير المال مترف، ولا يمشي إلا ومائة دينار في

---

(1)/ ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج2، ص: 112.

(2)/ مجموع السير، المصدر السابق، ج2، ص: 708.

(3)/ نفسه، ج2، ص: 566-567.

(4)/ cf. Lewicki, Etudes maghrebines..., op.cit, p.41.

(5)/ مجموع السير، مصدر سابق، ج2، ص: 750-750.

(6)/ المعلومات عن هذه الشخصية الغنيّة جدا لا تتعدى محتوى الرواية، فالرجل ينتمي إلى زواغة، كثير الأموال والعقارات، على الأرجح عاش خلال القرن 6ه/ 12م.

جيبه لئلّا يرى شهوته فتفوته، فقعد النساء يوما يغزلن عند امرأته وهي جالسة على سرير من عاج عظم الفيل".

تتضمن الرواية بين دفّتيها إحدى السلع المجلوبة إلى بلاد المغرب من بلاد السودان وهي عاج الفيل، فزوجة محرز بن مارات كما ورد في الرواية كانت جالسة على سرير مصنوع من عاج عظم الفيل، ما يعني أن زوجها بلغ درجة كبيرة من الغنى والرفاه، وتذكرنا هذه الرواية بقصة دخول أبي نوح سعيد بن زنغيل على المعزّ لدين الله الفاطمي فوجده جالسا على سرير قوائمه عظم الفيل[1].

أبو عمار عبد الكافي (ت قبل 570هـ/ 1175م)، السيّر[2].

يعتبر أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب بن إسماعيل التناوتي من علماء القرن 6هـ/ 12م، صنّفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية عشرة(550-600هـ/ 1155-1204م)[3]، عاش في وارجلان ثم ارتحل إلى تونس استكمالا لطلب العلم، وبعد مدة عاد إلى مسقط رأسه. يبدو أن العالم أبي عمار قد توفي قبل سنة 570هـ/ 1175م بمدة يسيرة فقد كان في مراسلات مع الفقيه عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الأنصاري الذي راسله مستفسرا في مسائل عقدية أشكلت عليه وكان هذا الفقيه مقيما في غانة، ولم يردّ عليه أبي عمار لأسباب معينة حتى وافته المنية في النصف الثاني من القرن 6ه/ 12م، ويقول عن ذلك أبو يعقوب الوارجلاني: "فامتنع أبي عمار من إجابته بعلل ومعان حتى توفي رحمه الله"[4] وتكفّل الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني بالرد على هذه المسائل بعد وفاة الفقيه عبد الوهاب-الذي تلت وفاته وفاة

([1])/ ينظر: أبو زكريء الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 208.

([2])/ تح: مسعود مزهودي، دن، 1995.

([3])/ الدرجيني، مصدر سابق، ج2، ص: 485-490. وكذلك: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 640.

([4])/ أبو يعقوب الوارجلاني، مصدر سبق، ج1، ص: 77.

أبي عمار-وشروع تلامذة أبي عمار في الإجابة عليها وهذا الأخير (الوارجلاني) توفي سنة 570هـ/ 1175م ما يعني أن الردّ الذي كتبه على مسائل عبد الوهاب كان قبل هذا التاريخ[1].

عدا هذه الرسالة، فإن المعلومات عن التجّارة الصحراوية غائبة تماما في هذا الكتاب الذي يبدو أنه مخصّص لنظام الحلقة على شاكلة ما ألّفه المزاتي (ت 471هـ/ 1079م) والذي يحمل عنوان كتاب السيّر، بحيث لم يتعد محيط الحلقة وآدابها وتتبع من حِكم شيوخها المشاهير الذين ساهموا في بناء هذا النظام التعليمي الاجتماعي ما جعل الكتاب في منأى عن اقتصاديات الجماعة وأنشطتها التجارية والأمر نفسه ينطبق على سيّر أبي عمار.

- **أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني[2] (ت 570هـ/ 1175م)، الدّليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدّليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصّدق[3].**

([1])/ ينظر ترجمته: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج 3، ص: 539-542.

([2])/ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن منّاد السدراتي الوارجلاني من شيوخ الإباضية المشهورين بالعلم والاجتهاد، صنّفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية عشرة (550-600هـ/ 1155-1204م)، يبدو من تسميته أنه من مواليد سدراتة التابعة لواحة وارجلان. كغيره من أبناء المنطقة طلب العلم بمسقط رأسه وحج برفقة صديقه العالم أبي عمار عبد الكافي ثم اتجه نحو قرطبة لاستكمال تحصيل العلوم، كما كانت له رحلة قادته إلى مكان قريب من خط الاستواء، توفي بوارجلان سنة 570هـ/ 1175م. ينظر: الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص: 491-495. وكذلك ينظر: أبو يعقوب الوارجلاني، المصدر السابق، ج3، ص: 293. وكذلك ينظر: معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، مج4، ص: 1010-1014.

([3])/ تح: الشيخ سالم بن حمد الحارثي، ط2، عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 2006. حول هذا الكتاب ينظر: عبد الرحمان الجيلالي، "أبو يعقوب يوسف الوارجلاني وكتابه الدليل والبرهان"، مجلة الأصالة، 41(1977)، ص: 162-171.

الآن سأناقش ما تضمنه كتاب الدليل من نصوص تؤرخ للعلاقات بين ضفتي الصحراء:

النص الأول[1]:" وكذلك أهل بلاد السودان الذين لم يبلغهم الإسلام إلا من بعد الخمسمائة سنة من الهجرة ولم يعرفوا التفرقة بين المذاهب والأفراق...".

يحدد أبو يعقوب فترة ما بعد القرن 5ه/ 11م كإطار لأسلمة بلاد السودان، ولم يحدّد أية بلاد يقصد فعملية الأسلمة لم تتم بالوتيرة نفسها وفي كل مناطق السودان. وإذا عطفنا الجملة الأخيرة على ما قبلها ندرك أن الإسلام المقصود هو التعرف على المذاهب والفرق العقدية والفقهية وبالتالي إتباع مذهب معين، وذلك حسب المؤلف لم يتسنّ لأهل السودان إلا بعد القرن 5ه/ 11م، فهل يقصد المؤلف بالإسلام هنا "الإسلام على المذهب الإباضي"؟ أيّ أن المذهب الإباضي لم يعرف انتشارا ببلاد السودان إلا بعد القرن 5ه/ 11م من المرجّح أن يصب كلامه في هذا الاتجاه.

النص الثاني[2]:"ففتح الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم...ومن المغرب مصر وإفريقية والأندلس وبعد الخمسمائة من الهجرة فتح الله عليه بلاد السودان جوجو وغانة إلى الجزائر الخالدات فهو ملك الأرض من فرغانة إلى غانة".

مثل السابق يصب هذا النص في موضوع أسلمة بلاد السودان حيث يحدّد المؤلف الإطار الزماني لوصول الإسلام إلى بلاد السودان، فما بعد القرن 5ه/ 11م يعدّ معلما تاريخيا لبلوغ الإسلام وتعاليمه إلى بلاد السودان، وخص بالذكر كل من غانة وجوجو، لكن هناك جهود لا بأس بها لأسلمة بلاد السودان منذ القرن 3ه/ 9م

([1])/ أبو يعقوب الوارجلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 25.

([2])/ أبو يعقوب الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 38-39.

خاصة في مملكة ثاو على يد فقهاء إفريقية المالكية[1]، كما أن مملكة غانة شهدت تسرباً للإسلام بين حكامها ورعاياها منذ الثلث الثاني من القرن 5ه/ 11م[2].

النص الثالث[3]:" فلنعقب بالردّ على رسالة جاءتنا من ناحية غانة على يد رجل يسمى عبد الوهاب..."

أصل الرسالة التي ردّ عليها العالم أبو يعقوب الوارجلاني في كتابه الدليل والبرهان وأفرد لها فصل خاص، كانت موجّهة إلى الفقيه أبي عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب بن إسماعيل التناوتي من قبل الفقيه عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الأنصاري الذي كان مقيما في غانة، في الحقيقة لا توجد في الرسالة معلومات كثيرة عن الفقيه عبد الوهاب عدا إشارات تدل على أنه كان معاصرا للفقيهين أبي عمار وأبي يعقوب خلال القرن 6ه/ 12م، ويبدو أن الفقيه عبد الوهاب كان على معرفة سابقة بالفقيه أبي عمار وإلا كيف راسله بالضبط بصفة مسترشد يطلب منه المساعدة منه في مسائل العقيدة، أما أبو يعقوب فلم يكن يعرف هذا الفقيه لقوله :"فلنعقب بالرد على رسالة جاءتنا من غانة على يد رجل يسمى عبد الوهاب"[4]، ومن الردّ كذلك يتضّح أن الفقيه عبد الوهاب توفي بعد وفاة العالم أبي عمار وقبل أن يجيب الوارجلاني على استفساراته ما يعني أن وفاته كانت في النصف الثاني من القرن 6ه/ 12م.

ويبدو من الرسالة أن الرجل من فقهاء الوهبية في تلك البلاد كان في مواجهة مع فقهاء السنة (الأشاعرة)، ما يعني أن المذهب الأشعري قد انتشر في هذه المنطقة، وأن هذا الفقيه يسعى لمعرفة عقيدتهم في بعض المسائل وكيفية الرد عليهم انطلاقا مما ينص عليه المذهب الإباضي الوهبي.

---

(1)/ أحمد الشكري، مرجع سابق، ص: 98.

(2)/ نفسه، ص: 103.

(3)/ أبو يعقوب الوارجلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 77-100.

(4)/ نفسه، ج1، ص: 76.

أما عن المسائل التي تضمنتها الرسالة "يسأله (أبي عمار) عن بعض مسائل السنية في الوعد والوعيد والنظر إلى الباري سبحانه وخلق القرآن "فهي تتناول قضايا في صلب الاعتقاد يبدو أن الفقيه عبد الوهاب تعرض لها في مناظرات مع مخالفيه من الأشاعرة، ولذلك ارتأى أن يراسل معارفه في وارجلان ممن نبغ في العقيدة علّه يسعفه بحجج يفحم بها خصومه ومخالفيه، والمتأمل فيها جيدا يدرك أن الفقيه عبد الوهاب في رسالته يعرض أفكاره ويقدم حلول لإشكاليات محتملة الوقوع ويجيب عنها، وكأنه يعرض إجاباته ليصحّحها الشيخ أبي عمار ويقدم له آراؤه فيها، وقد استطرد الوارجلاني في التفصيل فيما طلبه الأنصاري من أبي عمار فكان الرد يفيض بالحجج والتفاصيل والأدلة[1]، وفي النهاية ختم عبد الوهاب رسالته بالقول:"ونرغب من سيدي الابتهال في الدعاء، أن يحسن الله خلاصي ويطلق سراحي من بلاد السودان.."[2]، فربما يكون هذا الفقيه من بين ضحايا توتر العلاقة بين مملكة غانة والسلطة الموحدية، فالإشارة تدل على أنه أسير في يد السلطة الغانية[3].

النص الرابع[4]:" ومن غصب ما لا قيمة له كمن غصب ملحا في وارجلان فقدر على الغاصب في بلاد السودان استأديناه الملح أو قيمته هنا في هذا الموضع الذي قدرنا عليه فيه".

---

(1)/ ينظر حول هذه الرسالة: عبد الواحد العسري، "أجوبة مغربية عن إشكاليات عقدية وردت من بلاد السودان الغربي خلال ق 6هـ/ 12م"، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على ضفتي الصحراء، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999، ص: 465-479.

(2)/ أبو يعقوب الوارجلاني، مصدر سابق، ج1، ص: 100.

(3)/ شهد القرن 6هـ/ 12م توتر العلاقة بين الموحدين ومملكة غانة بعد أن قامت بالتضييق على دخول التجار المغاربة أسواق بلادها لاحتكار التجارة ينظر: عز الدين أحمد موسى، مرجع سابق، ص: 273.

(4)/ أبو يعقوب الوارجلاني، المصدر السابق، ج3، ص: 103.

يعالج المؤلف في هذا النص قضية فقهية تتمثل في الغصب وأحكامه من الناحية الشرعية بتقديم مثال عمّن يأخذ الملح غصبا في وارجلان ويسترجع منه في بلاد السودان فيكون ذلك على أساس قيمة الملح هناك لا على قيمته بوارجلان.

النص الخامس[1]: "وأنا أحدثك بحديث غريب عجيب شاهدته ورأيته وسمعته بأذني وعاينته بعيني في جماعة من المسافرين من بني وارجلان وقصته: جبل كان بين كانم وبين أولاد كوار منتصب في دهسم من الأرض ونحن في قافلة زهاء ثلاثمائة رأس من الرقيق ينقص قليلا، فانتهينا إلى الجبل وتقدمت خادم من خدامنا عوان إلى الكبر، فإذا هي تخاطب الجبل، فأخذت خادما واحدة فقالت بلسانها ولغتها: (يا جبل هل هذه الخادم ترجع إلى بلدها ووطنها؟ أم تتلف فلا تعود إلى بلدها ووطنها أبدا؟). فرد لها الجبل الجواب، ونحن نسمع الصوت ولا نفهم معناه وقد قرع أسماعنا بصداه. فإن كان جواب الجبل أنها تتلف ولا ترجع إلى وطنها أبدا ردتها الخادم الكبيرة وراء ظهرها وأخذت بيد خادم أخرى وخاطبت الجبل كأول مرة فيرد لها الجواب كأول مرة، فتردها وراء ظهرها كما فعلت بالأولى فما زالت تفعل بهن هكذا خادما بعد خادم إلى آخرهن خادما. فخاطبت الجبل فرد لها فرأينا الخدم أجمعين قد جرينا لها وطفقن يقبلنها ويعانقنها ويمسحن عليها، فسألناهن فقلنا لهن: (ما بال هذه الخادم من سائر الخدم ؟)، قلن: (إن هذا الجبل يقول: إنها سترجع إلى بلدها ولا تتلف أبدا)، والعجب كل العجب أن الرقيق كلهن يعرفن خطاب الجبل، لما تكلم يادرن بأجمعهن إلى الخادم يهنئنها ويقبلنها. فما زالت الأيام والليالي حتى وصلت إلى بلاد الإسلام إلى وارجلان فولدت من سيدها غلاما فربته وكبر الغلام حتى صار رجلا من الرجال فسافر إلى غانة ورجع وسافر ثم إنه مات فقالت لسيدها :(إن ابني قد مات وأنت ليست لك بي حاجة فدعني أذهب إلى أهلي ووطني وبلادي). فأذن لها ومرت وغابت عنا حتى أتانا كتابها من مقر أول حريم بلادها".

([1])/ نفسه، ج3، ص: 282-283.

أورد المؤلف ضمن كلامه عن الوحي وما يتعلق به قصة كان فيها حاضرا، حيث شارك في إحدى القوافل التجارية لجلب الرقيق من كانم إلى وارجلان[1]، وحكى ما رآه من تصرّف الإماء السودانيات أمام جبل يقع بين كوار وكانم من أجل معرفة مستقبل كل واحدة، وإمكانية عودتها لوطنها، وقد حالف الحظ واحدة منهن، فلما وصلت إلى وارجلان تزوّجت هناك، وأنجبت طفلا ثم صار رجلا يمارس التجارة بين وارجلان وغانة وتوفي بها وهذا خلال القرن 6هـ/ 12م، والمهم في القصة وجود طريق تجاري يربط وارجلان بكانم في السودان الأوسط لجلب العبيد من القبائل الوثنية، لذلك قال المؤلف عن وارجلان بلاد الإسلام، كما يتضّح من الرواية وجود تجار يتقنون اللغات المحلية السودانية، ومهما يكن فالنص مثل عن تغلب الأسطورة على النصوص الإباضية وتحكمها في تفاصيل الرواية وهذا يتضح في النص السابق.

- **مقرين بن محمد البغطوري[2] (حي سنة 599هـ/ 1203م)، سيرة مشائخ جبل نفوسة[3].**

أما عن نصوص البغطوري فهي:

النص الأول[4]: أبو الربيع بن أبي هارون الجلالي[1]: "وروي عنه أنه سعى وكسب مالا كثيرا وكان يسافر إلى تادمكت بالسودان وأنه كان إذا وقع في الشعبة بالشراء فيشتري فيها طالعا ونازلا ويمينا وشمالا فيصير فيها كالحصان الأجود".

([1])/ cf, Lewicki, Études maghrebines.., op.cit , p.59-60.

([2])/ من علماء جبل نفوسة، أخذ العلم عن عبد الله المجدلي وتوفيق الجناوني، ألّف سيرة مشائخ جبل نفوسة، كان هذا العالم حيا سنة 599هـ/ 1203م، خصّص البغطوري كتابه لذكر سير شيوخ جبل نفوسة وبهذا العمل يكون قد باشر كتابة بيوغرافية محلية ما يجعلني أعتبره أول مؤرخ وهبي يكتب سيرة محلية تختص بمنطقة جغرافية معينة. ينظر: الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 775. وكذلك: ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج4، ص: 883-884.

([3])/ تح: توفيق عيد الشقروني، ليبيا، مؤسسة تواتت الثقافية، 2009.

([4])/ نفسه، ص: 51.

يظهر في الرواية نشاط التاجر أبي الربيع في أسواق تادمكت، وربما هذا الأمر يمكن سحبه على كل تجار الجبل الذين يمارسون التجارة بهذه المراكز الصحراوية.

النص الثاني[2]: في الحديث عن أبي حسان بن أبي عامر: "فقال ما تقول يا أبا هارون فيمن جلب الخدم من بلاد الشرك فتسرّئ واحدة منهن فأتت بأولاد سود مثل الزيتون، فهل يلزمه قال نعم، فضحك من ضحك في المجلس فقام أبو حسان وهو يقول الضحك في المجلس فقال أبو هارون للضاحك: حرمتنا الفوائد يا رجل".

صادفتني في كتاب البغطوري مسألة فقهية تقدّم بها شخص يسمى أبا حسان بن أبي عامر من معاصري أبي هارون خلال القرن 3ه/ 9م في جبل نفوسة، والمسألة تتعلق بنكاح الإماء السودانيات وهي ظاهرة عمّت المناطق التي عرفت انتشارا واسعا لتجارة الرقيق مثل جبل نفوسة مع السودان الأوسط، وهو الأمر الذي تحدث عنه اليعقوبي في القرن 3ه/ 9م[3]، وقد رأينا ذلك آنفا مع قصة عبد الله بن الأمير في جربة، وعموما فالرواية توحي بأن العنصر السوداني الوافد أخذ مكانا لا بأس به في المجتمع الإباضي وأصبح يأخذ حيّزا من الاستفسارات الفقهية.

النص الثالث[4]: " وروي عن أبي يحي[5] أنه سافر إلى بلاد السودان فوجد مليكهم ناحل الجسم ضعيف فسأله لما صار حالك هكذا فقال: "عندنا ها هنا شيء إذا

---

(1)/ أبو الربيع بن أبي هارون الجلالي النفوسي فقيه وهبي عاش على الأرجح نهاية القرن 3ه/ 9م بشروس، لأن والده أبا هارون الجلالي ممن حضر موقعة مانو، اشتهر أبو الربيع برحلاته التجارية نحو تادمكت. ينظر: الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص: 433-434. وكذلك ينظر: البغطوري، المصدر السابق، ص: 47.

(2)/ البغطوري، ص: 39.

(3)/ اليعقوبي، البلدان، مصدر سابق، ص: 98.

(4)/ البغطوري، مصدر سابق، ص: 65.

(5)/ أبو يحي بن أبي القاسم الفرسطائي النفوسي عاش أواخر القرن 3ه/ 9م، فوالده أبو القاسم كان من ضحايا معركة مانو سنة 283ه/ 896م، من شيوخه بشروس أبي هارون الجلالي. ينظر:

نزل ببعضنا ذهب به وأزاله" قال أبو يحي فأخبرته عن الله عز وجل وصفة الجنة وثوابها لمن أطاع الله وأخبرته عن النار وعقابها لمن عصى الله فقال لي كذبت لو كان عندك يقين بما تصف لم تأت إلى هنا لطلب الدنيا فما زلت أحاوله وأذكر له الله ونعمائه وأرغبه في الإسلام حتى أسلم وحسن إسلامه".

اشتهر أبو يحي بأسفاره إلى بلاد السودان، وأسلم على يديه أحد ملوكها، وعلى الرغم من عدم تحديد اسم هذه المملكة، فمن المرجح أن تكون مملكة قاو فقد أشرت سابقا إلى أن الإسلام تسرب إليها منذ القرن 3ه/ 9م، ولا يستبعد أن يكون قد وصل إلى أهل المملكة بعد إسلام الملك على يد أبي يحي. يبدو أن خوف ملك السودان من الموت هو الظرف الذي ساعد أبو يحي على دعوته إلى الإسلام وترغيبه فيه، ويتضح من الرواية أن أبا يحي يتقن لغة هذه المملكة فلم يذكر أنه استعمل ترجمانا في حواره مع الملك، وهذا النص مثال على بلوغ فقهاء الإباضية إلى قصور الملوك السودانيين ومحاورتهم ودعوتهم للإسلام كما يستخلص من الحوار الذي جمعه والملك أنه كان تاجرا بتلك البلاد.

النص الرابع[1]:

"وذكر عن الشيخ أبي عمرو[2] وكان حاكما وكان شديدا في الأمر والنهي سمع بمجلس الخمر في الفحص بجامع خلف وهو على ستة أميال من شروس فمضى إليهم

الشماخي، مصدر سابق، ج2، ص: 433-434. وكذلك ينظر: البغطوري، المصدر السابق، ص:64.

([1])/ البغطوري، مصدر سابق، ص:87.

([2])/ أبو عمرو ميمون بن محمد الشروسي التندميرتي النفوسي من أعلام وعلماء الجبل، عاش خلال النصف الثاني من القرن 4ه/ 10م، تولى الحكم بالجبل بعد أبي سليمان التندمرتي، وهو الذي قال عنه : "...هذا الذي طرح الحمل عن ظهره فحملته أنا". ينظر: البغطوري، ص: 87. وكذلك ينظر : معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج4، ص: 909.

فصادفهم في ذلك فكسره لهم. وروي عنه أنه حين كان قائما بالأمور سار من عنده أهل تكرور يريدون الحج فأعطوه أربعمائة دينار فأبى أن يأخذها...".

يبدو أن شروس كانت من بين محطات طريق الحج لأهل تكرور، وبالتالي يكون طريق الحج ينطلق من تكرور إلى غانة إلى قاو ومنها إلى تادمكت ثم غدامس ومنها إلى جبل نفوسة ومنها إلى المشرق.

النص الخامس[1]:

" وذكروا عن غزالة الآمة كان أهلها في بلاد الشرك وقالوا عنها أنها إذا أكلت الدم لما كانت في بلادها قبل أن تسلم تتقياد. ولما جلبها مشتريها ربطها ليلا في سلسلة مع الخدم فاذا سمعت قراءة القرآن في الرفقة قعدت على نفسها وبركت على ركبتيها وجعلت تسمع وأسلمت واشتراها رجل من أهل ويغو فصارت تخدم مولاها بالنهار وتجتهد في العبادة بالليل وكان حالها إذا نومت واليها تسري في الليل فتحضر مجلس الذكر عند أبي محمد عبد الله بن الخير في تنوزويرف ثم ترجع فتحيي ليلتها في كهف لها في وادي الزبر فتجد فيه مصباحين قد وُقِدا لها في كهفها فتتعبد إلى آخر الليل فتأتي المنزل فتوقظ مواليها لصلاة الصبح فكان حالها كذلك ما شاء الله من الزمان. ولما نظر إليها مولاها فرأى ما بها من التعب اعتقها فتمادت على ما هي عليه من العبادة وبعد عتقها لا تجد في كهفها إلا مصباحا واحدا".

جاء الحديث عن هذه الآمة في ترجمة أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي النفوسي الذي عاش بجبل نفوسة خلال النصف الأول من القرن 3ه/ 9م وبالتالي تكون هذه الآمة قد عاشت بويغو إحدى مدن جبل نفوسة خلال الفترة نفسها وهي المرأة التي تزوجها أبو عامر التصراري ويبدو أنها جلبت من القبائل الوثنية بالسودان الأوسط[2]. القصة وقعت خلال القرن 3ه/ 9م، والمغزى من هذه الرواية أن تجار

([1])/ البغطوري، مصدر سابق، ص: 97-98.

([2])/ البغطوري، مصدر سابق، ص :87. وكذلك ينظر: معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، مج2، ص: 08-10.

جبل نفوسة كانوا يتاجرون في الإماء السودانيات للعمل في البيوت ولا ندري من أين يتم جلبهم بالضبط ولكنني أرجح أن يكون ذلك من كانم فقد ارتبطت بالجبل بعلاقات تجارية خاصة تجارة العبيد كما رأينا ذلك مع اليعقوبي[1].

الخاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا أن نلمس مساهمة المصادر الاباضية ودورها في التأريخ للعلاقات التجارية بين بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص من جهة وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى، لقد تضمن الإنتاج المعرفي الاباضي التاريخي والفقهي وحتى العقدي إشارات واضحة تعبر عن وجود علاقات تجارية نشيطة ربطت الشمال بالجنوب. ورغم كون هذه الإشارات مقتضبة وبسيطة ولا تتوفر على تفاصيل دقيقة من شأنها أن تنور الباحث في موضوع التجارة إلا أن ذلك لا يؤثر على المعلومة في حد ذاتها، ومن الأرجح أن ذلك يعود إلى كون الرواية لم توضع لتؤرّخ للتجارة بقدر ما هي تعريف بعلم معين وبأعماله، الأمر الذي أعطى للمؤلفين سلطة اختيار المعلومات وحرية توظيفها في بناء ترجمة عالم معين. وفي نهاية هذه الورقة تبقى مساهمة المصادر الاباضية في التأريخ للعلاقات التجارية المغربية السودانية لا بأس بها وتشكل الأساس والمنطلق للباحثين إذ يمكن الاستنباط من تلك الروايات معلومات تتعلق بالرحلات التجارية والتجار والسلع والطرق التجارية ووسائل الرحلة وستكون هذه المساهمة أوضح بكثير إذا دعّمت بمصادر أخرى وهي كثيرة.

([1])/ اليعقوبي، البلدان، مصدر سابق، ص: 98.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المصادر:

01/ ابن الصغير (ت بعد 294هـ/ 907م)، *أخبار الأئمة الرستميين*، تح: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

02/ ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، ت 779ه/ 1377م)، *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، نشر: كرم بستاني، بيروت، دار صادر، 1992.

03/ ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحي، ت 749ه/ 1348م)، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، تح: حمزة أحمد عباس، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2002، السفر الرابع.

04/ ابن سلاّم (لوّاب اللوّاتي، ت بعد 273هـ/ 886م)، *كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين*، تح: فيرنر شفارتز وسالم بن يعقوب، فرانز شتايز، فيسبادن، 1986.

05/ الإدريسي (أبو عبد الله بن محمد، ت 560هـ/ 1165م)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، تح: مجموعة من المحققين، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، دت.

06/ البكري (أبو عبيد، ت 487ه/ 1094م)، *المسالك والممالك*، تح: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، مج2.

07/ البغطوري (مقرين بن محمد، حي سنة 599ه/ 1203م)، *سيرة مشائخ جبل نفوسة*، تح: توفيق عياد الشقروني، ليبيا، مؤسسة توالت الثقافية، 2009.

08/ الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد، ت 670ه/ 1272م)، *طبقات المشائخ بالمغرب*، تح: إبراهيم طلاّي، قسنطينة، مطبعة البعث، 1974، 2ج.

09/ المديوني جنّاو بن فتن وعبد القهار بن خلف (ق 3ه/ 9م)، *أجوبة علماء قرّان*، تح: عمرو خليفة النامي، إكمال: إبراهيم محمد طلاي، قسنطينة، دار البعث، 1991.

10/ المزاتي (أبو الربيع سليمان بن يخلف، ت 471هـ/ 1078م)، *السّير*، تح: حاج سعيد مسعود، ط2، السيّب، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، 1993.

11/ الشماخي (أبو العباس أحمد بن أبي عثمان، ت 928ه/ 1522م)، *كتاب السّير*، تح: محمد حسن، ليبيا، دار المدار الإسلامي، 2009، 3ج.

12/ الوارجلاني (أبو زكرياء يحي بن أبي بكر، ت بعد 474ه/ 1081م)، *السّيرة وأخبار الأئمة*، تح: عبدالرحمان أيوب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985. تح: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

13/ الوارجلاني (أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، ت 570ه/ 1175م)، *الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق*، تح: الشيخ سالم بن حمد الحارثي، ط2، عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 2006، 3ج.

14/ الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان،ت بعد 557ه/ 1162م)، *السير*، تح: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

15/ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، ت 284ه/ 897م)،*كتاب البلدان*، ليدن، مطبعة بريل، 1890.

16/ *مجموع السّير*، تح: عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، 2009، 3ج.

- الكتاب الثالث: الفرسطائي (أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي، ت 504ه/ 1111م)، *السير*، ج2، ص: 763-917. يأتي من حيث الترتيب الأول في المجموع.
- الكتاب الأول: الوسياني (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان، ت بعد 557ه/ 1162م)، *السير*، ج1، ص: 227-517. من حيث الترتيب الثاني.

- الكتاب الثاني: مجهول (ت ق 6ه/ 12م)، *السير*، ج2، ص: 519-761. الثالث من حيث الترتيب.

17/ مجهول (ت ق 6هـ/ 12م)، *الاستبصار في عجائب الأمصار*، نشر : سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1985.

18/ عبد الكافي (أبو عمار التناوتي، ت قبل 570ه/ 1175م)، *الستير*، تح: مسعود مزهودي، دن، 1995.

2- المراجع:

1/ إحسان (عباس)، "مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد"، *مجلة الأصالة*، 41 (1977)، ص: 25-42.

2/ الجيلالي (عبد الرحمان)، "أبو يعقوب يوسف الوارجلاني وكتابه الدليل والبرهان"، *مجلة الأصالة*، 41 (1977)، ص: 162-171.

3/ الشكري (أحمد)، *مملكة مالي الإسلامية*، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1999.

4/ نفسه، *مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية*، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997.

5/ الشيخلي (صباح إبراهيم)،" النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس عشر "، *تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر*، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984، ص: 29-46.

6/ إسماعيل محمود (عبد الرزاق)، *الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف ق 4ه*، ط2، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

7/ بحاز (إبراهيم)، *الدولة الرستمية (160-296ه/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية*، ط3، الجزائر، منشورات ألفا، 2010.

8/ بحاز (إبراهيم وآخرون)، معجم *أعلام الإباضية*، غرداية، المطبعة العربية، 1999، مج2، مج3، مج4.

9/ بنعزوز (فريدة)، "قراءة في أبحاث تاديوش لوفيتسكي حول فجر العلاقات بين المغرب وبلاد السودان"، *أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على ضفتي الصحراء*، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1999، ص: 453-464.

10/ بورويبة (رشيد)، *الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها*، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977.

11/ حسن (محمد)، *الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع*، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.

12/ ديبوا (جون)، *جغرافيا جبل نفوسة*، ترجمة : عبد الله زارو، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2005، ج1.

13/ طرخان (إبراهيم)، *إمبراطورية غانا الإسلامية*، القاهرة، الهيئة الإسلامية العامة للتأليف والنشر، 1970.

14/ كوردي (محمود حسين)، *الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على السودان الغربي (ق 2-8هـ/ق8-14م)*، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2008.

15/ موسيو لقبال، "من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى مكتبة المعصومة بتهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار بني وارجلان"، *مجلة الأصالة*، 41 (1977)، ص: 51-59.

16/ نفسه، " الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/ 10م وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية والزاب والحضنة والأوراس "، *مجلة الأصالة*، 60-61 (1978)، ص: 55-64.

17/ لوفيتسكي تاديوش، *المؤرخون الإباضيون في شمال إفريقيا*، ترجمة : مهر جيار وريما جيار، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2007.

18/ مزهودي (مسعود)، *الإباضية في المغرب الأوسط*، غرداية، المطبعة العربية، 1998.

19/ نفسه، *جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب*، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2003.

20/ مفتاح (صالح بن معيوف)، *جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية*، ليبيا، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2006.

21/ موسى (عز الدين أحمد)، *النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري*، بيروت، دار الشروق، 1983.

22/ عارف (تامر)، *المعز لدين الله الفاطمي*، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982.

23/ عمارة (علاوة)، " الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط"، *مجلة التاريخ العربي*، 32 (2004)، ص: 330-370.

24/ فخار (إبراهيم)،" تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى"، *تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر*، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984، ص: 47-68.

25/ سعد (زغلول عبد الحميد)، "هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير "، *أعمال المؤتمر الأول لتاريخ وحضارة المغرب*، تونس، 1979، ص: 275-296.

26/ ولد الحسين (الثاني)، *صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2/8م إلى نهاية القرن 5/11م*، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2007.

27/ Amara Allaoua, « la structuration des ibadites-wahbites au Maghreb 11e au 15e siècle », *Annales islamologiques*, 42 (2008), p.259-273.

28/ Ibid, « Remarque sur le receuil ibadite-wahbite siyar al mashayikh: retour sur son attribution », *AAM*, 15 (2008), p.31-40.

29/ Ibid, « l'évolution de la théologie ibadite Maghrébine d'après une épitre hérésiographique de la fin de 5e/11e siècle », *Ibadi Theology. Rereading sources and scholarly works*, George olms Verlag, New York, 2015, pp.93-101.

30/ Ibid, « Entre le massif de l'Aurès et les oasis : apparitions, évolutions, et disparition des communautés ibāḍites du zāb (VIII-XIVe), *REMMM132*, pp. 115-135.

31/ Ennami, Amr. Khalifa, « A Description of new Ibadi Manuscripts from North Africa », *Journal of Semitic Studies*, 15 (1970), p.63-87.

32/ Ibid, *Studies in ibadism*. Thesis-Ph.d, Cambridge university, 1971.

33/ Lewicki Tadeusz, « l'État nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8e et 9e siecle », *Cahiers d'études africaines*, vol.2, cahier 8, 1962, p.513-535.

34/ Ibid, «Les historiens ,biographes et traditionistes ibadites wahbites de l'afrique du nord ». *Folia Orientalia*, 3 (1961), p.1-134.

35/ Ibid, « La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du nord au moyen âge », *Rocznik Orientalistyczny*, 21 (1957), p. 301-343.

36/ Ibid, « Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », *Histoire générale de l'Afrique*, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol.3, p. 304-339.

37/ Ibid, « Les subdivisions de l'ibadiyya », *Studia Islamica*, 9 (1958), p.71-82.

38/ Ibid, « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commercants et des missionnaires ibadites nord-africains au pays du Soudan occidental au moyen âge », *Folia Orientalia* , 2 (1960), p.1-27.

39/ Ibid, «De quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite anonyme », *Revue d'études islamiques*, 3 (1934), p. 275-296.

39/ Ibid, «Traits d'histoire du commerce transaharien marchands et missionnaires ibadites au soudan occidental et central au cours du 8e au 12e siècles», *Ethnographia Polska*, 8 (1964) , p.291-311.

40/ Ibid, « Une chronique ibadite, Kitab as- Siyar d'Abu 'l-'Âbbas Ahmad aš-Šammahí », *Revue d'études Islamiques*, 1 (1934) . p. 59-78.

41/ *Études Maghrébines et Soudanaises*, Varsovie, Éditions scientifiques de Pologne, 1976-1983, 2vol.

42/ Prévost Virginie,« La renaissance des ibadites wahbites à Djerba au 10e siècle », *Folia Orientalia*, 40 (2004), p. 171-191.

43/ Ibid, *L'aventure ibadite dans le sud tunisien. Effervescence d'une region méconnue*, Helsinki, Academia scientiarum Fennica, 2008.

44/ Ulrich Rebstock, *Die Ibāḍiten im Maġrib (2/8–4/10.Jh.). Die Geschichte einer Berberbewegung im Gewand des Islam*, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1983, p. 11-12.

الإبل ودورها في حركة التبادل بين المغرب الأوسط وبلاد السودان الغربي

(ق. 05 – 10 هـ / 11-16 م)

أ.كمال منصوري
طالب دكتوراه-
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة

مقدمة:

لما كنت بصدد مطالعة بعض المراجع، التي تتناول الصحراء الإفريقية الكبرى، استفزتني بعض الأفكار التي تم تداولها، مثل استخدام فرنسا الإبل في تثبيت أقدامها بالصحراء الجزائرية أثناء الاحتلال، وكيف أبادت عشرات الآلاف منها لسوء استخدامها، فخسرت الجزائر بذلك نصف ثروة الإبل[1]، وعملت بشتى الوسائل على قطع الصلات الحضارية بين شمال وجنوب الصحراء، ونذكر هنا المرسوم الذي أصدره الفرنسيون سنة 1328 هـ / 1911 م لمنع استعمال اللغة العربية في السودان الغربي نهائيا[2]. واعتقد بعض الأوروبيين في بداية القرن العشرين ميلادي أن مهمة الإبل في الصحراء، والتي دامت ألفي عام، قد أوشكت على النهاية، وتوقعوا أن تلقى

---

[1]- جورج غيرستر، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة 01، 1961 م، ص. 15. روبرت إيروين: **الجمل التاريخ الطبيعي والثقافي**، ترجمة: أحمد محمود، مراجعة: خالد المصري، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، 2012 م، ص. 189.

[2]- عبدالقادرزبادية: " **ورقلةعروس مدائن الجنوب الجزائري**" ،مجلة الأصالة، العدد 41، السنة السادسة، محرم 1397 هـ/ جانفي 1977م، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،ص. 146.

في سلة المهملات، ويقام لها نصب تذكاري، يسجل عليه " إلى الجمل المجهول "؛ كان ذلك بعد نجاح رحلة برية[1]، تضم خمس سيارات فرنسية من نوع سيترويان (Citroën)، من تقرت إلى تمبكتو في 20- 5- 1341 هـ / 07-1- 1923 م دون خسائر، وقد تعمد رواد هذه القافلة الآلية عن قصد عدم الاعتماد على الهجانة للاستعلام عن مسالك الصحراء، وذلك تمهيدا للاستغناء عنهم[2].

فقرّرت أن أتناول بالدراسة الإبل تلك المخلوقات العجيبة، التي كانت آية من آيات الله ﷻ للتدليل على عظمته[3]، وارتبط اسمها بالصحراء ذات الطبيعة القاسية

---

[1]- قام الفرنسيون عام 1338 هـ / 1920 م ولأول مرة بمحاولة طيران فاشلة عبرالصحراء بغرض الوصول إلى تمبكتو انطلاقا من بسكرة، فسقطتا خرطائرة بصحراء تينزوتين فيأ قصى الجنوب الجزائري جورج. **أنظر**: غيرستر، **مرجع سابق**،ص. 16 – 19.

[2]- **نفسه**،ص. 15 – 22.

[3]- وقف المفسرون كثيرا عند سورة الغاشية وآيتها 17، ﴿ **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾؛ فهي من المخلوقات الدالة على قدرته وعظمته، خلقها عجيب، وتركيبها غريب، فهي في غاية القوة والشدة، تنقاد للضعيف، وتلين للحمل الثقيل، ويؤكل لحمها، ويشرب لبنها، وينتفع بوبرها وجلدها وعظامها، ولما أراد لها أن تكون سفائن البر، صبّرها على احتمال العطش إلى عشرة أيام فما فوق، وجعل مرعاها ميسرا، تأكل كل شيء نبت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه بقية البهائم. وهي على عظم نفعها، وخدمتها قليلة التكاليف، وكلفتها ضئيلة. فهي خلقت على نحو مناسب لوظيفتها، محقق لغاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعاً. لم يخلقها الإنسان، ولم تخلق نفسها، خلقها الله ﷻ الذي أبدع الصنعة، التي تدل عليه، وتقطع بوجوده. أنظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت. 671 هـ / 1273 م)، تفسير القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج. 20، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. 02، 1405 هـ / 1985 م، ص. 34. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت. 774 هـ / 1372 م)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الجزء 08 ، دار طيبة للنشر والتوزيع،الرياض، ط. 02، 1420هـ / 1999 م، ص. 386. سيد قطب (ت. 1385هـ / 1965 م)، في ظلال القرآن، المجلد 06، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط. 32، 1423 هـ / 2003 م. ص. 3898.

والمترامية الأطراف، والتي لا تصمد فيها الحيوانات الأخرى أمام الهلاك، وحولتها من حاجز طبيعي أمام الإنسان، إلى منطقة عبور؛ وكيف كان لها الفضل عندنا في المغرب الأوسط في تنشيط حركة التبادل الحضاري مع السودان الغربي، بعد استكشاف مجاهلها وأسرارها ومسالكها، وواحاتها التي كانت تشبه الجزر في المحيط، حيث كانت القوافل التجارية تتحمل الطرق الطويلة التي تعرّج على الواحات، وتتجنب المناطق الموحشة التي تنعدم فيها مصادر الحياة من ماء وكلأ وخدمات.

أولا: الإبل سفائن الصحراء:

1-لمحة تاريخية عن الإبل وبيئتها: عرفت الصحراء الإفريقية الكبرى الاستيطان منذ أقدم العصور، ويرجح أن سكانها البيض، قد تواجدوا فيها قادمين من الشمال في وقت متأخر نسبيا، لعل كان ذلك في نهاية السيطرة الرومانية. وقد كانت الإبل[1] الوسيلة الأولى والهامة للتواصل بين شمال الصحراء وجنوبها[2].

تصنف الإبل في المملكة الحيوانية Animalia كالآتي: الشعبة: الفقريات Vertebrata، الصف: الثدييات (اللبائن) Mammalia، الرتبة: الحيوانات الحافرية Ungulata، تحت الرتبة: ذوات الظلف Artiodactyla، القسم: المجترات الحقيقية Pecora، العائلة: الجملية (الإبليات) Camelidae، الجنس: اللاما Lama(L.glama, L.pacose, L.ganaco)، الجنس: فيكونا Vicugna ولها نوع واحد (V. vicuna)، الجنس: الجمال Camelus، النوع: الجمال ذات السنام

---

[1]- **الإبل:** اسم جنس يطلق على الجمل والناقة معا، مثل البعير كذلك يطلق عليهما أيضا. أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت. 771هـ / 1311 م)، لسان العرب، الجزآن 04، 11، دار صادر، بيروت، ط. 01، د. ت.، ص. 03، 71، 123.

[2]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 م، ص. 33.

الواحد Dromedarius، النوع: الجمال ذات السنامين Bacterianus[1]، وتعرف بالجمال المنغولية، أما النوع الأول فيعرف بالجمال العربية، فالجمل بخصائصه الحالية هو ابن الصحراء، والصحراء العربية موطنه الأول.

الإبل حيوانات عريقة شديدة التحمل والتأقلم مع ظروف البيئة حيث وهبها الله مواصفات تشريحية وجسمانية مكنتها من العيش، والعمل في ظروف شديدة القساوة[2].

رجحت بعض الحفريات، أن الإبل يعود أصلها إلى ملايين السنين، وقد تطورت عن أسلاف في حجم الأرانب قرب الدائرة القطبية الشمالية بقارة آسيا، عندما تحركت جنوبا نحو المناطق الدافئة شرق القارة عبر مضيق بيرنج المؤدي إلى قارة أمريكا، حيث بقيت بعض السلالات في أمريكا الجنوبية في وضع مورفولوجي وتشريحي وسيط حتى وقتنا الراهن. أما في صحاري آسيا الوسطى الباردة، فظهرت إبل ذات سنامين، تتميز بضخامة أجسامها، وكثافة وبرها، على عكس السلالات التي توجهت نحو غرب آسيا، توطن بعضها في الهند، واستقر البعض الآخر في مراعي منطقة حضر موت جنوب شبه الجزيرة العربية، حيث تكاثرت بصورة مثالية في شكل الإبل ذات السنام الواحد، ولا توجد فصائل منافسة أو مفترسة لها.

كان سكان حضر موت يصطادون الإبل للانتفاع بلحومها وألبانها لعدة قرون، قبل الاستئناس بها لأول مرة منذ الفترة ما بين 5000 – 4000 عام قبل الميلاد. ويعتقد أن حضر موت كانت منطلقا لهذا النوع من الإبل نحو شمال شبه الجزيرة العربية وشمال وشرق وغرب إفريقيا خلال الفترة 4000 – 3000 ق. م.،

---

[1]- زهير فخري الجليلي، **الإبل أسرار وآيات**، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. (www. m.quran-m.com)

[2]- حافظ زينهم حافظ، من أهم أمراض الإبل .. **وطرق علاجها**، عيادة الإسلام البيطرية. (www. kenanaonline.com)

ويرجح أن انتقالها إلى هذه المناطق كان مع ظهور القوافل التجارية. وقد اختلف المؤرخون حول المنافذ التي سلكتها قوافل الإبل نحو إفريقيا، هناك من يرى أنها وصلت مصر عبر شبه جزيرة سيناء، أو شرق نهر النيل مرورا بالبحر الأحمر، ويرى آخرون أنها عبرت مضيق باب المندب نحو صحراء الدنكل بالقرن الإفريقي، ثم تنقلت صعودا بوادي النيل عبر السودان نحو مصر، ويرى البعض الآخر أنها انتقلت إلى شمال إفريقيا عبر إقليم دارفور السوداني إلى الجنوب الليبي، فبقية بلاد المغرب. لكن هذا لا يمنع أن تكون كل هذه الآراء صحيحة، فقد مرت بهذه المسالك لتنتشر في الصحراء الإفريقية الكبرى في فترات متباينة، علما أن نقوشا أثرية للإبل، وجدت في أحد المعابد المصرية يعود تاريخها إلى أكثر من 4000 عام قبل الميلاد؛ وتم اكتشاف حفريات تدل على وجود الإبل في الصين خلال الفترة 1500 – 1400 ق.م.، يمكن أن تكون للإبل ذات السنامين، لكن هذا لا ينفي أن النوعين من الإبل قد عاشا معا قبل أن يفترقا، وتستقر ذات السنامين بآسيا الوسطى، وذات السنام بغرب آسيا والصحراء الإفريقية. وبخصوص استئناس الإبل في آسيا الوسطى يكون قد تأخر إلى حوالي القرن الثالث إلى الثاني قبل الميلاد أثناء انتعاش تجارة الحرير[1].

توافقت أبحاث عديدة على أن العلاقات بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء كانت قديمة منذ ما قبل الميلاد، وكانت الأسس الأولى المباشرة لهذه العلاقات هي التجارة وتبادل المنتجات والسلع والبضائع[2]، أو بمعنى آخر أن هذه العلاقات تزامنت مع تواجد الإبل التي أختلف في تاريخ تواجدها في شمال إفريقيا،فهناك من يرى أن الفرس أدخلوها إلى إفريقيا عند غزوهم لمصر في القرن السادس قبل الميلاد، ثم وصلت بلاد المغرب لأول مرة في عهد يوليوس قيصر في

---

[1]- حامد عقب محمد، بابكر عباس، **بيئة الإبل وأمراضها**، جمعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، الخرطوم، 2010 م، ص. 01 – 02.

[2]- عبدالقادرزيادية،**مرجع سابق**،ص. 141.

القرن الأول قبل الميلاد. وبقيت غير شائعة الاستخدام إلى العصر الروماني المتأخر في القرن الرابع الميلادي. ويرجح أن قبائل صنهاجة كانت الرائدة في استغلال الإبل واستعمالها كسفن لاجتياز فيافي الصحراء الإفريقية الكبرى[1].ويرجح آخرون، أن تكون الإبل قد دخلت إلى صحراء بلاد المغرب، مع الجيش الروماني، الذي ينتمي إلى أصول سورية، في عهد أسرة الأباطرة الرومان التي حكمت ما بين 193 – 235 م[2].

أشتهر العهد الروماني ببناء العديد من الطرق، التي كانت تتوغل في مجاهل الصحراء نحو بلاد السودان، وقد مرت هذه المسالك بمرحلتي نرئيستين، المرحلة الأولى وتميزت بترصيف الطرق، والمرحلة الثانية اتسمت بتوسيعها واستخدام الإبل،فسميت " الطرق الحوافرية "[3]. كانت الإبل في العهد الروماني من ضمن الحيوانات التابعة للجيش، وتستخدم في مختلف الأغراض العسكرية، ما عدا القتال. ولما وصلت ملكيتها إلى أيدي المدنيين، تحولت إلى وسيلة للنجاة من ظلم الاحتلال الروماني طلبا للحرية، فأطلق عليه " حيوان الحرية ". ولكن الإبل التي كانت أداة للحرية في يد البعض كان البعض الآخر يستغلها في الاستعباد والاسترقاق. وهكذا قد خلق ظهور الإبل فرصا مثالية لتعمير الصحراء ولاستغلال مواردها الطبيعية ولجعلها منطقة عبور بين البحر الأبيض المتوسط والعالم الأسود. وقبل ظهور الإبل، كان الفرس هو وسيلة الركوب ونقل الأثقال، لكن في إطار ضيق، فهذا الحيوان يحتاج في أوقات منتظمة إلى الماء، كما يحتاج إلى العلف والتبن والشعير، وهي أمور ليست متوفرة باستمرار في الصحراء. فقبل أن يفرض الرحل سطوتهم على الصحراء، بفضل

---

[1]- كولين ماكيفيدي، **أطلس التاريخ الإفريقي**، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 م، ص. 75.

[2]- إسماعيل العربي، **مرجع سابق**، ص. 43.

[3]- الطاهر قدوري، " **الطرق التجارية الصحراوية وامتداداتها في البحر المتوسط في العصر الوسيط** "، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد 15، 2011 م، ص. 90.

الإبل، كانت المناطق المأهولة في الصحراء قليلة جدا. الفرس هو الآخر لا ينتمي إلى أصل صحراوي، يرجح أنه دخل مصر قادما من قارة آسيا، ووصل شمال إفريقيا في بداية الألف الثانية قبل الميلاد[1]. وذكر الدميري (ت. 808 هـ / 1405 م) نقلا عن كتاب خير البِشر بخير البَشر، أنه كان على أحد أبواب الإسكندرية، تمثال نحاس لجمل عليه راكب في هيئة عربي، وظل هذا الصنم بمكانه حتى الفتح الإسلامي لمصر[2].

إن الإبل أصلح للصحراء من الخيول، فهي تتميز بخصائص جسدية وتشريحية مناسبة للطبيعة الصحراوية، ودخولها شمال إفريقيا شكل نقطة تحول تاريخية، أدت إلى تدفق الشعوب البيضاء نحو إفريقيا جنوب الصحراء، على عكس حقبة الخيول[3]. تعني الصحراء بالنسبة للبدو الرحل، تلك الأرض الجرداء الشاسعة والمسطحة، ذات اللون المزيج من البني والرمادي، وهي رمز للموت وألوانه المختلفة، فعندما يتحدثون عنها، لا يفكرون بما في واحاتها من بساتين النخيل، ولا في آبارها، على أنها جزر حية في محيطات شاسعة من الرمال القاحلة والحصى، بل يربطونها بمفازع الموت. فلولا الإبل ذات السنام الواحد، التي كانت عجلة الانتقال الأول في الصحراء، لما استطاعوا الصمود لحرارة الصحراء الملتهبة[4].

---

[1]- إسماعيلالعربي،مرجع سابق،ص. 43 – 44.

[2]- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت. 808 هـ / 1405 م)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق إبراهيم صالح، الجزء 01، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط. 01، 1426 هـ / 2005 م، ص. 658.

[3]- زهير الكرمي، محمد سعيد صباريني، عالم الحيوان، الأطلس العالمي، تحقيق عصام الياس، حافظ قبيسي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983 م، ص. 23.

جورج غيرستر، مرجع سابق، ص. 56.

[4]- نفسه، ص. 09 – 10. إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص. 42.

صحيح أن هناك حيوانات استخدمها الإنسان الصحراوي منذ فجر التاريخ مثل: الثور والفرس، لكن تبقى الإبل أكثر الحيوانات ارتباطا بالصحراء المترامية الأطراف، فهي الأقدر على قطع المسافات الطويلة، وتحمل المشاق، فتركيبتها الجسمانية والتشريحية خلقت لتتأقلم مع البيئة الصحراوية الحارة والجافة والقاحلة.

1-خصائص الإبل الجسدية والتشريحية: الإبل أفضل رفيق للإنسان في الصحراء، وذلك لمزاياها الكثيرة، التي جعلتها بحق من الكائنات العجيبة، ويعتبر وصف القزويني (ت. 682 هـ / 1283 م) لها، من أبرز الأوصاف التي أطلقت عليها: " من الحيوانات العجيبة، وعجبها سقط عن أعين الناس لكثرة رؤيته إياها، وهو أنه حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به، ويمسك بزمامه فأرة تؤديه حيث شاءت ويتخذ على ظهره شبه بيت يقعد الإنسان فيه، مع مأكوله ومشروبه وملبوسه بظروفها، والوسادة والنمرقة واللحاف، كما في بيته، ويتخذ للبيت سقفا كأنه في داره، وهو يمشي به،... وربما يصبر عن الماء عشرة أيام، ويصبر عن العلف ثلاثة أيام، وإنما طولت رقبته لتكون مناسبة لقوائمه عند الرعي قائما ليستعين بها بمد النفس عند النهوض وليبلغ مشفره ساير جسده فيحكها. وذُكر أنه حيوان حقود إذا ضربه الجمّال يترصد الظفر به، ولو بعد حين فينتقم منه، ويهيج في شهر شباط، فعند ذلك لا يعتلف إلا يسيرا، ولا خبر عنده من الحمل فيحمل حمل بعيرين أو ثلاثة، تؤخذ عصارة الفودنج وتقطر في منخريه يذهب عنه ذلك، وإذا مرض يأكل من شجر البلوط يزول مرضه، وإذا نهشته الحية يأكل السرطان يدفع عنه غايلة السم "[1]. ومن المفارقات أن جل العرب في الوقت الراهن، يعتبرون أن الإبل رمز للتخلف[2]، وتجاهلوا قيمتها الحقيقية، التي لن تتبدد مع طوارئ الأيام.

---

[1]- القزويني، زكرياء ب نمحمد بن محمود(ت. 682 هـ/ 1283 م)، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، طبعة ليدن، 1848 م، ص. 379.

[2]- روبرتايروين: **مرجع سابق**، ص. 203.

الإبل حيوانات نهمة ومبطانة، وخبيرة في المأكولات والمشروبات في نفس الوقت، وإذا ما أعطيت الخيار، أمكنها التمييز بين الأعشاب النافعة والضارة، وأوقات طعامها مرنة وغير محدودة، لا بعدد الساعات، ولا حتى بعدد الأيام[1]. تفضل الإبل قضاء فترة ما بين 08 - 10 ساعات في الرعي، وهي تحب الحركة كثيرا في أثناء ذلك، مما يساعدها على تناول كميات متنوعة من الغذاء، وهذه الحركة تخفف من الإضرار البيئي للحياة النباتية في الأماكن التي ترتادها، ويتم التهام الغذاء ثم اجتراره وهضمه فيما بعد، وتحتاج الإبل إلى ملح كثير، وهو ما تحصل عليه في العادة بأكل أنواع معينة من النباتات، مثل: شجرة السنط، مفيدة لغذاء الإبل بسبب ارتفاع نسبة ما تحتويه من ماء وملح، وتعيش الإبل بشكل مريح مع العاقول (شوك الجمل)، والقطف (الشجيرة الملحية)، وشجرة السنط التي لا تقترب منها الحيوانات الأخرى. وهي تميل إلى أكل التمور، ولها القدرة على هضم النوى، وأكل الجنادب[2].

تختزن الإبل الشحوم في سنامها، والماء في أنسجة الجسم وفي الأكياس الموجودة في معدتها، وتتحمل السير طويلا دون أكل أو شرب، ويفرز جسمها كمية قليلة من الملح، يبقى مقداره في الدم ثابتا، وتتحمل فقدان 40 %من ماء جسمها، في حين لا يتحمل الإنسان فقدان أكثر من 12 %[3]. السنام في هذه الحالة مقياس مثالي للطاقة، وفي وسع راكب الإبل، أن يحكم من حجم السنام، عما بقي لديه من حيوية، فإذا سارت الإبل سيرا شاقا، تقلص السنام وصغر، وفي الإجازة السنوية للإبل التي تمتد ستة أشهر عندما تواصل الرعي من شروق الشمس إلى غروبها، يمتلئ السنام حتى يغطي الظهر تماما، ولا ريب أن الله ﷻ كان يعلم بالإنسان وحاجاته عندما خلق سنام البعير، فهو وسيلة لمنع الشحوم من الانتشار في الجسد كله، واختزان الحرارة. أما

---

[1]- جورج غيرستر، مرجع سابق،ص. 13 – 14.

[2]- روبرت إيروين: مرجع سابق،ص. 22.

[3]- زهير الكرمي، مرجع سابق،ص. 23.

المعدة فتتكون من ثلاثة أجزاء وتستطيع قبول ما يزيد على خمسين غالونا. وصمم جدارها الخارجي لاحتواء الماء والعصارات الغذائية، ويعرف البدو الرحل أنهم إذا واجههم الموت بسبب العطش قتلوا البعير، وحصلوا على الماء من جوفه، والشيء الغريب في الإبل أنها إذا فقدت الماء من جسمها، تستطيع أن تعيش يومين أو ثلاثة أيام أخرى بدون ماء. فأنسجتها اللحمية تؤمّن الماء، وهو أمر مدهش، على عكس جسم الإنسان إذا تعرض للهواء الحار والجاف، يصبح الدم فيه ثقيل الحركة، يجري بسرعة غير كافية لنقل الحرارة إلى الجلد وإطلاقها، ففي هذه الحالة يصاب الإنسان بنوبة قلبية، أما دم الإبل، فيحتفظ بالثبات الطبيعي للحرارة، حتى ولو خسر كمية كبيرة من الماء، وتتحمل الإبل خسارة كمية من الماء تعادل ربع وزنها، وهو ضعف ما يتحمله الإنسان، وإذا ما شربت الإبل بضع دقائق، استعادت النقص السابق، وفي استطاعتها أن تتحمل ارتفاع درجة الحرارة من تسعين فهرنهايت في الليل إلى 105 درجة في النهار دون أن يعرق جسدها. فالإبل لها طريقتها الخاصة في الاحتجاج على سوء معاملتها، وهي أن تموت، تمضي الإبل حاملة حملها، وماشية بسرعتها المعتادة، دون أن تشكو أو تتذمر، وقد قتلها الإعياء والتعب، وعندما تصل إلى نهاية احتمالها، تقف فجأة، كسيارة فقدت وقودها، وتبرك على الأرض، ثم تفيض روحها بشيء من الكبرياء، قبل أن يكتشف صاحبها موتها، وكأنها تلعب إحدى حيلها وألاعيبها[1].

لا تخزّن الإبل الماء في معداتها بكمية كبيرة، رغم ما يقال عن الرجال اليائسين في الصحراء، يشقون معدة البعير كي يشربوا الماء الذي يحتويه. وتقوم الإبل صيفا باجترار طعامها في منتصف النهار وأثناء الليل، ويعاد تدوير محتويات المعدات بسرعة مقارنة بالمجترات الأخرى، ويمكن الإبل التي تعاني من العطش شرب 27 غالونا من الماء في مدة عشر دقائق، عكس الحيوانات الأخرى التي يمكن أن تنفق بسبب فرط

---

[1]- جورج غيرستر، مرجع سابق،ص. 14 – 15.

التميّه إذا حاولت شرب هذا القدر الكبير، لكن الإبل تتفرد بقدرتها على تخزين كميات كبيرة من الماء في مجرى الدم، فهي ذات خلايا دموية بيضاوية الشكل غير منواة تقاوم الاختلاف الأسموزي دون أن تتقطع، وبذلك يمكن للخلايا أن تتمدد لتصبح ضعف حجمها الأصلي، ويشبه دم الإبل دم الزواحف، فهو يحتوي على كمّ كبير من الألبومين (نوع من البروتين)، ويساعد هذا الأخير الإبل على حفظ الماء بزيادة الضغط الأسموزي، الذي يحفظ السائل في الفراغات الوعائية. ويمكن للإبل شرب ماء ملوحته أعلى من ملوحة ماء البحر، ويمكن أن تسير ثلاثين يوما بلا ماء، مع وجود نباتات رعوية تمدها ولو بقليل من الماء، ويمكن أن تسير من خمسة إلى سبعة أيام بلا طعام أو ماء، وفي حالة العطش الشديد، يصبح فم البعير جافا إلى درجة يصعب عندها الأكل. وللإبل مثانة صغيرة، وهي تتبول قطرات صغيرة في أثناء السير، والبول غليظ وملحي وشديد الحرارة، يسخن به البدو أيديهم أحيانا في الصباح البارد، والإبل العطشى تتبول أقل من الرجل، ويخرج الجمل بوله إلى الخلف، ويكون اتجاه قضيبه إلى الأمام في العملية الجنسية.

تفقد الإبل الماء من خلايا الجسم، وليس من الدم، ولذلك فليس هناك ضغط على القلب، وتوجد الغدة العرقية في مؤخرة الرقبة، فالإنسان يعرق بمجرد ارتفاع درجة حرارة الجو، عن درجة حرارة جسمه وهي 37 مئوية، لكن الإبل يمكنها رفع تحملها بما يصل ست درجات قبل أن تبدأ بالتعرق، وفي الربيع يتساقط وبر الإبل، وتكتسب فراء جديدا في الخريف، فالوبر يعكس أشعة الشمس، والسنام يخزن الشحم ليكون مصدرا للطاقة، ولو وزعت الشحوم على سائر الجسم، بدلا من تركيزها في السنام، لشعرت الإبل بحر شديد، وعندما يحرق الجسم أحد الأنسجة الدهنية، يتفاعل مع الأوكسجين فينتج ماء، الإبل قوائمها طويلة لبعد جسدها عن رمال وصخور الصحراء الحارة، والإبل تخب، أي أنها تحرك ساقيها اللتين في جهة اليمين،

ثم اللتين في جهة اليسار، وهذا يؤدي إلى تمايلها، وهي النوع الوحيد الذي يحب بشكل طبيعي.

وفي السير المعتاد تقطع الإبل مسافة ثلاثة أميال في الساعة الواحدة، وعند العدو يمكن أن تقطع ما بين اثنتي عشر وأربعة عشر ميلا في الساعة، ويمكن للإبل العربية أن تحمل بيسر حمولة وزنها 273 كلغ، لكن الإبل ذات السنامين الأكثر اكتنازا للطاقة يمكنها حمل 455 كلغ[1].

تنتهي قوائم البعير الأربع بإصبعين، كل إصبع مغطى بحافر صغير غير مكتمل، توجد وسادة جلدية عريضة خلف الحافرين، تحيط بالسلاميات الوسطى، تسمح هذه الوسادة للبعير بالسير على الرمال الصحراوية المحرقة والدروب الصخرية. أما فتحتا الأنف القابلتان للانسداد تحميان الجيوب الأنفية من الغبار، وللسان والفم والأسنان القدرة على اقتلاع نباتات الصحراء الجافة والشائكة ومضغها[2].

يتراوح وزن مولود الإبل بين 26 – 51 كلغ بمتوسط 35 كلغ،أما وزن رأس الإبل البالغ ما بين 400 – 800 كلغ،وذلك في الأعمار ما بين04–09 سنوات، وذلك حسب ظروف المعيشة التي يوفرها مالك القطيع من نوعية تغذية وجودتها وعناية ورعاية. هناك طريقة تقديرية لحساب الوزن[3]تتم كالآتي: الوزن الحي بالكلغ = ارتفاع الكتف X محيط الصدر X محيط السنام X 50، مثال: ارتفاع الكتف: 1,95 متر، محيطالصدر: 2,00 متر، محيطالسنام: 2,20 متر، الوزنالحي: 1,95 X 2, 20 X 2,00 X 50=429 كلغ، ويقصد **بارتفاع الكتف**: المسافة من أسفل القدم الأمامية عند الأرض إلى أعلى نقطة في الكتف بالمتر. أما

---

[1]– روبرت إيروين: مرجع سابق،ص. 22 – 30.

[2]– زهير الكرمي،مرجعسابق،ص. 23.

[3]– أرجع إلى الشكل: 03 ،الملاحق.

محيط الصدر: المسافة بالأمتار من أمام السنام وخلف الأرجل الأمامية والوسادة الصدرية. **ومحيط السنام** :المسافة بالأمتار حولا لسنام بداية من أعلى نقطة فيه، وحول البطن انتهاءً بذات النقطة[1].

يمكن أن تعيش الإبل ما بين 30 – 50 عاما[2]، لكن عند بلوغها سن الثلاثين تبلى أسنانها، وتتساقط غالبا، وتجد صعوبة في تناول الطعام، ومضغه فتصعب عليها الحياة. لكنبإمكانها أن تعيش بكفاءة عالية لمدة تتراوح ما بين06 – 20 عاماً، وللذكور القدرة على تلقيح الإناث بكفاءة من07– 15 عاماً. ولتقدير عمر الإبل، يتم النظر إلى أسنانها، وفحص أشكالها، والطريقة التي بليت بها تلك الأسنان، وذلك حتيسن 09أعوم، وبعد هذه السن يصعب تقدير العمر عن طريق الأسنان، وذلك للتآكل الذي أصابها؛ ونذكر اعتبارات أخرى عند تقدير العمر مثل: المظهر، والنضج الجنسي، ولون الشعر، وملمس الجلد، وعدد الولادات عند الإناث[3].

تلك الخصائص تؤكد ما فطر الله به الإبل على حسن تدبير أمور الشرب والغذاء، وجعلها صبورة على العطش والجوع والتعب، في ظل بيئة يقل فيها الماء والكلأ، فالإبل معروف عنها الاقتصاد في استخدام ما عندها من ماء وغذاء.

1- منافع الإبل:

ارتبطت الإبل عبر العصور بحياة البدو الرحل، واشتهرت بوظائفها المتعددة والمتنوعة بصفتها الحيوان الأكثر تمرسا بالصحراء، فهي من أقدم الحيوانات المستأنسة، ساهمت في صناعة الحضارات العظيمة، وكانت إحدى الوسائل القديمة للانتقال ونقل الثقافات، وكانت جزءا من حياة أهل الصحراء، في حكاياتهم وأساطيرهم.

---

[1]- حامد عقب محمد، بابكر عباس،مرجع سابق،ص. 12.

[2]- روبرت إيروين: مرجع سابق،ص. 57.

[3]- حامدعقب محمد، بابكر عباس،مرجع سابق،ص. 14.

كان الصحراويون قبل دخول الإبل إلى الصحراء الكبرى، يعيشون في عزلة عن العالم المحيط في شكل تجمعات سكانية صغيرة، وكل تجمع منطوي على نفسه في إطار اقتصاد الواحات الذي هو اقتصاد الكفاف. وقد كانوا يعتمدون على موارد منطقتهم دون سواها لسد حاجاتهم الضرورية. فإضافة إلى الأرض المزروعة التي كانت تمدهم بالحبوب والخضروات والفواكه، كانت الحيوانات التي يربونها تمدهم باللحوم والألبان والأصواف التي ينسجون منها ملابسهم وأغطيتهم وأفرشتهم ويصنعون منها خيامهم. ومن جلود الحيوانات كانوا يصنعون نعالهم وسروجهم، وقِرَب الماء التي لا يستغنون عنها. ولكن ظهور الإبل مثل ثورة في عالم المواصلات بصفة عامة، وفي علاقات التبادل بصفة خاصة. وبفضل هذا التطور تشكلت شبكات معقدة للمواصلات، وتكونت مراكز تجارية في الصحراء نفسها، وفي البلدان الواقعة على سواحلها، تستقبل السلع والبضائع وتعيد تصديرها، كما تستورد المنتجات الأجنبية الموجهة للاستهلاك المحلي[1].

ومن أروع ما قرأت عن المنافع، التي تجزل بها الإبل على الإنسان، ما كتبه ماهر أحمد الصوفي: " أن الإبل معجزة من معجزات الله سبحانه في خلقه، وأن ما فيه من الغرائب والعجائب، دليلان على أن هذا الحيوان خصه الله سبحانه بخصائص لا تجدها في أي حيوان آخر، فهو متعدد المنافع، متعدد الفوائد، أنيس في الصحراء، يحمل عن الإنسان المشاق، والعذاب وحر الشمس، وسخونة الرمل، يسقيك إذا عطشت ويطعمك إذا جعت، ويحميك إذا فزعت، فأنت على ظهره آمن تمخر به عباب الصحراء فهو بحق سفينة تحميك، لا يخون، ولا يغدر، ولا ينقض العهد، ولا يمن عليك بفضل، وليس هو بشحيح، ولا بخيل، ولكنه كريم يجود بما عنده خير صديق في سفر، وخير رفيق في حضر.. ولكن حاذر أن تخونه أو تغضبه أو تفعل شيئا تثير به

[1]- إسماعيل العربي، مرجع سابق،ص. 47.

عواطفه فيهتاج ويغتاظ، فقد وضع الله سبحانه فيه غرائز عليك بمراعاتها واحترامها"[1].

كانت الإبل عاملا مهما في زيادة العمران في الصحراء، وفي رفع مستوى المعيشة وتحسين ظروف الاتصال والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري بين مختلف مناطق الصحراء وبينها وبين شمالها وجنوبها. وبدونها كان من المحتم، أن تبقى الواحات معزولة ومغلقة على نفسها، ومحرومة من كل الإمدادات الخارجية، ومن كل اتصال خارجي، خاصة مع سواحلها الشمالية والجنوبية. وعليه فإن حياة الرحل توقفت كلية على هذا النوع من الحيوان لضمان الاستقلال والحركة والعيش. ولكن حياة الإبل، هي الأخرى في حاجة إلى الإنسان، فهو الذي يعنى بها ويرعاها ويسقيها ويوجهها إلى المراعي في مختلف المواسم، وبالتالي فإن الإبل لا يمكن أن تعيش في قطعان بعيدة عن رعاية الإنسان. والإبل عند السكان الرحل، هي عنوان للرخاء ورمز للثورة والجاه والسلطان والنفوذ بين العشائر والقبائل. تُدفع بها ديّة المقتول ومَهر العروس، وتنقل على ظهورها أثقال العائلات وخيامها، التي كلما كانت كبيرة والأثاث ثقيلا وعدد النساء كبيرا، احتاجت القافلة إلى عدد أكبر من الإبل. والإبل تمثل موردا اقتصاديا هاما للبدو الرحل في الصحراء، فهم ينتفعون بلبنها، ويلبسون ثيابا مصنوعة من وبرها، ولكنهم لا يذبحون البعير إلا عند الحاجة القصوى، أو متى بلغ سن الكبر، عندها يستفيدون من جلده في مختلف الأغراض ولحمه وعظامه التي يقيمون بها خيمتهم. والإبل تستخدم لنقل الأمتعة الثقيلة ومختلف أنواع البضائع،

---

[1]- ماهر أحمد الصَّوفي، آيات الله في خلق الحيوانات البرية والبحرية وبعثها وحسابها، الموسوعة الكونية الكبرى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط. 01، 1428 هـ / 2007 م، الجزء 11، ص. 132.

ولكنها تستعمل أيضا راحلة للركوب، وهذا النوع يسمى المهري والذي استخدمه الفرنسيون لإخضاع الصحراء[1].

وأوردت بعض كتب التراث التي اهتمت بالحيوانات، عدة منافع علاجية لأعضاء مكوّنة لأجسام الإبل، ذكرت أنها نفعت الإنسان في عدة أمراض. ونستحضر هنا ما جاء به القزويني والدميري، يخلط مخّ الإبل بماء الكراث النبطي وتمسح به المرأة الحامل تقيء ما في بطنها، أما مخ ساقها، فإنه يساعد على حمل المرأة ولو كانت عاقرا، إذا تحمّلت به في قطعة قطن بعد الطهر من الحيض مدة ثلاثة أيام.أما الغدة التي حلت محل المرارة على الكبد ففيها لعاب تكحل به العين التي فيها غشاوة قديمة فينفعها، ويمسح به على الرقبة والحلق ينفع من الخناق، ويعالج به الصرع إذا تم مزجه مناصفة مع المسك بوزن قيراط ويسعط به. وينفع أكل كبدها من ظلمة البصر، وإذا وضع شحمها في مكان ما إلا وفرّت منه الحيات، وتسكّن شحوم السنام أوجاع البواسير إذا استخدمت ذائبة، أو مبخرة، وتوجد في كرشها غدة، إذا أخرجت فحجرت، تسحق وتمزج بالخل حتى تبيض وتنعقد، تنفع في التخلص من السموم القاتلة، يطحن عظمها ويخلط بالزيت، ويوضع على رأس المصروع تخلص من صرعه، وإذا تم ربط شعرها على الفخذ الأيسر لمن به سلس البول أو التبول في الفراش تخلص منهما، وكذلك أيضا إذا دفن في التراب وبال عليه الطفل المصاب بالتبول، وإذا ذرّ الوبر المحروق على الأنف الذي ينزف انقطع الرعاف، ويكون الأمر نفسه إذا وضع على جروح تنزف، وينفع لبنها من كل السموم، وإذا تمضمض به الإنسان نفع الأسنان المأكولة، وينفع بولها المغلي في طلاء ناصور (ناسور) الإنسان فيصلحه، ويعالج شربه وجع الكبد ويقوي الجماع بين الزوجين (الباه)، ويزيل الصفرة عن الوجه، وينفع الأذن الموجعة إذا تم تقطيره فيها، وإذا شربه المخمور، أفاق في وقته، ولحمها يقوي

---

[1]- إسماعيل العربي، مرجع سابق،ص. 45.

العلاقات الجنسية والانتصاب عند الرجل (الإنعاظ)، أما بعرها فيوقف رعاف الأنف، ويقضي على آثار الجدري، ويزيل الثآليل[1]، وهو غني بالنشادر، لذلك فهو مفيد ليكون سهادا، ويصلح البعر الجاف وقودا[2].

ومن الطرائف التي ارتبطت بعلاقة الإنسان بالإبل، أنه أطلق على الجمل كنية " أبو أيوب " لصبره، وضرب عدة أمثال بالإبل منها، " ما هكذا تورد يا سعد الإبل " ويضرب هذا المثل لمن تكلّف أمرا لا يحسنه، و" يا إبل عودي إلى مباركك " ويضرب لمن يفر من الشيء الذي لابد له منه[3]. وهناك قول مأثور: " إن الحياة صحراء، وأن المرأة هي الجمل الذي يساعدنا على قطعها "[4].

ثانيا: صور من التواصل التجاري والثقافي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي:

1- المسالك والمحطات التجارية:

لقد شكل الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، حاجزا كبيرا أمام التغلغل جنوب الصحراء، أين السودان الغربي على وجه الخصوص، ومنذ اندحاره، عرفت القوافل التجارية ومعها الإبل الطرق العابرة للصحراء. أدت إلى تحولات جذرية غيّرت نمط الحياة في الصحراء الكبرى، امتدت آثارها إلى القرن 09 هـ / 15 م عندما اكتشف البرتغاليون الطريق البحري. فلقد جلبت الإبل نشاطا جديدا للصحراء وسكانها من

---

[1]- القزويني، مصدرسابق،ص. 380. الدميري، مصدرسابق،ص. 84 – 85.

[2]- روبرتإيروين، مرجعسابق،ص. 22.

[3]- الدميري،مصدرسابق،ص. 84، 650.

[4]- جورجغيرستر،مرجعسابق،ص. 13 .

البربر والعرب من خلال انتعاش مدن تجارية عديدة بالسواحل الصحراوية، وإقامة جسور اتصال دائمة بين جنوب الصحراء والحضارة القائمة في شمالها[1].

يتحول البدو الرحل من مربي مواشي إلى تجار في فترات محددة من السنة، فينتظمون في قوافل، ويسافرون إلى الواحات لبيع منتجاتهم في أسواقها، ويشترون ما يحتاجون إليه من مواد تموينية وغيرها مثل: التمر والملابس والأسلحة والأدوات والتوابل والملح. وإضافة إلى ما يجنونه من نشاطهم الرعوي والتجاري، كانوا يحترفون السطو والغزو على القوافل التجارية والقبائل المجاورة التي لا تمتلك القوة. وعادة تكون النزاعات بين بعض القبائل مرتبطة بموارد المياه والمراعي، فتنشأ خلافات وكراهية تنتهي بالتصادم الدموي، فضلا عن الرغبة في السلب والنهب وزيادة موارد القبيلة عند البعض الآخر[2].

ونذكر هنا المسالك التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى، كالطريق الرابطة بين توارق اهقار بتيديكلت وبتوات، فيشتري التوارق التمر والمنتجات القطنية والشاي والسكر، ويبيعون الحيوانات والسمن وبعض المنتجات التي يحصلون عليها من آير، والطريق التي بين التوارق بجبال آير ودمرغو، أين كانوا يبيعون ملح ملاحة أمدور، في مقابل الأسلحة والسروج والأكياس وغيرها؛ والطريق التي تصل التوارق بأدرار إيفورا والنيجر، حيث كانوا يبتاعون الحيوانات والأرز، والطريق الممتدة من التوارق إلى غات وغدامس وغيرها من المراكز عبر الصحراء.

وأما طرق القوافل الكبرى التي ازدهرت في الفترة الإسلامية بين شمال وجنوب الصحراء، فكانت أهمها التي ارتبطت بمحطات شهيرة مثل: تمبكتو وفاس

---

[1]- نور الدين شعباني، " **دور ملوك السودان الغربي والأوسط في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة/ والحادي عشر والخامس عشر للميلاد** "، دورية كان التاريخية، العدد 14، ديسمبر 2011 م. ص 47- 53. (www.historicalkan.co.nr)

[2]- إسماعيل العربي، مرجع سابق،ص. 36.

وسجلماسة وقلعة بني حماد والقيروان. وعن طريق هذه الشبكة من مسالك القوافل، كانت الصحراء قبلة لمنتجات خارجية، يتم تبادلها بالعبيد والتبر (خام الذهب). وعليه تميز الميزان التجاري الصحراوي في تلك الفترة بعجز دائم، وذلك لضعف اقتصاد الصحراء، فسكانها يستوردون أكثر مما يصدرون[1].

تكاد تتفق آراء الباحثين على أن المسالك الكبرى، التي كانت تمر بها القوافل العابرة للصحراء إلى ومن السودان الغربي، وتتمثل في: مسلك سجلماسة وينطلق إلى والاتة ومنها إلى تمبكتو وجني وغاو، ومسلك تلمسان ويمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهي إلى تمبكتو، ومسلك تكرت (تقرت) وورجلان (ورقلة) إلى غاو مباشرة، وهذا المسلك يتصل شمالا ببضائع موانئ المغرب الأوسط الهامة مثل: جزائر بني مزغنة وبجاية وسكيكدة وغيرها، ومسلك ينطلق من واحة الجريد في جنوب تونس؛ يتفرع لتمر قوافله بوادي سوف وورقلة غالبا أو بغدامس في بعض الأحيان، ومسلك من طرابلس الغرب ويمر بغدامس، وفزان ثم يتفرع إلى بورنو أو غاو، ومسلك من مصر ويمر من واحة سيوة، فتادمكت (مكة الجديدة) ثم ينتهي إلى غاو وتمبكتو[2].

ولكن سكان الصحراء لم يكتفوا بممارسة التجارة تصديرا واستيرادا، بل احترفوا أيضا تجارة العبور بين سواحل الصحراء الإفريقية الكبرى الشمالية البيضاء والجنوبية السوداء. والميزة الأساسية التي تتمتع بها التجارة العابرة للصحراء، هي أنها لا تعترض طريقها عوائق تقليدية، مثل: قوانين السجل التجاري، فالتبادل التجاري بين مختلف مناطق الصحراء في الماضي كان يخضع لقيود قليلة. فالتاجر الذي يريد أن

---

[1]-نفسه، ص. 48.

[2]- عبدالقادر زبادية،مرجع سابق،ص. 142 – 143. عبدالرحمن بلاغ، " **الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط، مراكزالمسالك الصحراوية نموذجا** "،دورية كان التاريخية، العدد الرابع والعشرون، يونيو 2014،ص 108 – 109. (www.historicalkan.co.nr)

يقتحم أسواق الصحراء، لم يكن يحتاج إلا إلى إبله وبضائعه التي يريد أن ينقلها على ظهورها، فإجراءات الحدود من تفتيش وتعريفة الجمركية وإشراف حكومي شائعة في التجارة الصحراوية، لكن التاجر كان مهددا بمخاطر أخرى في طريقه، أخطرها السطو والنهب. فالقوافل مطالبة بقطع مسافات طويلة في ظروف طبيعية صعبة من حرارة وجفاف ورياح. وهي مضطرة إلى اتخاذ مسالك معلومة آمنة نسبيا، تضمن توفير الماء خاصة في الواحات، التي شكلت مناطق مضيئة في الصحراء، لما توفره من أسباب الراحة لأصحاب القوافل. رغم أن هذا الاعتبار يسهل مهمة قطاع الطريق، والقبائل الغازية لوضوح معالمه[1].

ولما قامت ممالك السودان الغربي ربط رعاياها علاقات بسكان بلاد المغرب لأغرض التجارة. وترتب عن هذه الحركة المزدوجة الاتجاه، أخذت التجارة تتطور في معاملاتها بإنشاء شركات تجارية، وإقامة مستودعات لتخزين السلع، وظهور خدمات الإعلام التجاري عبر الوكلاء التجاريين والدلالين، وخضوعها للرقابة والرسوم داخل تلك الممالك[2].

ونذكر هنا أسرة المقّري التلمسانية، التي كانت نموذجا في تنشيط الحركة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، حيث أنشأت شركة[3] تجارية، تكفلت

---

[1]- إسماعيل العربي،مرجع سابق،ص. 49.

[2]- نفسه،ص. 52.

[3]- ورد هذا المصطلح بمفهومه المعاصر، في كلام صاحب نفح الطيب متحدثا عن جده، عبد الرحمن: " ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلاً للرحيل، وراية تقدم عند المسير، وكان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال، فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال...". أنظر: المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت. 1040 هـ/ 1630 م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988 م، الجزء 05، ص. 205.

بالتجارة والانشطة المكملة لها، مثل: تمهيد الطرق وحفر الآبار وحماية التجار، ورفع راية القافلة، واتخاذ طبل الرحيل، ونشر ممثلين عنها في الأسواق للاستخبار عن الأسعار، والبضائع المتوفرة والنادرة وغير الموجودة. وأقامت علاقات تجارية مع تجار سجلماسة وإيوالاتن (والاتة)، ومختلف مدن بلاد السودان، بل تعدتها إلى المصاهرة وشراء الأملاك من بيوت وبساتين، وكانت السلع المطلوبة عند التلمسانيين بكثرة الجلود والعاج والجوز والتبر. وقد تضررت تجارة أسرة المقري في فترات عدم الاستقرار السياسي، لكنها سرعان ما ازدهرت، لما أقاموا علاقات متينة مع الحكام في المغرب الأقصى وممالك جنوب الصحراء.

وقد انتقد المقري سوء سلوك بعض تجار الصحراء، الذين كانوا يغشون في تجارتهم، فينقلون إلى بلاد السودان السلع الفاسدة من أجل الحصول على التبر، وتكلم أيضا عن بعض الناس السفهاء، الذين تأثروا ببعض العادات الفاسدة لما تركوا بلاد المغرب، وذهبوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء، فبددوا أمواله، ولم يحسنوا استثمار أموالهم، وتعرضوا إلى بطش السلاطين، وعاشوا حياتهم في نقصان[1].

شجعت القوافل التجارية المترددة بين المناطق الساحلية والداخلية في المغرب الأوسط سكان مدن وقرى الواحات الواقعة بمسالك الصحراء على القيام بنشاطات اقتصادية مادية وخدماتية لتسهيل مهمة تلك القوافل، وتنمية الواحات كذلك. وشكلت تلك المراكز محطات تموين للقوافل، بفضل ما توفره المهن والحرف من منافع للطرفين، فبالواحات تتغذى وتستريح الدواب والركبان، ويلتقي التجار بأهل العلم والصلاح. فالدعم اللوجستي الذي تقدمه محطات الواحات على طول المسالك الصحراوية لا يفقد التواصل بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية في المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء. فرغم شساعة الصحراء، التي تمثل ثلثي مساحة

---

[1]- نفسه،ص. 205 – 206.

منطقة، إلا أنها لم تشكل حاجزا أمام القوافل العابرة ما بين الشمال والجنوب. ويرجع كثير من الباحثين أن الحيوية التي عرفتها صحراء المغرب الأوسط، يعود فيها الفضل الأساس للمسلمين، الذين بفضل صفاتهم الصحراوية، نجحوا في اقتحام مجاهل الصحراء الإفريقية الكبرى، واكتشاف طرق برية عديدة، وكان للجمل دور في النقل والتنقل لما يحمله من صفات تؤهله للتأقلم مع الطبيعة الصحراوية القاسية من حرارة وجفاف. إن وفرة المياه في الواحات خلال الصعاب، فالمسافة بين موردين للماء قد توجد على بعد مسافة ثمانية أيام، وتكون غالبا في شكل آبار لا يتعدى عمقها بضعة أمتار. وقد ساهم نظام توزيع المياه (الفقارة) في توات، في انسيابية حركة القوافل في جميع الاتجاهات، مرورا بواحات تمنطيط، وكورارة، وتيدكيلت[1].

وكانت البضائع المتبادلة مع السودان الغربي متنوعة، على رأسها التمور التي اشتهرتها وجودتها وارتفاع سعرها، أصبحت تباع في سوق تمبكتو بالحبات أي بالعد لا بطريقتي الكيل والوزن. إضافة إلى سلع أخرى قادمة من الشمال، من أواني نحاسية، مصنوعات جلدية، زجاج، مرجان، عطور، تين المجفف، منسوجات قطنية وحريرية، قمح، ملح، كتب، جلود مدبوغة، أصبغة مختلفة، حلي والخيول. أما من الجنوب، فتحتوي على ذهب، ريش نعام، عبيد، توابل وعاج[2].

كانت توات من أعظم المراكز الصحراوية على الطريق الصحراوي الأوسط ، فهي ذات نخيل وأشجار وعيون، تبعد عن سجلماسة ثلاثة عشر يوما، ولأول السودان عشرون يوما، ولبلاد الزاب عشرة أيام، وكانت تقدم دعما كبيرا للقوافل، فأسواقها عامر ة بالمنتجات الفلاحية من تمر وعنب وشعير وقمح، إضافة إلى بعض المنتجات الحرفية كالبرانس والحياك، والقرب والنعال الجلدية، وأدوات صنعت من سعف وجذوع النخيل، فضلا عن المنتجات الرعوية من لحم الجمال، والشحم المملح،

---

[1]- عبدالرحمن بلاغ، مرجع سابق،ص. 110.

[2]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق،ص. 145.

الذي يورّد من فاس وتلمسان.كما اشتهروا بكرم الضيافة، وتسهيل مهمة ركب القوافل، في وقت كانت الفنادق شبه منعدمة، اتخذ المسافرون الزوايا إن وجدت مكانا للنزول، وتوفر لهم كل الظروف المناسبة. واشتهرت بعض المراكز مثل توات بحرفة الصرافة، لارتباطها بأسواق السودان وقربها منها. وعرفت ورجلان بسك العملة، وبسكرة توفر لهم تمر من أطيب الثمار، حتى أن كل عشر تمرات من تمر بسكرة بيعت في أسواق تمبكتو بخمس ودعات، كما توفر ورجلان للقوافل القاصدة السودان الحنطة. وتبقى خدمات الفنادق والمطاعم والمصحات غائبة عن الذكر[1].

ومن التطورات التي عرفتها العلاقات التجارية بين سواحل الصحراء الشمالية والجنوبية؛ هو ما تضمنته رسالة سلطان بورنو التي بعث بها إلى علماء توات سنة 844 هـ/ 1440 م، يشتكي لهم فيها عن تراجع التجارة البينية، بسبب تناقص عدد التجار الوافدين على بلاده، عكس ما كانوا عليه سابقا. ويرجح أن الدافع الحقيقي من وراء هذه الشكوى، لا يرتبط بتدهور حركة التبادل التجاري والحضاري على طول ذلك الطريق الحيوي، وإنما لها علاقة بالتواجد اللافت للانتباه لجالية يهودية، اقتحمت مسالك الصحراء، وسيطرت على حركة التجارة في توات، وهذا ما دفع التوارق إلى قطع الطريق العابرة لأراضيهم بين منطقتي توات وبورنو، وذلك لإعاقة التجارة التي يقودها اليهود[2].

ويمكن الإشارة هنا إلى وجود حرف مرافقة للقوافل في حلها وترحالها، كانت القافلة الواحدة عبارة عن مدينة متنقلة، فيها المؤذن والإمام والقاضي والشيخ الرئيس، وهي مجموعة تشكل مجلس القافلة، من بينهم ينتخب شيخ القافلة، كما كان بالقافلة الحراس والفنانون والمغنون والمصرفيون والتجار والسياح والحجاج والمتسكعون والمتجولون، والكثير من أخلاط الناس والمهن، كانت القافلة تشكل في

---

[1]- عبدالرحمن بلاغ، مرجع سابق،ص. 111 – 112.

[2]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق،ص. 144.

حد ذاتها شبكة اجتماعية متكاملة ووعاء ناقل للحضارة متفاعل داخليا وخارجيا. وكان رئيس الركب يقوم بمفاوضة سلطات المناطق التي تعبرها القافلة، ودفع إتاوات المرور، وهي لا تتجاوز قطعة قماش تساوي دينارا على كل حمل جمل، ويؤمن للقافلة المسلك الآمن، والاستعانة بأدلاء الطرق، ويرافق القوافل كذلك وكلاء للتجار ودلالين، كما يرافق القافلة عمال صيانة آبار المسالك، وعمال حرفيون باحثون عن الثراء مثل المنجمين (الملح)، والمترجمون لتسهيل عملية التواصل، ويشكل الجمالون عنصر مهم في القافلة، بحكم إقامتهم واقتيادهم لدواب القافلة وأكثرها طبعا الجمال لذلك سموا بالجماليين[1].

2- التواصل الثقافي:

يبدو أن العلاقات الثقافية بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء قبل دخول الإبل في قطاع النقل محدودة، وذلك راجع كما ذكرنا سابقا إلى عدم قدرة الحيوانات الأخرى من ثيران وخيول وحمير وبغال، على تحمل أعباء المسالك الممتدة في البيئة الصحراوية القاسية.

وتوطدت أكثر تلك العلاقات بعد ظهور الإسلام، بحيث كان للأفارقة الشماليين دور في انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ودخول المؤثرات الإسلامية إليها بيسر، فالصحراء لم تكن عائقا للتواصل الحضاري بين المنطقتين، بل الحواجز السياسية الاستعمارية عبر التاريخ هي التي أعاقت ذلك الحراك للقضاء على تلك اللحمة التي تشكلت بين شعوبها، بغرض التمكين لمخططات الاستعمار التوسعية. وأذكر هنا الحاجز الكبير الذي شكّله قديما الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا أمام إفريقيا جنوب الصحراء[2].

---

[1]- عبدالرحمن بلاغ، مرجع سابق،ص. 112.

[2]- نورالدين شعباني،م رجع سابق،ص. 47 – 53.

تم الاعتماد على ثلاث وسائل رئيسة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بالسودان الغربي، وهي مسالك القوافل التجارية، وتجار بلاد المغرب وتنظيماتهم، والدعاة الأفارقة. وبعد اكتمال التواجد العربي واستقرار الإسلام بشمال إفريقيا في القرن 02 هـ / 08 م؛ بدأ التغلغل جنوبا نحو بلاد السودان الغربي، ولم تكن الصحراء حاجزا أمام مبادرات التواصل المتعددة، فقد سهلت الطرق الصحراوية، التي مهدتها القوافل التجارية، عملية تدفق المؤثرات الإسلامية إلى تلك المناطق. وأخذ الإسلام ينتشر بقوة بين شعوب إفريقيا جنوب الصحراء، خاصة بعد سقوط مملكة غانا الوثنية عام 469 هـ / 1076 م، وفُتح الباب أمام قيام ممالك إسلامية بلغت تطورا ملحوظا في مجال الحضارة، بفضل الثقافة التي حملها المسلمون معهم من الشمال[1].

ولعل اللافت للنظر، هو تنقل العلماء برفقة كتبهم التي تحمل في طياتها مختلف فنون المعرفة إلى بلاد السودان، ومساهمتهم الفعالة في ترقية عوامل الاتصال اللغوي والإنساني عن طريق القوافل التجارية، وهذا ما أدى إلى دخول السودان الغربي منذ وقت مبكر في حيز الحضارة والتاريخ الإسلاميين، قبل غيره من أجزاء القارة السمراء، فعرفه العالم وتعامل معه[2].

لما دخل الإسلام إفريقيا جنوب الصحراء، اعتنقه السكان على مستويات مختلفة، بحيث وفق الحكام والعائلات الكبيرة، وأهل العلم من استيعاب مبادئه وتعاليمه. وذلك بفضل تواصلهم بالعرب، الذين قدموا إلى هذه الأرجاء في فترات مختلفة، وبتفاوت درجات هؤلاء، من حيث تكوينهم، وثقافتهم، وعلمهم في الدين، اختلف تأثيرهم في الشعوب الإفريقية الوثنية. أما عامة الناس فتشبثت بعاداتها

---

[1]– عبد الله عيسى، " التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16م "، مجلة البيان، العدد 328، ذو الحجة 1435هـ/ أكتوبر 2014م، (www.albayan.co.uk)

[2]– عبدالقادر زبادية، مرجع سابق،ص. 145 – 146..

وتقاليدها، وحياتها الفكرية، ولم تتأثر بالإسلام تأثرا كبيرا في البداية. وبفضل الاحتكاك المتواصل بالمسلمين لأغراض تجارية، تأثر الوثنيون السود ببعض المظاهر السلوكية للمسلمين، وقلدوهم في ملابسهم، ونمط حياتهم، وغير ذلك من المظاهر التي أثارت اعجابهم، فهم كانوا يعيشون حياة بدائية، إذا استثنينا أهل الحبشة ومالي وكوكو والتكرور[1].

ومثلما كانت مسالك القوافل التجارية شرياناً للحياة الاقتصادية بين سواحل الصحراء الشمالية والجنوبية، فإنها أصبحت مصدر إشعاع للمؤثرات الدينية والثقافية بين العدوتين، وظلت المراكز التجارية المتواجدة على طول السبل التي تجوبها القوافل التجارية على طول الصحراء وعرضها، عاملا للتبادل والتفاعل الفكري والثقافي، وذلك لما تقدمه من خدمات أثناء الإقامة، من مسكن ومأكل ومشرب وأمن، وساهمت هذه الحركة الحضارية في ازدهار عدة مدن تجارية في السودان الغربي مثل:كاو،وجني،وتمبكتو.

تحول التاجر المسلم بفضل أخلاقه وسلوكه إلى داعية، فجمع بين الدعوة إلى الإسلام، وممارسة حقه في الارتزاق وهو التجارة، التي شكلت وسيلة هامة لتغلغل المسلمين في حياة الأفارقة الذين تأثروا كثيرا بالجديد الذي حط بديارهم، فتوثقت عرى العلاقة، وأصبحت قيم الأمانة والصدق والإخلاص تمهد الطريق أمام التجار المسلمين لبناء صلات قوية مع الأهالي. فالتاجر المسلم كان إذا دخل قرية وثنية، وشوهد كيف يتوضأ ويصلي ويعامل الناس، وكيف يحافظ على نظافته في البدن

---

[1]- عمّار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1988، ص. 42 - 44.

واللباس، فإنه بالتأكيد، كان سيؤثر في الكثير منهم، ولما لا يكون سببا في اعتناقهم الإسلام[1].

ومن أبرز مظاهر التواصل الثقافي والديني مسائل الأسقيا محمد[2] ملك سنغاي الذي طلب من الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الإجابة عنها وفق تعاليم الإسلام، وكان ذلك في سنتي 908 – 909 هـ / 1502 - 1503 م، وتتمثل أهمية هذه الأسئلة، أنها تلقي بعض الأضواء على الوضع الاجتماعي والسياسي بدولة سنغاي أثناء عهد الأسقيين، وتكمن تلك الأهمية خاصة في أن الأسقيا الكبير تبدو عليه الصراحة في بسط عدد من المواضيع الاجتماعية والسياسية التي كانت تشغل باله، ليعرفها المغيلي، ويحاول الإجابة عنها حسب مفاهيم الإسلام. أما المغيلي فقد بدا عليه في الأجوبة أنه كان على اطلاع بأوضاع السودانيين[3].

انطلق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي من توات في رحلة إلى بلاد السودان الغربي، فزار مدينتي كانو وكاتسينا ومدن أخرى عديدة في الفترة ما بين عامي 900 – 904 هـ / 1494 – 1499 م. وترك فيها أثرا عظيما، إلا أنه لم يمكث طويلا بسبب الحادثة التي أصابت ابنه، ولما بلغه مقتل هذا الأخير عاد مسرعا إلى توات، ولم يعش طويلا بعد ذلك فوافته المنية في عام 909 هـ / 1503 م. وكان المغيلي من العلماء الذين يحملون صفات الفصاحة والإقدام والشجاعة والوقار. وترك الشيخ المغيلي

---

[1]- توماسأرنولد،**الدعوةإلى الإسلام**،ترجمة،حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970 م،ص. 391.

[2]- في سنة 1493 م قام الأسقيا محمد بثورة ضد سني علي واستولى على عرش سنغاي، فبدأ منذ ذلك الوقت عهد الأسقيين في سنغاي الذي استمر حتى سنة 1591 م. **أنظر**: عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 م، ص. 155.

[3]- نفسه،ص. 151 – 191.

مدرسة من التلاميذ، حفظت على أفكاره وأخذت بها، وسارت على منهجه، يتقدمهم محمد بن أحمد التازختي الذي عرف في بلاد الهوسا بفقه الغزير، وعطائه الكثير، ومخلوف بن علي عالم كانو وكتسينا، والعاقب بن عبد الله من علماء أغاديس، والإمام أحمد بن فرتوا مؤرخ منطقة برنو، وهو ينتمي إلى أسرة دينية، كان لها الأثر الكبير في نشر الإسلام وعلومه في وسط وغرب إفريقيا[1].

وصفوة القول أن دور التجار المسلمين لم يتوقف على النشاط التجاري والمالي في إفريقيا جنوب الصحراء فقط، بل تعداه إلى الدعوة إلى الإسلام، فنقلوا العقيدة والحضارة الإسلاميتين، وعمقوا علاقات التواصل بنشر اللغة العربية، وبناء المساجد والمدارس.

خاتمة:

يمكن في نهاية هذا العمل أن نستخلص جملة من النتائج:

- تنفرد الإبل عن غيرها من الحيوانات، أنها الوحيدة التي يُشرب لبنها، ويُؤكل لحمها، وتُركب، ويُحمل عليها وكذلك تستخدم جلودها وأوبارها وعظامها، فهي إذن متعددة المنفع للإنسان الذي رافقها عبر العصور في البيئة الصحراوية.

- رغم أن الإبل تتصل في أذهاننا أوثق الصلة بالصحراء الإفريقية، إلا أنها في الحقيقة دخيلة عليها وغريبة عن فضائها، فالإنسان هو من أدخلها عن طريق منافذ عديدة.

- أدى دخول الإبل مجاهل الصحراء الإفريقية، إلى إحداث ثورة في عالم النقل الصحراوي، وتنشيط حركة التبادل بين ضفتي الصحراء، خاصة بعد انتشار الإسلام في السودان الغربي.

---

[1]- عبد الرحمن عمر الماحي،الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992 م،ص. 94 - 95.

-ساهمت تجارة القوافل في ازدهار المدنالواقعة على الطرق التجارية بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء، حيث أصبح أهلها وسطاء تجاريين يقودون القوافل بين العدوتين.

- لم تكن الصحراءفي يوم من الأيام،عائقا بين سواحل الصحراء الشمالية والجنوبية، بل عرفت مسالك تجارية، نُقلت عبرها البضائع، وساعدت على تدفق المؤثرات الثقافية والحضارية.

- وقف الاستعمار الأوروبي عبر العصور حاجزا، أمام التواصل بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء، وافتعل مشاكل كثيرة في إطار سياسة فرق تسد.

مـــلاحق:

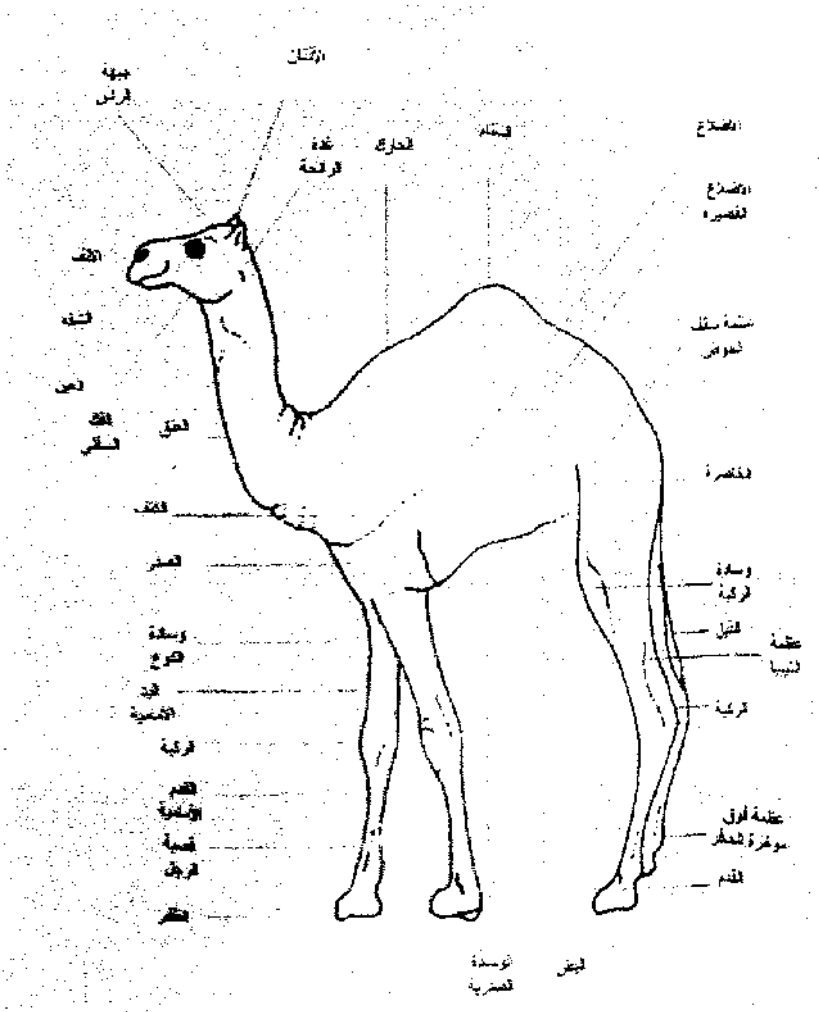

الشكل 01: أجزاء جسم البعير[1]

[1] - حامد عقب محمد، بكر عباس، مرجع سابق، ص 13. ريبوت ليزيين، مرجع سابق، ص 24.

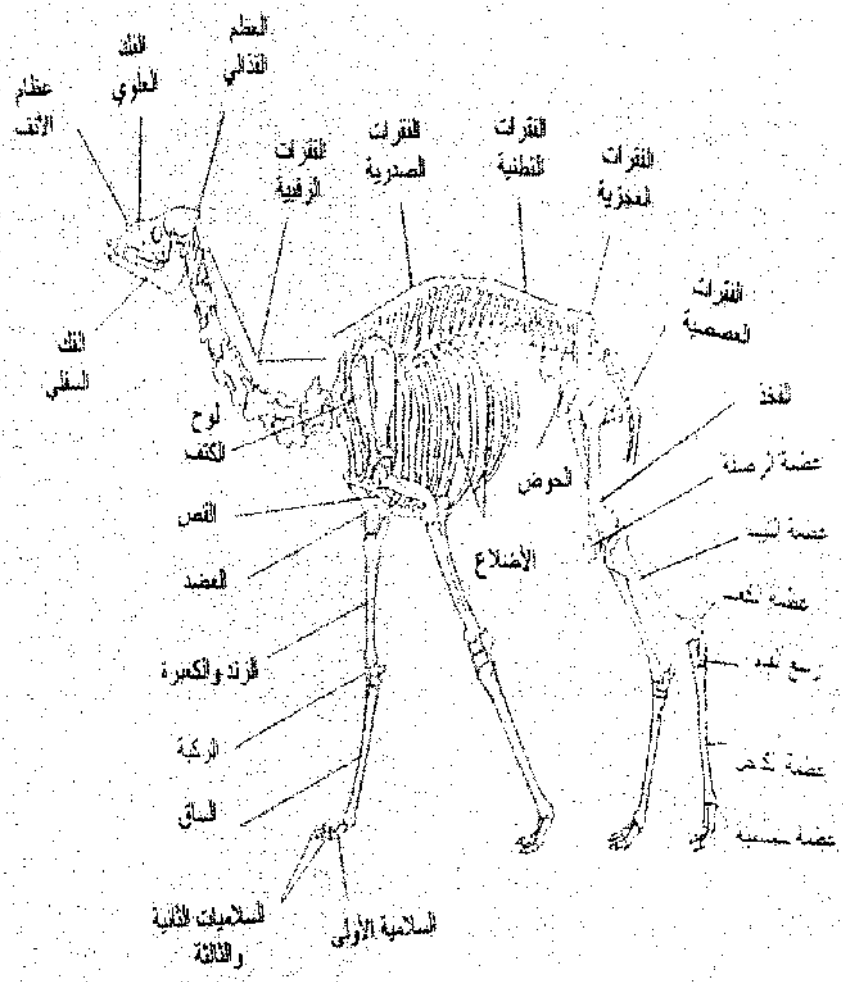

الشكل 02: الهيكل العظمي للبعير[1]

[1]- حامد عقب محمد، بابكر عباس، مرجع سابق ،ص. 08. روبرت إيروين، مرجع سابق، ص. 25.

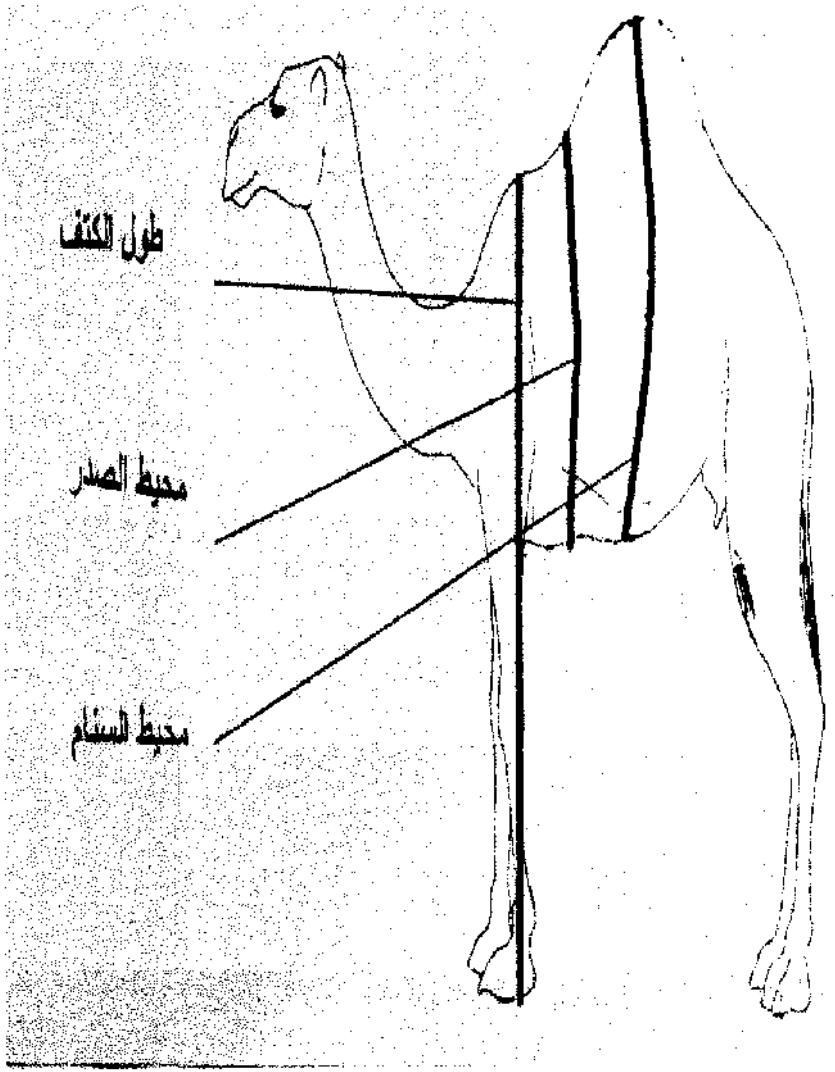

الشكل03: الأجزاء المطلوب قياسه التقدير وزن الإبل[1]

[1]– حامد عقب محمد، بابكر عباس، مرجع سابق،ص. 13.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 م.

2-الألباني، محمد ناصر الدين، **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض، د. ت.، الجزء 04.

3- توماس أرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة، حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970 م.

4- جورج غيرستر، **الصحراء الكبرى**، ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة 01، 1961 م.

5- حافظ زينهم حافظ، **من أهم أمراض الإبل .. وطرق علاجها**، عيادة الإسلام البيطرية. (www. kenanaonline.com)

6- حامد عقب محمد، بابكر عباس، **بيئة الإبل وأمراضها**، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، الخرطوم، 2010 م.7- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت. 808 هـ/ 1405 م)، **حياة الحيوان الكبرى**، تحقيق إبراهيم صالح، الجزء 01، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط. 01، 1426 هـ/ 2005 م.8-

روبرت إيروين: **الجمل التاريخ الطبيعي والثقافي**، ترجمة: أحمد محمود، مراجعة: خالد المصري، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، 2012 م.

9- زهير فخري الجليلي، **الإبل أسرار وآيات**، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.(www. m.quran-m.com)

10- زهير الكرمي، محمد سعيد صباريني، **عالم الحيوان، الأطلس العالمي**، تحقيق عصام المياس، حافظ قبيسي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983 م.

11- سيد قطب (ت. 1385هـ/ 1965 م)، **في ظلال القرآن**، المجلد 06، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط. 32، 1423 هـ/ 2003 م.12- الطاهر قدوري، " **الطرق التجارية الصحراوية وامتداداتها في البحر المتوسط في العصر الوسيط** "، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد 15، 2011 م.13- عبد الرحمن بلاغ، " **الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط، مراكز المسالك الصحراوية نموذجا** "، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والعشرون، يونيو 2014.(www.historicalkan.co.nr)14- المقري، أحمد بن محمد التلمساني(ت. 1040 هـ/ 1630 م).**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988 م، الجزء 05.15- عبد الرحمن عمر الماحي، **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992 م.16- عبد القادر زبادية، **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 م.

17- عبد القادر زبادية، " **ورقلة عروس مدائن الجنوب الجزائري**" ، مجلة الأصالة ، العدد 41 ، السنة السادسة، محرم 1397 هـ/ جانفي 1977 م، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر.

18- عبد الله عيسى، " **التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16م** "، مجلة البيان، العدد 328، ذو الحجة 1435هـ / أكتوبر2014 م. (www.albayan.co.uk)

19- عمار هلال، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء**، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1988 م.

20- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت. 671 هـ/ 1273 م)، تفسير القرطبي،**الجامع لأحكام القرآن**، ج. 20، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.

المحتوى

*تقديم مدير مخبر البحث في الدراسات الأدبية والانسانية 5

الدكتور عبد الجليل قريان

*- الكلمة الافتتاحية في الندوة 11

أد. إسماعيل سامعي

*- قراءة في بعض المصادر العربية الخاصة بتاريخ العلاقات بين المغرب الأوسط (الجزائر) والسودان الغربي والأوسط " (إفريقيا جنوب الصحراء) 13

أد . إسماعيل سامعي -جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

*-العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد الرستمي(160ـ296هـ/ 777ـ909م)..... 23

أد/ إبراهيم بكير بحاز- جامعة غرداية

*- التبادل التجاري بين تلمسان والسودان الغربي في القرنيين السابع والثامن الهجريين 13-14 م 31

د.عبد الجليل قريان -جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

*- الانعكاس الثقافي الإسلامي على تعلم اللغة العربية وآدابها في السودان الغربي. 73

د. رياض بن الشيخ الحسين-جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

* - الدور الثقافي للتجار والدعاة بالسودان الغربي بين النص التاريخي والتحليل السوسيولوجي. 93

د.حسين بوبيدي- جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة

* – الصلاة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي وأثرها الثقافي على الحواضر 131

أ. كمال صادقي – جامعة باجي مختار – عنابة

*– دور المصادر الإباضية الوهبية في التأريخ للعلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية ق 6/ 12 145

أ عبد القادر مباركية– طالب دكتوراه – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

*– الإبل وتدفق حركة التبادل التجاري بين المغرب الأوسط وبلاد السودان الغربي (ق 5–10/ 11–16) 203

أ. كمال منصوري– طالب دكتوراه– جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–